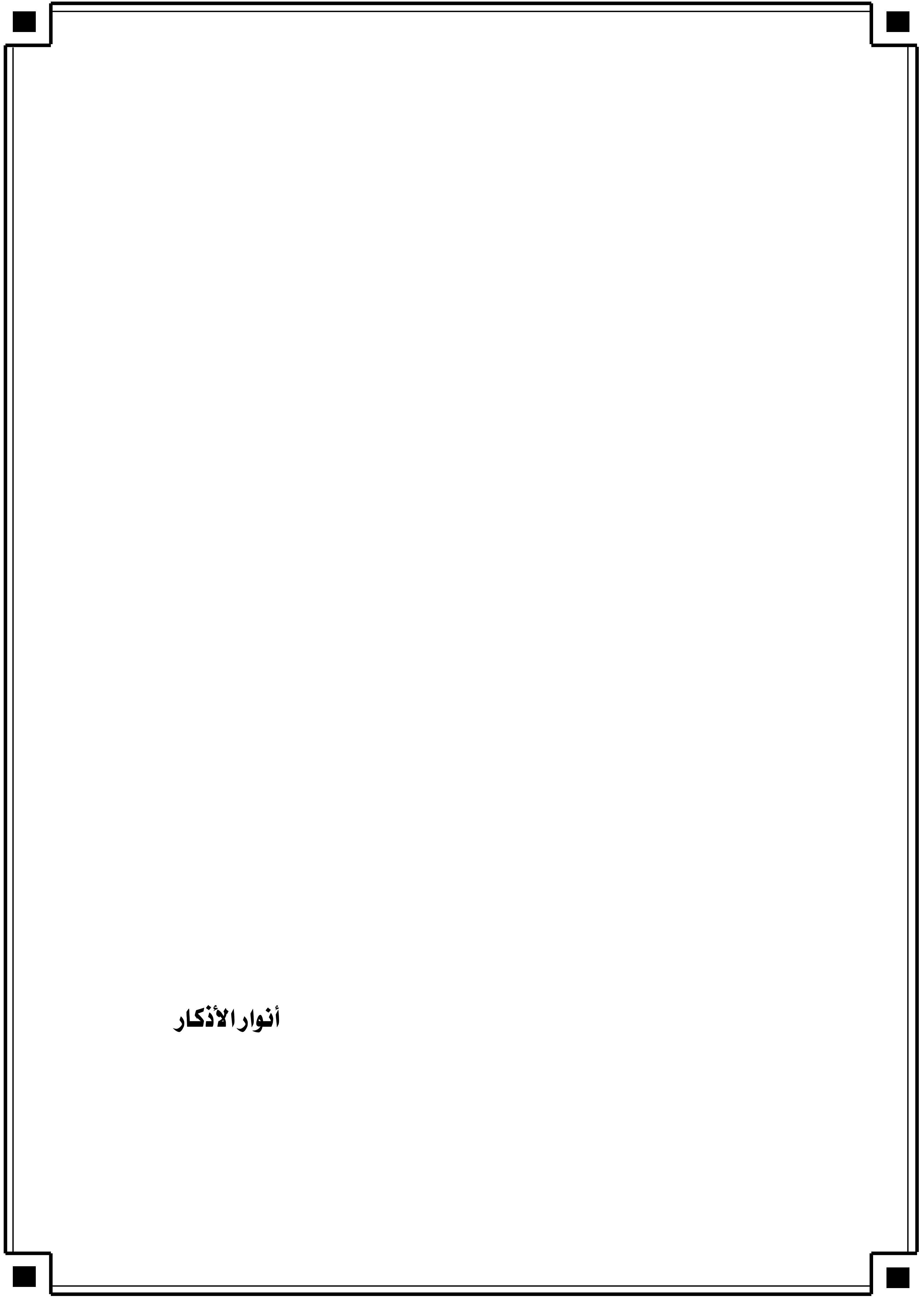


أنوار الأذكار

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٤/٦/٢٥١٦)

٢٢٧,٣
جرار، مأمون فريز
أنوار الأذكار- مأمون فريز جرار ._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.
(٣٩٦) ص
ر.أ: (٢٠١٤/٦/٢٥١٦).
الواصفات:/الأدعية الإسلامية // القرآن الكريم//الإسلام/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك ISBN 978-9957-77-329-8

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

أنوار الأذكار

الدكتور
مأمون فريز جرار



دار المأمون للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة أنوار الأذكار

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كنت منذ سنين خلت كتبت سلسلة من المقالات في جريدة الدستور الأردنية، في فقه الذكر، كانت رحلة ممتعة في عالم ذكر الله تعالى، ثم أصدرتها في كتاب بعنوان: **"أسرار الأذكار"**، واقتصر ذلك الكتاب على مقدمات حول الذكر، ووقوف عند أصوله الأربعة: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ثم وقفات مع الدعاء في القرآن الكريم.

ثم يسر الله تعالى العودة إلى هذا الموضوع مرة أخرى فكتبت سلسلة مقالات، ثم قدمت برناجا في إذاعة حياة إف إم بعنوان: **أنوار الأذكار**، وكان له من فضل الله تعالى قبول لدى كثير من المستمعين، وكان من حق هذا الكتاب أن ينشر قبل هذا الوقت، ولكن شاء الله أن يتأخر، وقد نفدت طبعة أسرار الأذكار فحان الوقت لنشره ليكون ثلاثة أضعاف حجم سابقه، وليغطي كثيرا من الأذكار.

أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، ويجعل كل ما خط قلمي أو جرى به لساني من العلم النافع الذي يجري أجره ما بقي بين الناس يقرؤونه ويفيدون منه.

وجزى الله خيرا من نظر في ما كتبت فدعا لي دعوة صالحة في ظهر الغيب، أو نبه على خطأ أو أشار إلى قصور، ففوق كل ذي علم عليم، وأستغفر الله من كل خطأ، وأعوذ بالله من كل زلل. والحمد لله رب العالمين.

مأمون فريز جرار

عمان ٨ نيسان ٢٠١٤

٨ جمادى الثاني ١٤٣٥

مقدمة "أسرار الأذكار"

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله الطيبين الطاهرين، ورضي الله عن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد فإننا نجد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم ﷺ، حديثاً طويلاً عن الذكر والدعاء، وطلبا من المسلم أن يذكر ربه، سبحانه، وأن يدعوه.

فما الدعاء؟ وما الذكر؟ وما فائدة كل منهما؟

وكيف ينبغي أن يكون حالنا في الذكر والدعاء؟

وهل نمر بالأذكار أو نُمرُّها على ألسنتنا، بقلوب ساهية لاهية تردد القول من غير تدبر؟

أفلا ينبغي أن نتدبر ونتفكر لنعلم ما نقول، وما الذي نسأله ربنا عز وجل، وما الذي نستعيذ بالله منه؟

في هذا الكتاب سنمضي في رحلة مع الأذكار والأدعية، نسأل الله تبارك وتعالى أن يعطينا خيرها، وأن يثيبنا عليها، وينير بها قلوبنا ودروبنا، لنكون على بينة من أمرنا في جانب مهم من جوانب ديننا، ومنشط من مناشط حياتنا.

وقد لا يكون فيما جرى به قلمي جديد في العلم أو الفهم لدى بعض من يطالعه، لكن فيه مفيداً من القول، إن لم يكن مما جرى به قلمي فمما أنقله من كلام الله سبحانه، ومن حديث رسوله عليه وآله الصلاة والسلام، الذي يبين الأقوال المطلوبة في أحوال، والأذكار التي تجري بها الألسنة، فألفتها ألفة جعلتها تفقد إيحاءاتها وإشعاعها، لكثرة تكرارها، وذلك شأن الإنسان: يبهجه الأمر أول حدوثه، والحدث أول وقوعه، والشيء عند امتلاكه، ثم تذهب الجدَّة وتتلاشى البهجة؛ وذلك ما لا ينبغي أن يكون في علاقتنا بالله تعالى، في أذكارنا ودعواتنا، فالأذكار والأدعية دائمة الإشعاع، لا يذهب بهاؤها، ولا تخلق على كثرة تكرارها، ولا تخفت أنوارها،

وإنما العيب فينا نحن؛

في القلوب التي تصدأ بالغفلة والمعصية، وبالحواس التي تقف على ظواهر ما تدرك؛ مما ترى وتسمع وتلمس وتشم وتتذوق.

إنها بحاجة إلى جلاء وصقل: والصقل والجلاء يكونان بالتفكر والتدبر،

والعودة إلى الفطرة السليمة التي ترى الأشياء على طبيعتها.

إننا نصاب بضعف الإدراك في حواسنا؛ فنستعين بالنظارات والسمّاعات لتحسن رؤية الأشياء وسماعها؛ وكذلك حالنا مع الأدعية والأذكار وآيات الله من حولنا.

إننا بحاجة إلى أن نستعيد الإدراك التام، والتعامل السليم، حتى تجري أنوارها في عروقنا وقلوبنا، وتتغلغل في حياتنا.

فكم من لسان جرى مرات بهذا الذكر، الرائع:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

ثم اتخذ صاحبه مع الله آلهة أخرى من: هوى نفس، ودنيا مطاعة، وشحّ متبَّع، وخاف ممن لا ينبغي أن يخاف منه من عباد الله الذين هم أمثاله، خاضعون لعزة الله ولعظيم سلطانه، وتوكّل على غير الله، ورجا غير الله، وتَوسَّل لتحقيق أموره بما لا يرضي الله تعالى.

سنمضي في رحلة مع الأذكار والأدعية؛ فيها نور وبرهان؛ وتأمل وتدبر؛ وسياحة مع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. مع ما يفتح الله به من معنى هو مِنّةٌ منه وفضل.

فلنمض في هذه الرحلة المباركة نستجلي أنوار الأدعية والأذكار، عسى الله تعالى، أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويجعلنا من الذاكرين الشاكرين، فهو القائل سبحانه:

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾[البقرة: ١٥٢]، وعسى أن يجيب دعاءنا، فقد وعد الداعين بالإجابة في قوله:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر ٦٠].

إنها رحلة مع الله تعالى ذكراً ودعاء وتفكراً وتدبراً، نرجو بها غفران الذنوب، وقبول الأعمال ورفع الدرجات.

رحلة نمحو بها الغفلة، ونرجو بها إقالة العثرة والزلّة، فما أسعدها من

الفصل الأول

فاذكروني أذكركم



من فضائل الذكر والدعاء

ذكر الله تعالى هو أشرف الأقوال والأعمال؛ لأنه إن تحقق كما ينبغي أن يكون، وكما يحب الله تعالى، حقق للذاكر: العيش في أنوار من أسماء الله تعالى، وتجليات آياته في النفس والكون، وفي الغيب والشهادة، وفي الدنيا والآخرة.

وكثيرة هي الآيات التي حضت المؤمن على ذكر ربه. وما أعظمها من آية تدفع المؤمن إلى ذكر ربه لينال شرفاً عالياً من ذكر الله تعالى له:

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وها هو النداء الإلهي الحبيب ينادي المؤمنين طالباً منهم أن يكثروا من ذكر الله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب ٤١ -٤٢].

وها هي الأحاديث النبوية الشريفة تدعو المسلم إلى ذكر ربه وتبين له فضل هذا الذكر:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟

قالوا: بلى يا رسول الله،

قال: ذكر الله تعالى" (صحيح ابن ماجه ٣٧٩، سنن الترمذي ٣٣٧٧).

وما أجمله من حديث قدسي يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن الله تعالى: "يقول الله عز وجل:أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم. وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" (مسلم ٢٦٧٥).

وها هو حديث آخر يبين فضل مجالس الذكر فعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: "ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده..." (مسلم، ٢٧٠٠، ابن ماجه ٣٧٩١، الترمذي ٣٣٧٨).

هذا عن الذكر، وأما الدعاء: فإنه باب من أبواب الذكر، لأن من يدعو يتذكر ربه، ويعلم أنه ملجأ له في الشدائد، ومعاذ له في البلاء. يعلم أن الخير بيده فيطلبه، وأنه لا يصرف السوء إلا هو فيستعيذ به. وها هو الله سبحانه وتعالى يطلب من عباده أن يدعوه ويعدهم بالإجابة:

قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

ومن الأحاديث الشريفة التي بينت فضل الدعاء قوله ﷺ: "الدعاء هو العبادة" (صحيح الجامع/٣٤٠٧).

نسأل الله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره، ويلهمنا الدعاء المستجاب وأن يتقبل ذكرنا ودعاءنا.

الذكر دلالة وآثاراً

قال الراغب الأصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن:

"الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره. وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول. ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان. وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عَنْ نسيان بل عن إدامة الحفظ". (ص ٣٢٨).

ومرادنا من الحديث عن الذكر: ذكر الله سبحانه وتعالى. وهو ذكر:قد يأتي بعد غفلة قلب، وزلة شيطان، وقد يكون ذكراً على ذكر، فيكون نوراً على نور، وزيادة هدى،

الذكر: استحضار لله تعالى في قلب المؤمن بأسمائه الحسنى.

والذكر: رؤية لنعم الله تعالى وشكره عليها.

والذكر محوٌ للأنا وللغير، وردّ الأمر إلى من بيده الأمر:

فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والذكر احتماء بركن شديد يأوي إليه العبد في لحظات الضعف والخوف.

الذكر تسبيح وتقديس، وحمد وتهليل وتكبير، يرقى به الإنسان ليستشرف أفق الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم ويقدسون له في الليل والنهار لا يَفْتُرون.

والذكر يكون بالقلب الذي لا يغفل عن ربه: بالمدد الدائم الوارد إليه من نور الطاعة

ونور الفكر، ولمّة الملك بالإيعاد بالخير والأمر بالمعروف؛ فيزيده الذكر نوراً على نور.

والذكر يكون بالحواس التي تدرك الآيات ولا تمرّ عليها معرضة؛ سمعاً وبصراً ولمساً وشمّاً وذوقاً.

الذكر حال وحاجة واستجابة.

أما الاستجابة فللنداء الرباني لعباده:

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب ٤١ -٤٢].

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا ﴾[آل عمران: ٤١].

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾ [المزمل: ٨].

﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الإنسان: ٢٥].

ويكون ذكر الله حاجة للإنسان يجدها في لحظات الضعف والخوف. فإذا لقي عدواً أو خاف منه كان ذكر الله تعالى وسيلة من وسائل الحماية والانتصار على العدو:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[الأنفال: ٤٥].

وإذا أذنب ذنباً، وخاف أن تحيط به خطيئته، وأحسّ بثقل المعصية، كان الذكر ملجأه ومعاذه، يغتسل فيه من الأوزار، ويرجو رحمة الرب الغفار:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وبالذكر يعود التوازن إلى الإنسان إن اختل هذا التوازن لعارض نفسي أو جسدي:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وذكر الله تعالى حال دائم للمؤمنين لا عارض يلوح ثم يتلاشى؛فهم قد وجهوا وجوههم للذي فطر السماوات والأرض، وأسلموا وجوههم له، وهم أولو الألباب:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهم: ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٧].

إنهم في ذكر منذ أن تعود إليهم حواسهم بعد النوم، فيذكرون الله تعالى بأذكار الصحو

ثم أذكار الوضوء، ثم أذكار الصلاة، وهم إن خرجوا من البيت ذكروا، وإن عادوا إلى البيت ذكروا، وإن أكلوا أو شربوا ذكروا، وإن باعوا أو اشتروا ذكروا.

إنهم في ذكر دائم باللسان والجنان، والعين والسمع، وسائر الحواس.

الذكر حياة للقلب، وراحة للبدن، ومعراج إلى الحضرة الربانية، تجري ذكر العبد عند ربه، وتتنزل عليه بذلك الرحمات:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

من فوائد الذكر

الذكر باب رحمة وخير وهدى للإنسان، وللإنسان عدو مبين لا يغفل عنه لحظة، يتابعه في صحوه ومنامه، وفي حله وترحاله، وفي طاعته ومعصيته.

إنه عدو خفي، لكن آثار كيده ومكره ظاهرة في النفس والحياة، في كفر بالله وشرك به، وفسق وفجور؛ هي ثمرات الوحي الشيطاني إلى أوليائه الذين تولوه وأعرضوا عن ربهم، وصاروا للشيطان حزباً.

ذكر الله: حصن حصين من الشيطان وكيده وأوليائه.

الشيطان: يسعى بالإنسان إلى ظلمات الغفلة، ويريد أن يحجب عنه أنوار الطاعة، ليظل في عماية من أمره، وتسهل عليه قيادته.لكن المؤمن: يقظ حذر، سمع من كلام ربه ما كشف له عن كيد الشيطان فأخذ حذره:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٩١].

يريد الشيطان أن يصد المؤمن عن ذكر الله، فيستكثر المؤمن من الذكر، ويديم تحريك لسانه به

واستحضاره في قلبه، تحصّناً من الشيطان، واستمساكاً بالعروة الوثقى. وسمع المؤمن قول ربه في وصف حزب الشيطان:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة ١٩].

وهل يرضى المؤمن أن يكون من حزب الشيطان؟

وهل يقبل بالخسارة ثمرة للحياة ونهاية لها؟

وهل يسمح للشيطان أن يستحوذ عليه وينسيه ذكر ربه؟

أيقبل أن يسوقه الشيطان سَوْق البعير؟

والعصمة من استحواذ الشيطان وحزبه والخسارة: تكون بدوام بذكر الله، والسير في الطريق إلى الله:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢].

والغفلة عن ذكر الله تجعل الغافل قريناً للشياطين:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

والعشا: ظلمة تعترض في العين، وعشي عن الأمر مثل: عمي عنه، وهو ليس أعمى البصر بل أعمى البصيرة.

فهو مبصر للدنيا وأهوائها وشهواتها ومتابع لأهلها، أعمى عن ربه وعن طاعته وعن الآخرة ومآله إليها.

والإعراض عن ذكر الله، والإيغال في الغفلة، والغرق في الشهوات: يقود صاحبه إلى حياة الضنك.، وهي حياة الضيق:ضيق النفس وإن كان في بحبوحة من الدنيا وفسحة من نعيمها.

كما يسبب له العمى يوم القيامة، ويقوده إلى النار مصيراً:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٦].

﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٧].

والعذاب الصُّعد: هو العذاب الشاق.

وذكر الله مفتاح كل أمر، ومفتاح كل خير. وما لم يذكر اسم الله عليه فلا خير فيه ولا بركة

ولا أمن ولا حماية، ولا نور ولا هداية.

الذكر حياة للقلب، ومن غفل عن ذكر الله فهو ميت، وإن عُدّ في الأحياء، ألم يقُل الرسول ﷺ:

"مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت" (رواه البخاري).

"مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت" (متفق عليه).

والذكر وإن كان كلاماً يجري على اللسان، ومعاني وصوراً يتمثلها الجنان، فإنه أمر يحتاج إلى عونٍ رباني ليستمر الإنسان فيه وليحافظ عليه، وما يطلب فيه العون الدائم من الله تعالى أمر كبير:

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وفي الوصية النبوية الحميمة لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، بيان ذلك:

فقد أخذ بيده وقال:

"يا معاذ والله إني لأحبُّك.

ثم قال: أوصيك يامعاذ، لا تدعنَّ دبر كل صلاة: تقول: اللهم أعني على ذكر وشكرك وحسن عبادتك" (أبو داود والنسائي بسند صحيح، الأذكار للنووي باب الأذكار بعد الصلاة).

إن من صفات المؤمنين ما بيّنه قوله تعالى:

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي سنة النبي ﷺ وأحواله وأقواله ما يتجلّى فيه هذا الذكر الدائم الذي يقتدي فيه المسلم بحبيبه رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، لينال أنوار الذكر وبركته وهداه، وينال درجة المتابعة التي ترتقي به إلى درجة المحبة، وترفعه إلى جنات النعيم.

الذكر والبصيرة

هل الذكر كلمات يجري بها اللسان ثم تتلاشى؟

هل الأذكار وظيفة أو واجب أو وِردٌ نردده في الصباح والمساء، وفي سائر الأحوال ثم ينتهي كل شيء؟

هل نذكر اتباعاً للنبي ﷺ وكفى؟!

اتباع النبي ﷺ سبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، ومن لوازم هذا الاتباع البصيرة:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ومن البصيرة أن نكون مدركين لما نفعل وما نقول، مدركين لماذا نقول، وما الذي نجنيه مما نقول؟وذلك أمر بينه النبي ﷺ في الأذكار التي شرعها لنا، فما قال قولاً إلا:وبين لنا أثره أو ثمرته عاجلاً وآجلاً. وأضرب أمثلة لذلك وأدع التفصيل لمواضعه؛ وذلك لبيان البصيرة المطلوبة في الذكر وإدراك آثاره، وهذه جملة أحاديث تتضمّن أذكاراً وتبين ثمراتها:

"من قال إذا خرج من بيته: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلاّ بالله يقال له: كُفيت ووُقيت، وتنحى عنه الشيطان" (صحيح الجامع رقم ٦٤١٩).

"من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته؛ حلّت له شفاعتي يوم القيامة" (صحيح الجامع رقم ٦٤٢٣).

"من قال حين يمسي: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم (ثلاث مرات) لم يُصبه فُجأةُ

بلاءٌ حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح (ثلاث مرات) لم يصبه فجأةً بلاءٌ حتى يمسي" (صحيح الجامع رقم ٦٤٢٦).

"من قال: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً؛ وجبت له الجنة" (صحيح الجامع رقم ٦٤٢٩).

"من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حُطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر" (صحيح الجامع رقم ٦٤٣١).

ولن أمضي هنا في سرد الأذكار وثمراتها ولكنني أوردت بعضاً منها مّما له ثمرات في الدنيا: فالذكر عند الخروج من البيت، ثمرته: الكفاية والوقاية من كيد الشيطان.

ومثل ذلك دفع البلاء بقول:

"بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء."

وفي الأذكار الأخرى بيان لثمرات أخروية:وجوب الجنة، ونيل شفاعة النبي ﷺ وغير ذلك.

فنحن في الذكر لسنا أمام قول فحسب بل هو: من أجلِّ الأقوال، لأن شرف الكلام مرتبط بمضمونه. وأي كلام أعلى مما يذكر اسم الله تعالى فيه؟

ولذلك كان أحب الكلام إلى الله تعالى ما فيه ذكره، وجاء في ذلك أحاديث منها:

"أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد: سبحان الله وبحمده" (صحيح الجامع رقم ١٧٤).

"أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلى الله والله أكبر ولا يضرك بأيّهن بدأت" (صحيح الجامع رقم ١٧٣).

ومَنْ أكثر من الذكر الذي يحبه الله تعالى: نال حبه سبحانه، وأجاب الله تعالى مراده.

وليس الذكر راحة للقلب والنفس فحسب، وليست ثمراته وقاية وهداية

وشفاعة وجنة فحسب، بل للذكر ثمرات دنيوية بدنية: لا يلتفت إليها كثير من الناس، ولا يتنبهون إلى آثارها.

ولعل من أوضح ما يدل عليها ما اشتهر بتسبيحات فاطمة عليها السلام.

فقد أحست فاطمة عليها السلام بالتعب من عمل البيت لاسيما الرّحى التي كانت تطحن بها

فبلغها أن رسول الله ﷺ قد جاءه سبي، فأتته تسأله خادماً فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة رضي الله عنها فلمّا جاء النبي ﷺ ذكرت عائشة له حاجة فاطمة، فجاء إلى بيتها وقد أخذت مضجعها، فقال لها ولعلي رضي الله عنهما:

"ألا أدلكما على خير مما سألتماه؟ إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعاً وثلاثين، واحمد الله ثلاثاً وثلاثين وسبحا ثلاثاً وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتما". (متفق عليه / اللؤلؤ والمرجان رقم ١٧٣٩).

ولا يخفى ما يوحي به الحديث من أثر التسبيح في إمداد الجسم بالقوة التي قد تغني عن الاستعانة بخادم(١).

---

(١) ولا يعني هذا أن يتعسف بعض الأزواج إن احتاجت زوجته إلى خادمة ويتخذ من فاطمة عليها السلام حجة، فقد اتخذ المسلمون في عصور الخير وما بعدها الخدم ولم يحتجّ أحد بهذا الحديث تهرباً من إعانة الزوجة بخادمة.

أصول الذكر

أصول الذكر ستة:

ذكر اسم الله تعالى، بقول: بسم الله

وتسبيح الله تعالى، بقول: سبحان الله

وحمد لله تعالى، بقول: الحمد لله.

والتهليل، بقول: لا إله إلا الله.

والتكبير، بقول: الله أكبر.

والحوقلة، بقول: لا حول ولا قوة إلى بالله.

فهذه الأصول تجمع الخير كله، وتجعل قائلها: من الذاكرين لله تعالى، ذكراً تتجلى فيه الأسماء الحسنى: في مشاهد تراها العين، وتلوح للقلب.

ولذكر كل أصل من هذه الأصول فضل وأثر في الدنيا والآخرة، ولصوره المختلفة دلالات ترتبط بالإنسان، وما ينبغي أن يؤمن به، وتتعلق بأحواله المختلفة.

ولعل مما يستحق التدبر في الأذكار هو أن النبي ﷺ نص على تكرارها بأعداد محددة.

فبعض الأذكار يقال مرة واحدة.

وبعضها يكرر ثلاث مرات.

وبعضها يكرر عشراً.

وبعضها يكرر ثلاثا وثلاثين.

وبعضها يكرر مئة مرة.

فهل العدد مقصود أم أنه من باب التكثير؟

إن التكرار فيما أرى مقصود بحدّه الأدنى، والله أعلم، وشأن الذكر مع النفس والبدن شأن الغذاء أحياناً، وشأن الدواء أحياناً أخرى.

وسنجد في العرض التفصيلي للأذكار والأدعية:

أن منها ما قدمه النبي ﷺ تقوية للإيمان وزيادة صلة بالله تعالى.

ومنها ما قدمه ليكون علاجاً لأحوال تعرض للإنسان.

فينبغي أن ننتبه إلى العدد، فإذا كان العدد ثلاثة: فهو الحد الأدنى الذي تعالج به الحالة المقصودة ومن احتاج إلى المزيد فلا تثريب عليه.شأنه شأن من ترتفع درجة حرارته فيتناول حبة من الدواء الخافض للحرارة، فإن لم تنخفض احتاج إلى تعزيز أثر الحبة الأولى بحبة أخرى.

وأما ما لم يكن مرتبطاً بحال، ولم يكن علاجاً، فهو خير موضوع:

من شاء أن يستزيد منه استزاد خيراً، وازداد نورا وهدى، يجدد بالذكر إيمانه، ويكبت شيطانه

ويرتقي درجات في معراج العبادة والعبودية.

وهذه وصية رسولنا محمد ﷺ، يحثنا فيها على الذكر، يبين منزلة تشهد على ما قلته:

"ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق (أي الفضة) وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ ذكر الله" (صحيح الجامع رقم ٢٦٢٩).

وينبغي فهم هذا الحديث فهماً سليماً، هو الفهم النبوي الذي أخذ به الصحابة رضي الله عنهم، فليس معنى الحديث الاكتفاء بالذكر والاستغناء عن أبواب الخير الأخرى المذكورة في الحديث: من إنفاق في سبيل الله تعالى أو جهاد في سبيله؛ فذلك أمر لم يفعله النبي ﷺ، وهو: إمام الذاكرين، وقدوة المنفقين، وقائد المجاهدين، وكذلك كان الصحابة: إنفاقاً وجهاداً وذكراً؛ اتباعاً لسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام.

هذا الحديث يفتح باب الخير بالذكر لمن لا يملك المال، أو لمن لم يفتح له باب الجهاد في سبيل الله، وهل يستغني المنفق للمال في سبيل الله، أو المجاهد في سبيل الله عن ذكر ربه حيث كان؟

وشبيه بهذا الحديث في بيان فضل الذكر وكونه باباً لكل خير ومعيناً

على كل طاعة، ما قاله صحابي للنبي ﷺ:

"إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأنبئني منها بشيء أتشبث به.

قال: لا يزال لسانك رطباً بذكر الله عز وجل" (الترمذي رقم ٣٣٧٥ وصحيح ابن ماجه رقم ٣٠٦١).

فلا يغني ذكر الله تعالى عن شرائع الإسلام الكثيرة بل يعين عليها، وسنرى في الأدعية والأذكار كيف تكون عوناً على كل طاعة وكل خير، لا بديلاً عن أي منها.

الفصل الثاني

سبح اسم ربك

معاني التسبيح

التسبيح بألفاظه المختلفة من الأذكار الكثيرة الجريان على اللسان.

والتسبيح: باشتقاقاته المتنوعة، كثير الورود في آيات القرآن الكريم، وفيما ورد من الأدعية والأذكار على لسان نبينا محمد ﷺ.

فماذا يعني التسبيح؟

ما الذي ينبغي أن يرد على عقولنا وقلوبنا ونحن نردد ألفاظ التسبيح: المطلق منها والمقيد.

ماذا نفهم عندما نقول أو نسمع:سبحان الله.أو: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم

أو: سبحان ربي العظيم أو: سبحان ربي الأعلى أو: سبحانك اللهم وبحمدك، أو: سبّوح قدوس

أو: سبحان الملك القدوس؟

لنبدأ بما قاله أهل اللغة. ولنبدأ بالفعل الثلاثي غير المشدّد: سَبَحَ.

قالوا: سبَح في النهر سَبْحاً وسباحة أي: عامَ. والسباحة: العَوْمُ في الماء. ولنتذكر ما في السباحة من حركة واندفاع.

وقيل في تفسير: (والسابحات سبحا): السفن في البحار والأنهار.

أو: أرواح المؤمنين

أو: النجوم.

والسوابح: الخيل، لسبحها في سيرها، أي: مدّ يدّيْها في الجري.

ولنربط بين صورة السباحة وحركة الخيل وهي في جريها الذي تمتد به أطرافها الأمامية على مداها.

والسَّبْحُ له معانٍ متعددة. وهو من الأضداد، أي الألفاظ التي تعني المعنى وضدّه.

ومن هذه المعاني: الفراغ، والتصرف في المعاش.والحفر في الأرض.والنوم والسكون.

والتقلب والانتشار في الأرض، والإبعاد في السير.والإكثار من الكلام.

ولا يخفى أن أهل اللغة استقوا هذه المعاني لكلمة السبح من تتبع كلام العرب.

والسُّبْحةُ: الدعاء، وصلاة التطوع، والخرزات المنظومة لعدّ الأذكار.

فإذا انتقلنا إلى الفعل الثلاثي المشدّد الباء: سَبّحَ، وجدنا من معانيه:

قال: سبحان الله.وسبّح الله أو سبّح له: نزّهه وقدسه.والتسبيح: التنزيه وقول: سبحان الله، أي: أبرئ الله من السوء براءة، أو تنزيهاً لله من الصاحبة والولد. أو المَرّ السريعُ في عبادَة الله تعالى.

إن مدار معاني السَّبْح والتسبيح على: التنزيه والحركة والسكون، وهذا ما ينبغي أن يكون في بالنا ونحن نرى مواضع التسبيح وصيغه في الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، كما ينبغي أن نتنبه إلى القيد الذي يصاحب التسبيح:

من الإضافة التي تتبعه، أو الإشارة إلى الموقف الذي يقال فيه.

وإذا أخذنا الأمور من بداياتها وفق ترتيب منطقي للتسبيح والمسبحين، وجدنا:

أن الملائكة هم أول المسبحين، وأن التسبيح من عملهم الذي لا يفترون عنه.

ولنقف على هذه الآيات الكريمة التي تحدثنا عن الملائكة الكرام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

ومما قاله المفسرون في: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك): ما أورده ابن كثير: قال قتادة: التسبيح أي قول: سبحان الله. والتقديس: الصلاة.وعن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، يقولون: نصلي لك. وقال مجاهد: نعظّمك ونكبّرك.وقال الضحاك: التقديس: التطهير. وقال محمد بن إسحاق: لا نعصي ولا نأتي شيئاً تكرهه. وقال ابن جرير: التقديس هو: التعظيم والتطهير. ومنه قولهم: سبوح قدوس. يعني بقولهم: سبوح: تنزيه له، وبقولهم: قدوس: طهارة وتعظيم له.

ونقدس لك: ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس، وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل: "أي الكلام أفضل؟ قال: ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده" (انظر: تفسير ابن كثير ج١ ص ٧٥ طبعة دار المعرفة).

وأضيف إلى ما أورده ابن كثير ما قاله الزمخشري في الكشاف قال: "والتسبيح: تبعيد الله عنه السوء، وكذا تقديسه، من سبح في الأرض والماء، وقدّس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد. وبحمدك: أي نسبح حامدين لك، وملتبسين بحمدك، لأنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق واللطف لم نتمكن من عبادتك". (انظر الكشاف / ج١/ ص ١٢٥ – طبعة دار الريان للتراث).

وقد وردت للتسبيح معانٍ أخرى، منها: أن يقال التسبيح ويقصد به استعظام أمر أو التعجب منه. نجد ذلك في قول الرسول ﷺ في حديثه عن الدّيْن الذي لا بدّ من الوفاء به، وردّه إلى أصحابه، حتى لو كان المدين شهيداً: "سبحان الله ماذا أُنزل من التشديد في الدَّيْن؟

والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قُتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل ثم أحيي ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دينه" (صحيح الجامع رقم ٣٦٠٠).

ولا يخفى أن استفتاح الحديث عن الدّيْن بتسبيح الله يدلُّ على عِظَم هذا الأمر الذي ورد في سياق التشديد في حقوق العباد، التي لا تسقطها الشهادة في سبيل الله.

ومثل ذلك ما نجده في قول الرسول ﷺ:

"سبحان الله! ماذا أُنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فُتح من الخزائن. أيقظوا صواحب الحُجَر، فرُبّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة" (صحيح الجامع رقم ٣٥٩٩).

لقد اطلع رسول الله ﷺ على ما أُنزل من الخزائن الربانية من الفتن القادمة، فاستعظمها، وتعجب منها، وجاء التعبير عن ذلك بالتسبيح.

وقد يتضمن التسبيح معنى الاستنكار والنفي إلى جانب التعجب، نجد هذا في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة "أنه لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة وهو جُنُب، فانخنس منه (أي اختبأ لكيلا يراه) وذهب واغتسل ثم جاء، فقال: أين كنت يا أبا هريرة؟

قال: كنت جنباً، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة.

فقال: سبحان الله! إن المسلم لا ينجس".

إن تسبيح النبي ﷺ هنا يتجه إلى إنكار ما ورد من وهم لدى أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد يرد مع الإنكار شيء من التعجب.

ومن الأحاديث التي نجد فيها التسبيح مستخدماً بمعنى الإنكار والتعجب هذا الموقف الحرج الذي وضعت فيه النبي ﷺ إحدى النساء، بسؤالها عن غسل الحيض، ومتابعتها السؤال بصورة مستنكرة لأنها من خصوصيات المرأة التي ينبغي أن تدركها من غير إلحاح في السؤال:

"عن عائشة أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من الحيض، فأمرها كيف تغتسل، قال: خذي فرصة [أي قطعة] من مسك فتطهري بها، قالت: كيف أتطهر؟ قال: تطهري بها!

قالت: كيف؟!

قال: سبحان الله!! تطهري

[قالت عائشة: فاجتذبتها إلي فقلت: تتبعي بها أثر الدم" (فتح الباري ٤١٤/١).

وورد التسبيح مقروناً بالتعجب والفزع في هذا الحديث:

روى أبو هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: "بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أُخلق لهذا!! ولكني إنما خلقت للحرث.

فقال الناس: سبحان الله تعجباً - وفزعاً – أبقرة تتكلم؟" (صحيح مسلم، حديث رقم ٢٣٨٨).

وورد التسبيح بمعنى الإنكار والتعجب في قول الرسول ﷺ: معلقاً على طلب بعض المسلمين منه: "اجعل لنا ذات أنواط مثلما لهم ذات أنواط" وهي شجرة كان المشركون يعظمونها ويعلقون بها سلاحهم، فقال النبي ﷺ معقباً على هذا الطلب في تعجب واستنكار وفي استذكار لموقف كان من قوم موسى عليه السلام:

- سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: "اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة" والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم" (صحيح الجامع الصغير رقم ٣٦٠١).

التسبيح عمل الملائكة

حدثنا الله تعالى عن ملائكته المكرمين، وبين لنا أعمالهم وأحوالهم، ومن أشرف أعمال الملائكة ذكر الله تعالى وتسبيحه.

ولا يخفى أن للملائكة اطلاعاً على جوانب هذا الكون يجعلهم على معرفة بربهم وعظمته، ورحمته وعذابه، مما يجعلهم يلهجون بالتسبيح والحمد، لا يتخلفون عن ذلك لحظة واحدة.

قال الله سبحانه في وصف حالهم:

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[الأنبياء: ١٩-٢٠].

ونلحظ هنا الاقتصار على ذكر التسبيح دون الحمد والتقديس اللذين وردا في قولهم:

﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠] .

وقد نفى الله تعالى عن الملائكة الفتور في التسبيح:

والفتور هو: السكون بعد الحدّة، واللين بعد الشدّة، والضعف بعد القوة. وقد فسر ذلك قوله تعالى في الحديث عن المستكبرين عن عبادته الذين يجهلون قدر ربهم، حيث قال سبحانه مبينا حال الملائكة العارفين بالله:

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴾ [فصلت: ٣٨].

والسآمة: الملالة مما يكثرُ لُبثه؛ فعلاً كان أو انفعالاً.

ويأتي الحديث عن تسبيح الملائكة مع نفي الاستكبار عن العبادة عنهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والتسبيح عمل دائم للملائكة، وفي هذه الآية إشارة إلى السجود. ونحن في صلاتنا لربنا نسبح الله تعالى راكعين وساجدين.

وفي الحديث الذي يرويه أنس عن رسول الله ﷺ:

"أطّت السماء، ويحقّ لها أن تئط. والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلاّ وفيه جبهة مَلَك ساجد يسبح الله بحمده" (صحيح الجامع الصغير رقم ١٠٢٠).

وتحدثنا آية أخرى عن تسبيح الملائكة بحمد ربهم واستغفارهم لمن في الأرض:

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].

ومثلها قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧- ٩].

إن تسبيح الملائكة الكرام مصحوب بعلم علمهم الله تعالى إياه، فحملة العرش ومن حوله مطلعون على أحوال الأرض ومن فيها، فهم يستغفرون لهم، ثم يخصّون المؤمنين بمزيد استغفار لهم ولذرياتهم. إنه تسبيح مقرون بالدعاء الطيب من الملائكة المسبحين الطيبين.

ومن الآيات التي تبين التسبيح الدائم من الملائكة حتى صار صفة لهم قوله تعالى حكاية عنهم:

﴿وما منا إلا له مقام معلوم ﴿١٦٤﴾ وإنا لنحن الصافون ﴿١٦٥﴾ وإنا لنحن المسبحون﴾ [الصافات ١٦٤ -١٦٦].

وتربط آية كريمة تسبيح الملائكة بالخوف من الله تعالى، لإدراكهم عظمته وجلاله، وما عنده من شديد العذاب:

﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾ [الرعد: ١١٣].

والتسبيح عمل دائب دائم للملائكة بدءاً وختاماً: عندما خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وعندما ما تسير زمر الناس إلى مصائرهم: زمر الكافرين إلى النار، وزمر المؤمنين إلى رحمة الله ورضوانه في الجنة.

فبعد أن تحدثنا آيات سورة الزمر عن ذلك، يأتي في ختامها هذا المشهد الرائع الذي يعجز العقل والقلب والخيال عن تصوره؛ لكنها تحاول ذلك استشرافاً لجلاله وجماله، ولتشارك الملائكة في تسبيحها:

﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴿٧٤﴾ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ [الزمر: ٧٤ - ٧٥].

التسبيح لغة الكون

ليس الملائكة وحدهم هم من يسبحون الله تعالى في هذا الوجود، بل الكون كله يسبح ربه.

والعمل الذي يقوم به المخلوق يكون منبعثاً من التسخير إذا كان غير ممتلك للإرادة الذاتية.

ويكون منبعثاً من الاختيار إذا كان المخلوق مريداً يملك أن يفعل كما يملك أن يترك الفعل.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن تسبيح الكائنات كلّها لربها، حتى جاز أن نقول: إن التسبيح هو لغة الكون.

وقد جاء حديث القرآن الكريم عن تسبيح الكائنات مجملاً ومفصلاً.

فقد حدثتنا آيات عن تسبيح (ما) في السماوات والأرض لله.

وما: اسم موصول دال على غير العاقل:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر ١/الصف ١].

وإذا جاءت صيغة التسبيح هنا بالماضي (سبّح) فقد جاءت في مواضع أخرى بصيغة المضارع الدال على الاستمرار:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر ٢٤].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

وحدثتنا آيات أخرى عن تسبيح (مَنْ) في السماوات والأرض لله، ومَنْ: اسم موصول يدل على العاقل.

وجاء الحديث عن هؤلاء المسبحين العقلاء مع غيرهم من مخلوقات الله غير العاقلة بعد تسبيح الله تعالى لنفسه في قوله:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٣-٤٤].

لقد جاء في قوله الله تعالى هذا تعميم وشمول لمسبحّي الله تعالى، فليست السماوات السبع والأرض ومن فيهن هم مسبّحوه فحسب، بل كل ما يقع تحت اسم (شيء) يسبحه، مع إشارة إلى أننا لا نفقه هذا التسبيح. وإذا كان الناس عامة لا يفقهون هذا التسبيح، فإنه:

لا يمتنع أن يدركه بعضهم كرامة أو معجزة، أو أن يدركه بعضهم بالكشف العلمي الذي يدرك به الناس قوانين الوجود.

ومن الصنف الأول: ما ورد في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود في حديث له: "ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل" (فتح الباري ٦/٦٧٩).

قال ابن حجر في شرح هذا الحديث:

"ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، أي في عهد رسول الله ﷺ غالباً، ووقع ذلك عند الإسماعيلي صريحاً، أخرجه عنه الحسن بن سفيان عن بندار عن أبي أحمد الزبيري في هذا الحديث: كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيح الطعام" (فتح الباري ٦/٦٨٥).

وأما الصنف الثاني: فيحتاج إلى رجل من أهل العلم والإيمان الذين

لهم خبرة بأسرار هذا الكون وتناغمه، وما فيه من الآيات الباطنة الدالة على الله تعالى.

وكما جاء الحديث عن التسبيح عاماً؛ جاء مخصصاً بذكر بعض ما يسبح الله تعالى من المخلوقات:فالرعد يسبح بحمد الله:

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الرعد: ١٣].

والطير يصلي لله تعالى ويسبحه:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[النور: ٤١].

ومع الطير تسبح الجبال تجاوباً مع تسبيح عبد الله ورسوله داود عليه السلام:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾[الأنبياء: ٧٩].

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص ١٨-١٩].

وجاء في حديث لأبي هريرة رواه البخاري قال:

"سمعت رسول الله ﷺ يقول: قرصت نملة نبياً من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه؛ إن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله"؟! (فتح الباري ١٧٨/٦)

وليس ذلك فحسب؛ بل التسبيح لغة الكون زماناً ومكاناً، ولنقرأ بتدبر قوله تعالى:

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم ١٧- ١٨].

التسبيح تنزيه للرب

ورد التسبيح تنزيهاً لله تعالى في القرآن الكريم في صيغ متعددة، منها:

سبحان الله، سبحان ربك، سبحان رب السماوات والأرض، سبحانك، سبحانه، سبحانه وتعالى.

وقد أورد القرآن الكريم بعض ما قاله البشر من الجهل الذي لا يليق بجلال الله وعظمته، وجاء نفي ذلك وتنزيه الله تعالى عنه بالتسبيح.

ولنقف على بعض هذه المواضع:

زعم بعض المشركين أن بين الله تعالى وبعض عباده صلة ونسباً:فقال بعضهم: الملائكة بنات الله، وأمهاتهن بنات سروات الجن (أي أكابرهم). وقال بعضهم: إن الله تعالى وإبليس أخوان!! (ابن كثير ٤-٢٥). تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

فردّ القرآن الكريم على هذه المزاعم المفتراة، وجاء التسبيح عقب هذا الافتراء.

قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[الصافات ١٥٨ – ١٦٠].

فالتسبيح هنا: تنزيه لله تعالى، وتعظيم لشأنه الذي لم يعرف القائلون المفترون قدره.

وقد جاء التسبيح هنا مضافاً إلى لفظ الجلالة.

وجاء في ختام سورة الصافات مضافا إلى (ربك):

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الصافات: ١٨٠]

قال ابن كثير: "ينزه تبارك وتعالى نفسه ويقدّسها ويبّرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون، وتنزّه وتقدّس عن قولهم علوّا كبيراً. ولهذا قال تبارك وتعالى:﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾أي ذي العزّة التي لا ترام ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴾أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين" (ابن كثير ٤/٢٨).

لقد أضيف لفظ التسبيح (سبحان) إلى (ربك)، وفي هذه الإضافة تشريف للنبي ﷺ بإضافة (رب) إلى كاف الخطاب، وجاء بعدها وصف (ربّ العزّة) فهو:

العزيز، وربّ العزّة، ومن كان الله ربّه كان عزيزا:

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

وجاء لفظ التسبيح في سياق نفي الولد عن الله تعالى في إضافة ذات دلالة

قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[الزخرف: ٨١ -٨٢].

إن في هذا القول الذي علّمه الله تعالى لنبيه ﷺ، من التحدي للمشركين ما لا مثيل له

فهو عابد للرحمن في كل حال، مؤمن به حقّ الإيمان، ولذلك قال الله عزّ وجلّ لعبده محمد ﷺ:

"قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين"،

قال ابن كثير:

"أي لو فُرض هذا لعبدته على ذلك، لأني عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرني به، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فُرض هذا

لكان هذا" (١٤٦/٤).

ولكن هذا الفرض غير وارد، ولذلك جاء بعد هذا التسليم لله، وإعلان عبادته والعبودية له، تنزيه الله تعالى عما يقولون؛ بتذكيرهم بعظمته وقدرته، فهو رب السماوات ورب الأرض رب العرش العظيم، فأنى تكون له حاجة إلى ولد وهو الأحد الفرد الصمد؟ وكم نحتاج إلى تأمّل صيغة هذا التسبيح بترديده أكثر من مرة، ليمتلئ القلب من جلال عظمته، وعظيم سلطان

ونحن نتفكر في ربوبيته للسموات والأرض والعرش العظيم.

وقد جاءت صيغ أخرى للتسبيح بعد إيراد أقوال لا تليق بجلال الله تعالى مما قاله الجاهلون، فلنتأمل هذه الصيغ ومواضعها، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]

﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١]

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة ٣١]

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل ٥٧]

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣]

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ [مريم: ٣٥]

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ [الزمر: ٤]

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الطور: ٤٣]

في التسبيح: تنزيه للرب تعالى عما يقوله الجاهلون،

ولذلك كان عمل الملائكة العارفين بربهم، وذكر المؤمنين الذين يتدرجون في معارج المعرفة.

التسبيح تطهير للعبد

كما ورد التسبيح في القرآن الكريم تنزيهاً لله تبارك وتعالى، فقد ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية في سياق يوحي بتنزيه الله من جانب، وبتطهير العبد المردّد له من جانب آخر، بعد اعترافه بما لا يليق أن يصدر عنه من ذنب قولي أو فعلي.فعندما أخبر ربنا سبحانه وتعالى الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة وقالت الملائكة:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]

تلا ذلك عرض الله تعالى الأسماء على آدم والملائكة، فعجزت الملائكة عن التسمية، وقام بها آدم عليه السلام، في ذلك الموقف جاء تسبيح الملائكة:

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

ونجد التسبيح يجري على لسان المسيح عليه السلام بين يدي ربه سبحانه، حين يسأله عما افتراه الناس بعده من أمور:

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]

وأنى للمسيح عبد الله ورسوله أن يدعو الناس إلى فرية كبيرة، وذنب عظيم؟

ولذلك سبق جواب المسيح عليه السلام تسبيح فيه تنزيه للرب عز وجل عن أن يكون له صاحبة أو ولد، وفيه تطهّر من هذا القول الذي نُسب إليه:

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

وعندما طلب موسى عليه السلام من ربه جلّ وعلا أن يراه، ثم كان ما كان من تجلٍّ لله على الجبل، والصعق الذي حلّ بموسى، وجدناه لمّا أفاق ورأى ما حلّ بالجبل وحلّ به يقدم التسبيح بين يدي كلامه:

﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فالتسبيح هنا جاء تنزيها لله تعالى مما خطر بباله من إمكان الرؤية في الدنيا، وتمهيداً للاعتراف بخطأ ذلك الطلب والتوبة عنه، فهو بالتسبيح قد نزّه ربه عز وجل، وطهر نفسه.

ولما غضب يونس عليه السلام من قومه عندما لم يستجيبوا له، وترك ديارهم والتقمه الحوت:

﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ونلحظ كيف جاء في هذا الدعاء أو النداء إقرار بالتوحيد وتسبيح لله تعالى ثم إقرار بالذنب:

(إني كنت من الظالمين).

وعندما أشاع المنافقون حديث الإفك في حق السيدة عائشة، رضي الله عنها، جاءت التربية القرآنية لتعلم المسلمين كيف يتصرفون في مثل هذا الموقف:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦].

وقد قال أهل العلم: إن التسبيح هنا يراد به التعجب من عظم هذا الأمر وممّن تفوّه به.

ولعل الفهم يتسع لأن تقول: إن من مقاصد التسبيح هنا التطهر به من قول ما لا ينبغي في أعراض المسلمين والمسلمات.

ومثل هذا الفهم أجده في موقف المعبودين من دون الله تعالى: الذين

يسألهم الله تعالى يوم القيامة أمام عابديهم:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٧-١٨] .

فالتسبيح هنا تنزيه للرب تعالى عن أن يكون له شريك في العبادة، وتطهر وتبرّؤ من الذنب الذي نسبه إليهم العابدون لهم، الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله تعالى.

كما ورد في موضع آخر قول للملائكة يتبرأون ممّن زعموا أنهم عبدوهم:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ: ٤٠ -٤١]

وإذا كان في التسبيح تطهر مما لا ينبغي أن يصدر عن العبد من قول أو فعل؛ ففيه تطهر من:

الاحتقان النفسي، وضيق الصدر الذي يصيب العبد في الأزمات، نفهم ذلك من الأمر الرباني لرسوله ﷺ بالتسبيح في مواجهة موقف المشركين منه، وأثر هذا الموقف عليه:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٨].

مواطن التسبيح وثمراته

التسبيح عمل الملائكة المقربين، والتسبيح لغة الكون كله:

فالجبال تسبّح، والطير تسبّح، وإن من شيء إلاّ يسبّح، كلّ ذلك بلسان الفطرة والهداية الربانية.

وأما الإنسان فطلب منه التسبيح في أوقات محددة وأحوال معينة، لينال ثمرات ذلك في الدنيا والآخرة، المطلوب من الإنسان أن يسبّح ليتناغم مع الكون من حوله، وليعظّم ربه، وليطهر نفسه.

شُرع التسبيح في بداية الصلاة: في دعاء الاستفتاح:

[سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك] (صحيح ابن ماجه حديث رقم ٦٥٥)

وشرع التسبيح في الركوع: تعظيماً لله، وجاء بلفظ:

(سبحان ربي العظيم)

وشُرع التسبيح في السجود تذللاً لله، وجاء بلفظ:

(سبحان ربي الأعلى)

ومع تسبيح الرب الأعلى، والعبد في أدنى درجاته انخفاضاً، يكون في أعلى درجات القرب.

قال رسول الله ﷺ:

"أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء" (صحيح الجامع رقم ١١٧٥).

وشرُع التسبيح في الصلاة تنبيهاً للإمام إذا سها في صلاته، وكأنّما هذا التسبيح: تنزيه لله تعالى أن يكون السهو بين يديه في الصلاة، وتطهير للعبد من الخلل الذي طرأ على صلاته، حين شرد ذهنه فنسي شيئاً أو زاد شيئاً.

وللتسبيح أجر عظيم: فهو خفيف على اللسان، ثقيل في الميزان، بيَّن ذَلك الحديث النبوي الشريف:

"كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" (صحيح الجامع رقم ٤٥٧٢).

والتسبيح وسيلة اغتسال من الذنوب وإن عظمت؛ ففيه تعظيم للرب، وتطهر من الذنب ولنسمع هذا الحديث العظيم:

"من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة غُفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر" (صحيح الجامع رقم ٦٤٣١).

والتسبيح هو العنصر الأول في دعاء يطهر من أدران مجلس كثُر فيه اللغو، واختلط فيه الخير بالشر

فكان لا بد من كفّارة تمسح الشر، وتزيل آثار الغفلة، وهذا الحديث بروايتيه يبين أثر التسبيح:

"كفارة المجلس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك" (صحيح الجامع رقم ٤٤٨٧).

"من جلس في مجلس فكثر في لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، اشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلاّ غُفر له ما كان في مجلسه ذلك" (صحيح الجامع رقم ٦١٩٢).

ويقدم الرسول ﷺ لأصحاب الأشغال الكثيرة (كبسولة) تسبيح مختصرة، موجزة الكلمات عظيمة الأجر:

عن ابن عباس عن جويرية (أم المؤمنين) رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بُكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة. فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم. قال النبي ﷺ: "لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشة، ومداد كلماته" (صحيح الجامع رقم ٥١٣٩).

وإذا كان هذا شأن التسبيح في الدنيا، فإن له شأناً في الآخرة. يبين ذلك هذا الوصف لحال المؤمنين في الجنة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ٩- ١٠].

إن المؤمنين في الجنة يلهمون التسبيح كما يُلهمون النَّفس كما يبين ذلك حديث نبوي شريف، فيصبح حالهم حال الملائكة المسبّحين.

ذلك بعض شأن التسبيح وما أعظمه من شأن لقوم يعلمون.

المؤمنون والتسبيح

المؤمنون ذاكرون لربهم في كل حال وحين.

والتسبيح باب من أبواب الذكر، وصفهم الله تعالى به فيما وصفهم به من الأعمال التي يحبّها.

وإنما كان هذا الوصف تحريضاً لهم على التسبيح لما له من الأجر والنفع في الدنيا والآخرة.

أولا يكفيهم أنهم يتشبهون بالملائكة المكرمين الذين يسبحون بالليل والنهار لا يفترون؟

من الآيات التي وصفت المؤمنين بالتسبيح قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة: ١٥]

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٨- ٩]

ولم يقتصر أمر التسبيح على الوصف بل جاء به الأمر مع تحديد أوقات مختارة يحسن فيها التسبيح:

ومنها: العشيّ والإبكار:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [آل عمران: ٤١]

ولئن كان هذا الأمر موجهاً إلى نبي الله زكريا فإنه باب خير يعمّ غيره.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]

وقد جاء في تفسير هذه الآية: أن المقصود بالتسبيح قبل طلوع الشمس: صلاة الفجر،

وقبل الغروب: صلاة العصر،

ومن آناء الليل أي: من ساعاته فتهجد،

وحمله بعضهم على المغرب والعشاء،

وأطراف النهار في مقابل آناء الليل.

هذا ما ذكره ابن كثير. وقد ذكر الزمخشري في الكشاف أن المراد بالتسبيح الصلاة أو على ظاهره. ولا يخفى أن في الصلاة تسبيحاً في استفتاحها وفي الركوع وفي السجود.

وتكرر ذكر طرفي النهار والعشي والإبكار في القرآن الكريم مرات:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]

والتسبيح هنا على ظاهره أو على معنى صلاتي العصر والفجر.

ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩- ٤٠]

وتكرر لدى المفسرين القول بأن الإشارة هنا إلى مواقيت الصلاة، وقيل: التسبيح على ظاهره.

ولعل مما يؤكد المعنى الثاني قوله تعالى: (وأدبار السجود) أي في أعقاب الصلوات.

ويتكرر الأمر بالتسبيح في آيات أخرى:

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨- ٤٩].

وجاء التسبيح مقترناً بالسجود ومبّيناً وقت أفضليته:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]

وجاء التوجيه الرباني بالتسبيح مقروناً ببعض أسمائه:

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٧٤]

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]

كما جاء مقترناً بحال النصر والفتح، ومن ذلك في سورة النصر:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١- ٣]

وإذا كان النصر والفتح حالين يستدعيان التسبيح شكراً لله تعالى وتعظيماً لمنته على رسوله ﷺ فإنَّ التسبيح مطلوب عند ركوب الدابة أو ما أشبهها، وفي هذا التسبيح شكر وتعظيم للنعمة.

قال ربنا سبحانه: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ۝١٢ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢- ١٣].

وكان من سنة الرسول ﷺ في سفره أنه: إذا صعد في الطريق كبَّر، وإذا نزل سبّح، وفعل ذلك من كان معه من صحابته.

والتسبيح مناجاة العبد لربه في المآزق، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ في حديث يرويه سعد بن أبي وقاص:

"دعوة ذي النون إذْ دعا وهو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له بها" (صحيح الجامع رقم ٣٣٨٣)

التسبيح ليس كلاماً يقال، أو ثواباً يُرصد في الآخرة، بل هو جزء من منهج الذكر الذي يرى به المؤمن عظمة ربه، ونعمه عليه، ويتخلص به من الكرب والبلاء.

الفصل الثالث

الحمد لله رب العالمين

الحمد لله

"الحمد لله" أصل من أصول الذكر لله سبحانه وتعالى، وثاني أذكار الباقيات الصالحات:

(سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).

ومما ورد في مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني في معنى الحمد:

"الحمد لله تعالى: الثناء عليه بالفضيلة، وهو (أي الحمد) أخصُّ من المدح وأعمُّ من الشكر. فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير. فقد يمدح الإنسان بطول قامته، وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه. والحمد يكون في الثاني (أي فيما يكون بالاختيار). والشكر لا يقال إلا في مقابل نعمة. فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمداً".

ومن أسماء الله تعالى: "الحميد". وفُسّر هذا الاسم تفسيرين:

الحميد بمعنى المحمود على كل حال أو الحامد.

وقد ورد اسم الحميد في القرآن الكريم مقترناً بأسماء أخرى لله تعالى:

غني حميد – حميد مجيد – العزيز الحميد – حكيم حميد – الولي الحميد.

فالله تعالى محمود بغناه الذي يُفيض منه على عباده،

ومحمود بمجده وسعة فضله وعطائه،

ومحمود بعزّته وعلوه،

ومحمود بحكمته،

ومحمود لولايته المؤمنين ونصرته لهم.

وقد جاء الحمد في القرآن الكريم والسنة النبوية مطلقاً حيناً، ومقيداً حينا آخر، وأكثر ما جاء مقيداً لا مطلقاً.

فمن الحمد المطلق ورود صيغة: (الحمد لله) غير مرتبطة بأمر من الأمور، كذكر صفة من صفات الله، أو نعمة حلّت بالعبد، أو نقمة دفعت عنه. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ﴾ [النمل ٥٩]

ولعل مما يلفت النظر أن الحمد جاء في سياق الأمر الرباني: قل.

ومن الحمد المطلق قولنا: "الحمد لله" ثلاثاً وثلاثين مرّة دُبر كل صلاة، استجابة للتوجيه النبوي.

أو حمدنا الله تعالى في سياق أحب الكلام إليه: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وقد ورد الحمد مقيداً بإيراد اسم موصول متبوع بجملة صلة تبين أمراً يقتضي حمده، سبحانه، أو بذكر صفة من صفاته:

ومن الأمور التي سبقت بالحمد أمور ذات صلة بالكون،

ومنها: خلق الله سبحانه السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام: ١]

ومنها ملكية السماوات والأرض:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]

ومنها ربوبية السماوات والأرض والعالمين:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦]

ولا يخفى ما في تقديم لفظ الجلالة على الحمد من اختصاص مطلق به دون غيره، في قوله (فلله الحمد).

لقد جاءت صيغ الحمد في هذه الآيات في سياق لَفْتِ النظر إلى آيات كونية تطلق اللسان بالحمد حين يراها العبد:

فهو يحمد الله تعالى أن خلق الكون وما فيه، وأن جعل الكون على ما هو عليه، ويحمد الله حين تحلّ الظلمات، ويحمد الله حين تشع الأنوار، ويحمد الله وهو يرى مظاهر ربوبيته تتجلى على خلقه.

إنه أسلوب رباني حكيم: يجعل القلب حياً، واللسان رطباً بالحمد مع ألوان الذكر الأخرى التي يتقلب فيها العبد في أحواله كلّها.

ومن صيغ الحمد المتصلة بما سبق ما ورد في دعاء النبي ﷺ في التهجد:

"اللهم لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن.
ولك الحمد لك ملك السماوات والأرض ومن فيهن.
ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن.
ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن.
ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق،
وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق،
ومحمد حق، والساعة حق." (رواه البخاري رقم ١١٢٠)

ورواه مسلم (حديث رقم ٧٦٩) باللفظ الآتي:

"اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض
ولك الحمد أنت قيّام السماوات والأرض
ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن،
أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق،
والجنة حق، والنار حق، والساعة حق.
اللهم لك أسلمت وبك آمنت

وعليك توكلت، وإليك أنبت
وبك خاصمت، وإليك حاكمت،
فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وأسررت وأعلنت،
أنت إلهي لا إله إلا أنت".

من مواطن الحمد

جاء الحمد في القرآن الكريم في صيغة الخبر؛ تعليماً للعباد أن يحمدوا الله تعالى إن رأوا ما تضمنته تلك الصيغ من المشاهد والمواقف.

وورد في صيغة الأمر للعباد مع لفت أنظارهم إلى ما ينبغي لله تعالى من الحمد على نعم وأحوال يمرّون بها.

وورد مسبوقاً بصيغة الماضي إشارة إلى مواقف يحمد العباد فيها ربهم على ما أنعم عليهم. وأشهر صيغ الحمد ما ورد في مطلع سورة الفاتحة. ولعلها أكثر صيغ الحمد تكراراً على الألسنة:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

إنه حمد المربوبين للرب، يعلمهم الله تعالى إياه.

وإذا كانت الكائنات غير المكلّفة تعرف ربها معرفة تسخير، وتحمده وتسبّحه بالفطرة؛ فإن المطلوب من الإنسان أن يرى آثار تلك الربوبية ويحمد الله تعالى عليها.

ولو نظرنا في الصلاة لرأيناها تبدأ بالاستفتاح الذي يتضمن التسبيح والحمد:

"سبحانك اللهم وبحمدك".

ثم تأتي سورة الفاتحة: وأوّلها الحمد.

ثم نجد الحمد في الرفع من الركوع في صيغ متعددة، أشهرها:

"ربنا ولك الحمد"،

ومنها: ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد

أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد (رواه مسلم رقم ٤٧٧)

وجاء الحمد مسبوقاً بصيغة الأمر: (قل) في مواضع يرى فيها الإنسان ما يستحق الحمد، أو تذكره الآيات بما ينبغي أن يقوله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾[الإسراء: ١١١]

وقوله سبحانه:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٣]

ومن ذلك قوله تعالى موجهاً الخطاب إلى نوح عليه السلام:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المؤمنون ٢٧]

وفي هذا الأمر درس لكل مؤمن ينجو من ظالم أن يحمد الله تعالى على هذه النعمة.

وجاء الأمر بالحمد في سياق الحديث عن إقرار المشركين بربوبية الله عز وجل مع جحدهم لألوهيته:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]

ومثل هذا الموقف قوله تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: ٢٥]

والحمد في مثل هذا الموقف يكون على الهداية إلى الحق والمؤمن يرى غيره مقيماً على ضلال الشرك.

وجاء الحمد على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو يرى نعمة

الله عليه بالإنجاب بعد أن بلغ من العمر عتياً:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وجاء الحمد من الله تعالى تعليماً لعباده أن يحمدوه على نعمة نزول القرآن الكريم على عبده محمد ﷺ، فهي نعمة من أجل النعم، فكل خير يعيش فيه المؤمن هو ثمرة من ثمرات نزول القرآن الكريم:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾[الكهف: ١]

والحمد ممتد على ألسنة المؤمنين من الدنيا إلى الآخرة، ومن مواطن الحمد في الآخره ما ذكره الله تعالى عن حمد المؤمنين ربهم على إدخالهم الجنة وصدق وعده لهم:

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٥]

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤]

ويأتي الحمد في صيغة المبني للمجهول ليستغرق كلَّ صاحب لسان يمكن أن يحمد الله تعالى بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة، وتطوى صفحة الدنيا وما كان فيها ومن كان فيها:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]

إن الحمد يقتضي رؤية نعمة، أو صرف نقمة، وذلك شأن المؤمنين

في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا دار البلاء: يتقلب المؤمن بين آية ربانية تستحق رؤيتها الحمد، أو نعمة تنزل فينطلق اللسان بالحمد، أو بلاء يُدفع أو يرفع فيحمد الله، بل نجد العبد الصابر يحمد الله على كل حال، حتى يكون من الحامدين.

وقد بينت أحاديث النبي ﷺ بعض أحوال العبد مع الحمد، فإذا بدأنا مع المؤمن من أول النهار:

وجدنا الحمد أول ما يتفوه به بعد أن يستيقظ من نومه، فيحمد الله تعالى على المعافاة في الجسد، وعودة الروح إليه بعد وفاتها بالنوم، وإذن الله تعالى له بذكره وعبادته:

"الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي، وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره"
(الأذكار/باب ما يقول إذا استيقظ من منامه)

"الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" (فتح الباري ١١٧/١١ حديث رقم ٦٣١٢)

وحين ننظر في أذكار الصباح نجد للحمد مكاناً واضحاً فيها،

ومنها: الدعاء النبوي الذي يتأسى به المؤمنون:

"اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر" (رواه أبو داود النسائي)

"يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك"
(رواه أحمد وابن ماجه بإسناد حسن / المتجر الرابح / ص٤٤٨)

إنه حمد مبني على رؤية النعمة على العبد نفسه أو على الناس، وما أعظمها من نظرة لا تقتصر على الذات أو الدائرة الضيقة بل تمتد إلى الناس جميعا، وهو حمد يتجلى فيه شعور العبد بالتقصير تجاه ربه سبحانه، أن يوفيه حقه في الحمد فيجعله كما يليق بعظمة الله وجلال سلطانه.

وإذا أقبل المؤمن على طعامه، وأكله باسم الله، فإنه يختم ذلك الطعام بالتعبير عن تقدير هذه النعمة التي يمر بها كثير من الناس من غير

إحساس بعظمتها وفضلها، ولا يشعر الإنسان بذلك إلا حين يقرصه الجوع ولم يجد ما يملأ بطنه.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى ما ينبغي من العبد من قول يدل على الشعور، بعد الطعام والشراب:

"إن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها" (صحيح الجامع رقم ١٨١٦).

وعلمنا بعض المحامد التي تقال بعد الطعام والشراب تلك المحامد التي تتجلى فيها رؤية شاملة للنعم التي يتقلب فيها العبد المؤمن:

كان النبي ﷺ إذا رفع مائدته قال:

"الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا" . (فتح الباري / ٥٤٥٨).

وفي حديث آخر، قال: "الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مكفي ولا مكفور". وقال مرة: "لك الحمد ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى، ربنا". (فتح الباري / ٥٤٥٩).

ومن صيغ الحمد الجميلة ذات العلاقة بالطعام والشراب، وفيها تجلٍّ لرؤية عملية الهضم بعد الأكل ثم إخراج الفضلات:

"الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوّغه وجعل له مخرجاً" (رواه أبو داود والنسائي) (الأذكار / باب ما يقول إذا فرغ من الطعام)

بل إن العبد المؤمن حين يدخل الخلاء، وينتهي منه يحمد الله تعالى:

"غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني"، (الأذكار، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء)

وتمتد رحلة الحمد مع العبد حتى نومه، فإذا وضع جنبه على الفراش واستعرض نعم الله عليه في يومه قال حامداً حمداً يُجمل كل ذلك:

"الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، ورزقنا وكفانا وآوانا، فكم ممّن لا كافي له ولا مؤوي" (رواه مسلم رقم ٢٧١٥).

وما بين الصحو والنوم تعرض للعبد أحوال يحمد الله تعالى عليها:

فإذا عطس حمد الله تعالى.

وإذا لبس ثوبا جديداً قال حامداً معترفاً بفضل ربه:

"اللهم لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صُنع له، وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما صنع له". (الأذكار/باب ما يقول إذا لبس ثوباً جديداً).

"الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة" (الأذكار / باب ما يقول إلا لبس ثوبه).

وإذا رأى مبتلى بمرض أو عاهة، تذكر ما هو فيه من عافية فحمد الله عليها وقال من غير أن يُسمعه:

"الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا" (رواه الترمذي ٣٤٣١) (حديث غريب) ورواه ابن ماجه ٣٨٩٢، وعبد الرزاق ١٩٦٥٥)

وإذا سافر وعاد من السفر حمد الله تعالى على السلامة وقال:

"آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون" (رواه مسلم رقم ١٤٣٥).

وكم للحامدين من الأجر إذا كان مقروناً بالصبر. فمن ابُتلي فحمد الله واسترجع بنى الله له في الجنة بيتاً اسمه بيت الحمد.

عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال:

"إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمد واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد" (الترمذي ١٠٢١- حسن غريب ومسند أحمد ١٩٢٢٦)

وقد جعل النبي ﷺ الحمد دعاء في قوله:

"أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله" (صحيح الجامع رقم ١١٠٤)

فكأننا ونحن نحمده سبحانه نرفع إليه الإقرار بالنعمة وطلب العفو والعافية، ودوام النعم، ودفع النقم.

وأختم بقول الله تعالى عن أهل الجنة (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

الفصل الرابع

لا إله إلا الله

أفضل الذكر

لا إله إلا الله: أصل من أصول الذكر، وكلمة من الكلمات التي يحبّها الله تعالى، وهي من الأذكار التي يكثر بها تحريك الألسنة وتنوير القلوب:

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وقد جاء الأمر بها في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]

وجاءت في القرآن الكريم في صيغ متعددة، منها قوله تعالى:

﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]

والمعنى العام لهذه الصيغ واحد يقوم على التوحيد مع إضافة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى.

ومما يلفت النظر في هذا الذكر: (لا إله إلا الله)أنه نصف الشهادتين اللتين هما مفتاح الإسلام ومفتاح الجنة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وقد جاءت الشهادتان في صيغة نفي وإثبات: نفي الألوهية عن غير الله تعالى وإثبات الرسالة لمحمد ﷺ، ولم تأت الشهادة الأولى في صيغة إثبات كقوله تعالى:

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١ ﴾

﴿ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨]

وكأنما المطلوب من المسلم أن ينفي ألوهية غير الله ويثبت الألوهية لله وحده، لأن الآلهة المزعومة لا تنفك تلوح له أمام عينيه، وتحاول اقتحام حمى التوحيد في قلبه فيقول: "لا إله إلا الله".

و "لا إله إلا الله": مفتاح الإسلام؛ فبها يُعصَم الدم والمال.

قال رسول الله ﷺ:

"أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله". (متفق عليه).

وقال عليه الصلاة والسلام:

"أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقّه، وحسابه على الله" (صحيح الجامع رقم ١٣٧٣).

ولا إله إلا الله أعلى شعب الإيمان وأفضلها:

"الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" (صحيح الجامع رقم ٢٨٠٠).

ولا إله إلا الله ذكر المسلم بعد الصلاة:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد" (مسلم حديث رقم ٥٩٣)

وقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" مرة واحدة، يُكتب لقائله أجر عتق رقبة وعشر حسنات، وتحط عنه عشر سيئات، ويُرفع عشر درجات وتكون له حرزاً من الشيطان.

ومن فعل ذلك عشراً أو مئة مرة زيد في حسناته وأجره. (انظر صحيح مسلم / رقم ٢٦٩١، ٢٦٩٣).

وقول: لا إله إلا الله بإخلاص وصدق سبب لشفاعة الرسول ﷺ: "أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، مخلصاً من قلبه" (صحيح الجامع رقم ٩٦٧).

ولا إله إلا الله، أغلى كلمة يختم بها الإنسان حياته، "لقنوا أمواتكم لا إله إلا الله" (صحيح الجامع ٥١٤٨).

ومن قالها ابتغاء وجه الله، وختم لَهُ بها، كان قولها سبباً في دخول الجنة:

"من قال لا إله إلا الله ابتغاء وجه الله، ختم له، بها دخل الجنة" (رواه أحمد وغيره)

وقولها بصدق وإخلاص سبب للنجاة من النار:

"وما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرّمه الله على النار" (رواه البخاري / رقم ١٣٨)

إنها كلمة غالية، ثقيلة في الميزان، تنير القلب بالإيمان، وتنير الحياة بطاعة الله، وتهدي إلى الصراط المستقيم. ولا يتمحّلنَّ أحد فيقول: أيكفي قولها من غير عمل؟ فمن قالها صادقا من قلبه، ابتغاء رضوان الله تعالى، لا بدّ أن يعمل، وإن أخطأ، أو ارتكب بعض الذنوب والمعاصي كانت طوق النجاة له، فيعود من قريب ويتوب؛ لأنه يعلم أن له رباً يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنب.

الفصل الخامس

اللّٰه أكبر

التكبير نشيد المسلم

التكبير رابع كلمة من الكلمات الطيبات، والباقيات الصالحات التي هي أحب الكلام إلى الله تعالى: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

والتكبير نشيد المسلم الذي يرافقه في لحظات يومه،

ولا يكلّ ولا يملّ من سماعه وترديده.

التكبير افتتاح الأذان وختامه،

يأتي الإنسان وهو في شغله أو نومه،

أو أي حال من أحواله،

فيقول له: الله أكبر الله أكبر،

فيصغر عنده كل شيء، ويعظم عنده شأن ربه، تبارك وتعالى،

فيترك كل شيء،

ويقبل على صلاته، وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله،

ويوقن أن الفلاح في لقاء الله.

والتكبير نشيد الإنسان في صلاته،

في كل حركة من حركاتها،

وكأنه في كل حركة يلوح له شاغل من الشواغل،

فيأتيه التكبير ليصغر شأن ذلك الشاغل، ويعظّم أمر ربه.

ولعل هذا ما يفسّر هذا التكرار للتكبير في الصلاة،

إنه إلحاح في التكبير لمواجهة إلحاح الشواغل القاطعة للعبد عند ربه.

ويأتي التكبير على هيئات مخصوصة في أحوال مخصوصة:

ففي صلاة الجنازة أربع تكبيرات وقوفاً من غير حركة ركوع أوسجود،

فهل في هذا التكبير تصغير لمصاب الموت الذي قد يكون سبباً للحزن أو ألوان المشاعر الأخرى التي تصيب بعض الناس في مواجهته؟

وفي صلاة العيد زيادة تكبيرات على المألوف في الصلوات الأخرى.

فهل في هذا التكبير تصغير لما قد يتراءى للعبد من عظيم عمله في الصيام أو الحج أو الأضحية.

تكبير الله تعظيم له، وتصغير لما سواه،

ففي جنب الله يصغر كل عظيم.

وفي لقاء العدو يكبّر المسلم ليهون في عينه ما يبدو له من قوة عدوه، وهيبة سلاحه، فيقدم على الجهاد وهو يقول:

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]

مستهيناً بالعدو قائلاً:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]

وعندما تشتعل النار، ويهول الإنسان لهيبها وحرّها ودخانها يكبّر الله،

فيكون التكبير عاملاً من عوامل إخمادها.

وعند ذبح ما أحل الله من الأنعام،

وكلِّ ما يُذبح،

يسمي الإنسان باسم الله، ويكبر الله الذي أحل له الطيبات،

تعظيماً لأمره، وإقراراً بشكره.

وإذا ركب الإنسان دابة، أو سيارة، أو كلّ ما يُركب كان التكبير بعض الذكر الذي يقوله

ليلين له ذلك المركوب، ويسهل عليه التعامل معه.

وإذا سمع الإنسان أمراً يسرُه، كبر الله وحمده.

وتكبير الله تصغير لما حصل له من النعمة حتى لا يغتر بها،
فلا تكون النعمة سبباً للطغيان بدلاً من الشكر.
وفي الحج تكبير عند الطواف والمرور بالحجر الأسود.
وتكبير في يوم عرفة مع التهليل.
وتكبير عند رمي الحجرات.
وهل الحج إلا تعظيم لله وأمره، بترك الدنيا وزينتها،
والتوجه إلى ديار الحج،
وفعل ما أمر الله تعالى به من إحرام وتلبية وطواف،
وسعي ووقوف بعرفة، وذبح ما شرع الله تعالى أن يذبح؟
ويقرأ المسلم في كتاب ربه:

﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ [المدثر: ٣]

فيقول: الله أكبر.
ويكون هذا النداء: منهج نظر، ومنهج تفكير، ومنهج حياة.
ويقرأ في كتاب الله:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء: ١١١]

فلا يعظم في عينه شيء من معبودات الناس التي جعلوها شركاء لله.
ويظل التكبير حداءه ونشيده في حياته كلّها،
يؤكده الأذان، وتزيده تأكيداً الصلاة.

الفصل السادس

باسمك اللهم أحيا

أذكار الصحو من النوم

ذكر الله حال يصاحب المسلم في كل أوقاته، منذ استيقاظه حتى يأوي إلى فراشه .

فقد علمه النبي عليه وآله الصلاة والسلام أذكارا لكل حال من أحواله،

وكل شأن من شؤونه، وفي هذا ما يبين لنا عظمة الذكر، وكونه مخ العبادة، وكونه من أفضل الأعمال التي يشغل المسلم بها وقته.

منذ اللحظة التي يفتح فيها المسلم عينيه، ويستعيد وعيه ينطلق لسانه بذكر الله.

إن عودة الصحو إلى الإنسان بعد رحلة النوم نعمة تستحق الحمد لأنها فرصة جديدة تتاح للإنسان في الحياة ليمضي في طريق الحق:

عبادة لله، وعمارة للأرض؛ ليكتسب الحسنات وليحقق الغاية من وجوده.

وهذا ما نجده في ما رواه البخاري بسنده عن حذيفة بن اليمان وعن أبي ذر رضي الله عنهما عن رسولنا عليه وآله الصلاة والسلام أنه كان إذا أوى إلى فراشه قال:

"باسمك اللهم أحيا وأموت"

وإذا استيقظ قال:

"الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" (رواه البخاري) في هذا الذكر حمد لله على نعمة الحياة مرة أخرى بعد الموت الأصغر، وفي هذا الذكر إقرار بنعمة الحياة، وتذكر لمآل الموت، والتفات لما يكون بعد الموت الأكبر من بعث ونشور، وما يصاحبه من حساب وعاقبة إلى جنة أو نار.

إن الذكر ليس كلاما يجري على اللسان بل هو تصور مستقر في العقل والقلب،

يجعل المؤمن في كل لحظة مستوعبا حقيقة وجوده، ملما بالصورة

الكاملة الشاملة التي تمتد من الدنيا إلى الآخرة، بما في الدنيا من حياة، وما تتطلب من أعمال، وما في الآخرة من مآل وأحوال .

الذكر حالة وعي دائم يعيشه المسلم مستوعبا بها كل تفاصيل حياته .

ولننظر في هذا التوجيه النبوي لمن يستيقظ من نومه:

روى النووي في الأذكار عن ابن السني بالسند عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه وآله الصلاة والسلام قال:

"إذا استيقظ أحدكم فليقل: الحمد لله الذي رد عليّ روحي، وعافاني في جسدي وأذن لي في ذكره " (صحيح الجامع الحديث رقم ٣٢٩)

في هذا الذكر التفات إلى ردّ الروح إلى الجسد من غير ذكر للموت والبعث كما رأينا في الذكر السابق، بل فيه التفات إلى العافية الباقية المستمرة، فمفارقة الروح للجسد مفارقة جزئية في النوم لم ينتج عنها خلل في وظائفه، وكأنما يتفقد الإنسان نفسه بعد صحوه فيجد نفسه سالما معافى فيردد:

الحمد لله تعالى على العافية، وهي شرط من شروط استمرار الحياة السليمة، وقيام الإنسان بوظيفته في الحياة: عبادة لله وعمارة للأرض، وعمارتها ميدان من ميادين العبادة، ومحراب مفتوح يرى فيه الإنسان تجليات أسماء الله الحسنى في آفاق الكون .

ومما تضمنه هذا الذكر: الإحساس بنعمة الله على الإنسان أن أذن له بذكره، وذكر الله تعالى مقصد مهم من مقاصد الحياة، بل هو أساس الحياة، فمن كان ذاكرا كان حيا، ومن كان غافلا عن ذكر الله كان ميتا، ولا يكون الذكر إلا بتوفيق من الله وفضل وعون منه لعبده .

وإذا كان المؤمن يذكر ربه وفق التوجيه النبوي عند كل استيقاظ من كل نوم فإنه يذكره كذلك حين يستيقظ من الليل ليصلي لله تعالى ما يتيسر له من قيام.

وقد علمنا الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أذكارا خاصة بقيام الليل لخصوصية هذه الصلاة، ومنها: ما رواه أبو داود في سننه عن

عائشة رضي الله عنها قالت:

"كان رسول الله ﷺ إذا هب من الليل كبر عشرا وحمد عشرا وقال: سبحان الله وبحمده عشرا، وقال سبحان الملك القدوس عشرا، واستغفر عشرا، وهلل عشرا، ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشرا، ثم يفتتح الصلاة " (رواه أبو داود بسند حسن)

وفي هذا الذكر الخاص بقيام الليل جرعة مكثفة من الأذكار المتنوعة الشاملة تمثل جولة في الوجود ظاهرا وباطنا وفي الحياة بألوانها وفي بعض أسماء الله تعالى.

وأول الأذكار التكبير الذي يصغر به أمام الله تعالى كل شيء، ثم الحمد لله الذي يستحضر المسلم وهو يردده كل النعم التي لله عليه، ثم التسبيح العام الذي ينزه به المسلم ربه عن كل ما لا يليق به سبحانه، ويتبع هذا التسبيح العام تسبيح الملك القدوس الذي بيده أمر كل شيء المتنزه في كل صفاته عما يطرأ على البشر والمخلوقات من النقص،

ثم نجد في هذا الذكر الاستغفار الذي يستشعر به المسلم النقص فيلجأ إلى جناب الله تعالى يسد نقص بشريته بكمال مستمد من ربه، ونجد التهليل الذي فيه إخلاص الألوهية لله وحده،

ثم ختام الذكر الاستعاذة بالله من أمرين هما: ضيق الدنيا وضيق الآخرة.والضيق فيه الوقوع في المآزق والمصائب وأنواع البلاء، ومن سلم من الضيق كان في فسحة من أمره وفي سلامة في كل شؤونه.

ومن أذكار صلاة الليل ما رواه البخاري ومسلم أن النبي عليه وآله الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل وخرج من بيته أي من الحجرة النبوية قرأ خواتيم سورة آل عمران وقرن البخاري ذلك بالنظر في السماء .

وقراءة هذه الآيات مقرونة بالنظر والتفكر والتدبر التي تفتح للمؤمن آفاقا واسعة على آيات الله ولا سيما إذا كان النظر مرتبطا بما وصل إليه العلماء من المعرفة في أمر السماء واتساعها وآيات الله فيها:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ

﴿ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]

إن المؤمن وهو يردد هاتين الآيتين الكريمتين يستذكر ما في السماوات والأرض من آيات تتجلى للبصر، وتدرك بالفكر، ويتدبر ما في اختلاف الليل والنهار من أحوال تتجلى فيها آيات الله عز وجل، فأي قلب هذا الذي يملكه المؤمن، هذا القلب الممتلئ بالنور، المستمد من هذا الكون الذي حيثما نقل فيه بصره وحواسه وجد المدد منه؟

وأي عقل هذا الذي يسعى إلى إدراك الآيات التي يعجز عن إدراكها، ويعجز عن حصرها؟

فهو يدرك منها ما يتاح له، ويتفكر في ما يطيقه، وأيا ما كان مقدار ما يدركه، فهو يرقى به في معارج الإيمان ليجعل إيمانه بالله تعالى قائما على بينة، مبنيا على بصيرة .

ويمضي المؤمن مع خواتيم آل عمران ليتسع أفق إدراكه من الدنيا إلى الآخرة، فهو عندما يدرك ما يدرك من آيات الله في آفاق الكون، يردد بلسان ذاكر وقلب مستنير وعقل واع:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]

وهل خلق الله السماوات والأرض إلا بالحق؟

ومع نفي الباطل عن خلق الكون يستحضر المؤمن عالم الآخرة، فيتجلى له مصير الكافرين الغافلين عن الله وآياته ومصيرهم النار، فيستعيذ بالله من النار، وهو بذلك يستعيذ بالله أن يكون من الكافرين الغافلين.

ويمضي مع الآيات مستحضرا حال أهل النار وما هم فيه من خزي وفقدان للنصير:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

[آل عمران: ١٩٢]

ويمضي المؤمن اتباعا لنبيه الكريم عليه وآله الصلاة والسلام مرددا خواتيم آل عمران معلنا استجابته لداعي الإيمان: رسول الله الذي دعا الناس إليه، طالبا المغفرة وتكفير السيئات والوفاة مع الأبرار، والاستجابة لله ورسوله بداية الفلاح، فمن عرف أن له ربا يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنب نال المغفرة عن الذنوب صغيرها وكبيرها.

وما أجمله من طلب يتمناه المؤمن ويرجو من ربه: أن يحققه له بأن ينال الوفاة مع الأبرار الأخيار السابقين المكرّمين:

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]

هذا ما يشغل بال المسلم الذي هجر فراشه وقام من الليل يريد الصلاة التي تقربه إلى ربه، وهو يدعو بهذه الدعوات ولما يبدأ الصلاة.

وهو يحيي بهذه الدعوات معاني هي في نفسه، ولكنه يستحضرها في هذا الوقت الثمين، وفي هذا المشهد المهيب: مشهد آيات الله المتجلية له في آفاق السماء، وما لهذا المشهد من تداعيات في نفسه.

ويمضي المؤمن في رحلته مع خواتيم آل عمران وعيناه تتقلب في أرجاء السماء، وقلبه يتنقل في أنوار الشهود، يمضي في رجاء لا حد له أن ينال من الله تعالى مطلبه بتحقيق الوعود التي جاء بها الرسل للمؤمنين:

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

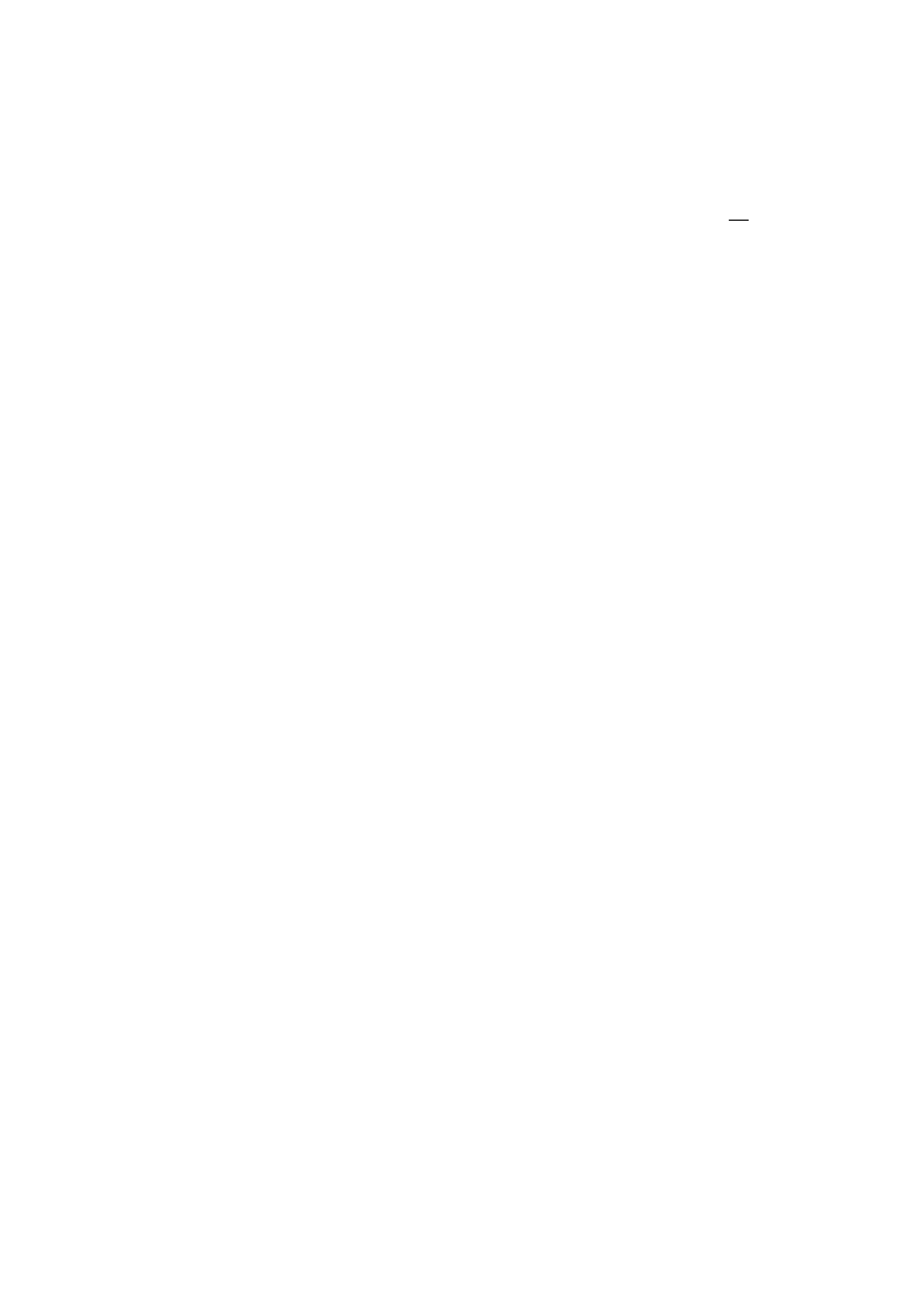
لقد وعد الله تعالى المؤمنين على لسان رسله بالفوز بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة وما أجمله من طلب أن ينال المؤمن العزة في الآخرة وينجو من الخزي في يوم القيامة.

ويمضي المؤمن مع آيات خواتيم آل عمران يتحرك بها لسانه، ويستنير قلبه بتجليات أسماء الله الحسنى؛ ليقبل على صلاة الليل مستنير القلب تزيده صلاة الليل نورا على نور.



الفصل السابع

خير المولج وخير المخرج



سلام في البيت والحياة

إن من آثار الإيمان في حياة المسلم أنه يستحضر في كل لحظة من لحظات حياته التصور الشامل للوجود، ويستحضر غاية حياته، وهو بذلك يكون على بينة ويمضي على بصيرة.

ومما يسهم في ذلك هذه الأذكار النبوية التي تشمل كل لحظة من لحظات الحياة.

ولنقف على حال المسلم وهو يهم بالخروج من بيته:

إنه وهو يفتح باب بيته يستذكر من الأدعية النبوية ما يحدد له مساره، ويستحضر ما يكون بين الناس من علاقات متبادلة في الخير والشر، وما يحدث في الشوارع والمكاتب وكل مجالات الحياة من تأثير للناس بعضهم في بعض من خير أو شر، ولذلك ينطلق لسانه بما يذكر به نفسه بما ينبغي أن يكون عليه سلوكه تجاه الناس، ويحدد لنفسه طريقة التعامل معهم.

وهذا ما تبينه أذكار نبوية متعددة ينطلق بها لسان المسلم عند خروجه من بيته؛

ومن ذلك ما روته أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها في بيان ما كان يقوله الرسول الكريم عليه وآله الصلاة السلام عند خروجه من بيته قالت:

"كان إذا خرج من بيته قال: باسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي" (حديث صحيح رواه أبو داود وغيره)

فالخروج من البيت يكون باسم الله الذي يدفع به المسلم كل شر، ويجلب كل بركة وخير.

ويخرج متوكلا على الله، والتوكل يملأ قلب المؤمن راحة، ويجعله ينطلق إلى غايته،

يبذل جهده، ويسعى في الأرض لا يضيق صدره، ولا يأسى على ما فات، ولا يتعلق بما هو آت؛لإيمانه بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

بعد هذا التحصن باسم الله والتوكل عليه تأتي استعاذات فيها اتقاء لشر النفس وشرور الآخرين في أمور محددة هي أصول الشر:

أولها: أن يضل هو أو أن يكون سببا في ضلال غيره أو أن يكون غيره سببا في ضلاله، وذلك ما يفهم من الاحتمالات المختلفة لنطق: أو أضل، بفتح الضاد وكسرها .

والضلال فيه عمى عن رؤية الحق وطريقه، ومن الناس من لا يكتفي أن يضل هو بل يكون إماما في الضلالة .

والمسلم يستعيذ بالله من أن يضل ضلالا ذاتيا بألاّ يرى الحق فيهوي في الضلال بتزيين النفس أو بشبهات العقل، ويستعيذ بالله كذلك أن يأتيه الضلال من غيره من دعاة الباطل،

وهذا يعني أن الهداية والضلال شغل شاغل للمسلم وهو خارج من بيته في تعامله مع الناس.

وثانيها: أنه يستعيذ بالله من أن يزل أو يزل،

والزلل وقوع في الخطيئة وارتكاب للإثم بتسويل النفس الأمارة بالسوء، أو بتزيين دعاة الشر الذين يشيعون الفاحشة بين الناس، والزلل مرتبة دون الضلال؛ لأن الضلال فيه انحراف عن الحق ووقوع في الباطل وأما الزلل فهو وقوع في المعصية.

وثالثها: أن يظلم غيره أو يظلمه غيره؛

ذلك لأن في الخروج من البيت والتعامل مع الناس مجالا للوقوع في الظلم؛بأن يأخذ الإنسان ما ليس له، أو يأخذ غيره منه بعض حقه فهو بين أمرين أن يكون ظالما أو مظلوما، وذلك بعض ما يستعيذ المسلم بالله منه عند خروجه من بيته، وهو بذلك يسعى إلى العدل في علاقته بالآخرين.

ورابعها:أن التعامل مع الناس قد يؤدي إلى التوتر وثورة الأعصاب؛ مما يجعل اللسان ينطلق بما لا ينبغي من شتيمة أو كلام غير لائق. والمسلم يستعيذ بالله أن كون جاهلا على غيره أو يكون غيره جاهلا عليه؛بأن يصدر منه ما لا يليق بالمسلم من قبيح القول، أو يتلقى ذلك من غيره، لما يكون بين الناس من مواقف تنفلت فيها الأعصاب وتنطلق الألسنة بأقوال قد تجر الناس إلى مشكلات كبيرة، كما تكون سببا في توتر الأعصاب وسوء العلاقات.

ما أروعه من دعاء يحصن به الإنسان نفسه، ويذكرها به بكل خير، ويحذرها من كل شر، وما أجمل أن يشيع هذا الذكر بين الناس ليسود الخير ويتراجع السوء.

ومن الأذكار التي يتحصن بها المسلم عند الخروج من البيت هذا الدعاء اتباعا لهدي نبيه الكريم عليه وآله الصلاة والسلام الذي قال في ما رواه أبو داود وغيره بسند صحيح:

"من قال – يعني إذا خرج من بيته -: باسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: كفيت ووقيت وهديت، وتنحى عنه الشيطان "، وفي رواية يقول – يعني الشيطان -: "كيف برجل قد هدي وكفي ووقي؟"

هذا الذكر يكشف لنا حجاب الغيب، ويكشف لنا عن عدونا الشيطان ويبين كيف نتقي شره،

إن هناك (دورية شيطانية) تنتظرنا عند الخروج من البيت لتتولانا، وتمضي معنا، وتوسوس لنا بالضلال والزلل والظلم والجهل.

وبهذا الذكر يكفينا الله تعالى شر الشيطان وشر كيده، ونتقي وسوسته ومخططاته،

ويهدينا الله تعالى إلى كل خير فنمضي في نور لا تشوبه ظلمة، وهدى لا ضلال يطفئ نوره.

وكما يذكر المسلم ربه عند خروجه من البيت يذكره عند عودته إليه، وكما سأل الله تعالى الخير عند خروجه واستعاذ بالله من الشيطان، فهو

يفعل ذلك عند الدخول،

فكما طلب الأمن والسلامة خارجا يطلب ذلك داخلا اتباعا للهدي النبوي الكريم.

لقد شرع لنا النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أذكارا وأدعية عند دخول المنزل ومن ذلك أن يقول الواحد منا:

"اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج، باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا ثم يسلم على أهله" (رواه أبو داود)

إن المسلم يعلم أن لكل شيء ولكل أمر ولكل حركة وجهين:

وجه خير يرجوه، ووجه شر يتقيه. والمؤمن دائم الدعاء لله تعالى أن يعطيه كل خير وأن يحميه من كل شر.وها هو يردد عند دخول البيت:

"اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج"

وسؤال الخير يقتضي ضمنا الاستعاذة من الشر.

والمولج مصدر من كلمة ولج أي دخل، فهو يسأل الله تعالى خير الدخول إلى البيت كما يسأله خير الخروج منه.

والبيت مأوى الإنسان ومستقره، وفيه أهل بيته من زوجة وولد أو أب وأم أو غير ذلك، فإذا نال خير المولج كان في خير وهناء وسكينة ومودة في بيته.

وإذا استذكرنا السلام المقرون بهذا الدعاء، وتصورنا السلام يخيم على البيت وأهله، وقد خلت علاقاتهم من النكد وصفت من الشحناء، وساد أهل البيت الحب، فإن ذلك غاية ما يتمناه الإنسان في بيته، وذلك ما يدعو إليه هذا الدعاء الذي علمنا إياه نبينا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام. وإذا جاء السلام هنا مقرونا بدعاء فإن هناك وصية نبوية خاصة به تدل على أهميته، وذلك ما يبينه هذا الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه وصية نبوية له:

"يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك " (رواه الترمذي)

والبركة هي النماء والزيادة في الخير، وأي معنى أجمل وأعلى وأسمى من السلام حين يسود البيت؛وهل تخرب ويحل فيها الشقاق إلا حين يفقد أهلها السلام؟ وهذا يعني أن السلام ليس كلاما يلقى بل منهج حياة وطريقة تعامل، ولاسيما إذا كان سلاما مكتملا بقولنا:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لتتضمن هذه التحية السلام والرحمة والبركة.

وللذكر عند دخول البيت آثار قد لا تبدو للعين القاصرة المشغولة بعالم الشهادة والمحجوبة عن عالم الغيب، آثار يكشفها لنا رسولنا الكريم عليه وآله الصلاة والسلام ليذكرنا بعدونا الخفي الذي يرانا ولا نراه، العدو الذي يريد أن يصدنا عن ذكر الله، وأن يوقع بيننا العداوة والبغضاء، ويقودنا إلى النار.

فمن ذكر الله تعالى عند دخوله بيته وقى نفسه وأهل بيته من مشاركة الشيطان وجنده له في طعامه وشرابه ومنامه، أي حرر بيته من استيطان الشيطان فيه، ولنتدبر هذا الحديث:

روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم الليلة ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء"

إننا أمام مشهد يتكرر عند دخول البيت وعند الخروج منه،

وهو هذا التربص الشيطاني بالإنسان، ونحن أمام أسلحة مضادة للكيد الشيطاني يقدمها لنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام في هذه الأذكار التي ليست كلمات تقال بل هي وعي في العقل ونور في القلب ووقاية في الحياة.

ولو أننا اتبعنا الهدي النبوي في أذكارنا في كل شأن لسلمت البيوت من التصدع، ولسلمت علاقاتنا بغيرنا من السوء والجهل مما نراه في كثير من جوانب الحياة.

الفصل الثامن

أقم الصلاة لذكري



أذكار بين يدي الصلاة

قبل أن يقيم المسلم صلاته يتهيأ لها بأمور تجعله مقبلا عليها من غير شاغل، متفرغا لها ظاهرا وباطنا، وهو في ذلك كله لا يفتر لسانه عن ذكر ربه، ولا قلبه عن التعلق به.

ومما قد يسبق الدخول إلى الصلاة دخول الخلاء (أي المرحاض)، و لا بد للصلاة من الوضوء.

ولما يسبق الصلاة من دخول للخلاء ووضوء أذكارعلمنا إياها نبينا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام يرددها المسلم ويجد أثرها في حياته كما يجدها يوم يلقى الله.

إن من آيات الله تعالى في الإنسان هذا الجهاز الهضمي الذي هو مجرى للطعام الذي يأكله الإنسان وفيه ما يستحق التفكر في كيفية عمله وفي أثره في حياة الإنسان.

وكما أن الإنسان يبدأ طعامه حين تناوله بذكر الله فإنه حين يدخل الخلاء للتخلص من فضلات الطعام يجد بين يديه أذكارا نبوية تناسب المقام ولا يعجب المسلم من ذلك، فوجود هذه الأذكار دليل على أهمية ذكر الله ليكون الإنسان في حماية ووقاية كما يكون في حال وعي وتدبر وتفكر في كل أحواله.

من أذكار الخلاء ما ورد في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول عند دخول الخلاء:

"اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث"

وهذا ذكر تحصين، ففيه استعاذة بالله من أمرين: الخبث والخبائث،

ولكلمة الخبث أكثر من ضبط ولكل ضبط معنى، يبين ذلك ما قاله ابن الأثير في كتاب النهاية في غريب الحديث:

"الخبث بضم الباء: جمع الخبيث، والخبائث جمع الخبيثة: يريد ذكور الشياطين وإناثهم. والخبث بسكون الباء هو خلاف طيب الفعل من فجور

وغيره، والخبائث يريد بها الأفعال المذمومة والخصال الرديئة."

وأنا أميل إلى المعنى الأول لأن الإنسان وهو في حال التخلي في المرحاض لا يجوز له أن يحرك لسانه بذكر الله فهو عرضة في هذه الحال لأذى الشياطين، ولذلك حين يدخل يستعيذ بالله ليكون في أمان من الأذى حال صمته عن الذكر.

وفي رواية أخرى: نجد أن النبي عليه وآله الصلاة والسلام كان يقول عند دخول الخلاء:

"باسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث"

وفي هذه الرواية نجد زيادة: "باسم الله" ليشمل ذكر البسملة كل أحوال الإنسان ليكسب معية الله وحمايته وحفظه ورعايته في كل أحواله حتى في الحال التي يهم فيها بدخول الخلاء.

ولذكر اسم الله في هذا الموقف تعليل آخر هو: أن ذكر اسم الله يسبل الستر على المسلم ويحول بينه وبين ما لا يراه من الجن:

قال رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام:

"ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول: باسم الله. وفي رواية إذا وضع أحدهم ثوبه" (صحيح الجامع الصغير حديث رقم ٣٦١٠ - ٣٦١١)

فإذا كان اسم الله يذكر على الطعام حين يؤكل ليكون فيه البركة والخير فإنه يذكر قبل خروج الفضلات ليكون وقاية وسترا للإنسان .

وحين الانتهاء من التخلي وتخلص الإنسان من الفضلات يخرج وهو يردد قول الحبيب المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام:

" غفرانك، الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني" (رواه أبو داود بسند صحيح).

غفرانك! وكأن المسلم يستغفر الله تعالى لأن لسانه صمت عن ذكر الله حال التخلي، لأنه معلوم أنه لا يجوز ذكر الله باللسان في هذا الموقف . وهو يحمد الله تعالى على تخلصه من الفضلات التي ستكون سببا في

الأذى لو لم تخرج من أمعائه، فخروج الفضلات نعمة تستحق الحمد .

ويؤكد هذا المعنى الذي ذهبت إليه دعاء نبوي عند الخروج من الخلاء هو قوله عليه وآله الصلاة والسلام:

"الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، ودفع عني أذاه" (رواه ابن السني والطبراني)

وفي هذا الدعاء استحضار لنعمة الطعام الذي أكله الإنسان وذاق لذته، ثم دخل ذلك الطعام معدته وأمعاءه ووقعت الفائدة منه بما امتصه الجسم مما فيه من الفوائد، وسرى ذلك في الجسم عافية وصحة، وبذلك انتهت الحاجة إلى هذا الطعام فكان لا بد من التخلص منه لأنه صار فضلات مؤذية إن بقيت في الأمعاء، ودفع الله أذاه بخروجه عند التخلي .

إن أذكار المسلم في هذا الحال فيها تذكر وتعمق في النظر إلى الأشياء مما يجعل عقل المؤمن وقلبه متعلقين بالله تعالى على الدوام، وبالذكر تزول الحجب عن الأشياء، ويبصر المسلم الحقائق التي تخفى على غيره ممن لا يملك الرؤية الإيمانية للوجود.

وبعد أن يتخلص المسلم من الفضلات يقبل على الوضوء ليتهيأ به للدخول إلى الصلاة، وللوضوء كغيره من أحوال المسلم وعباداته أذكارعلمنا إياها الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، ويبدأ المسلم وضوءه بذكر اسم الله: باسم الله، أو بسم الله الرحمن الرحيم، وإذا كان الوضوء مفتاح الصلاة فإن البسملة مفتاح كل أمر من أمور المسلم، ومما يبين أهمية بدء الوضوء بالبسملة هذا التحذير النبوي من تركها: روى أبو داود وغيره أن النبي عليه وآله الصلاة والسلام: "لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ".

وترك البسملة هنا غفلة في موضع تذكر لأن المتوضئ في موقف إقبال على الوضوء الذي هو مقدمة للصلاة فلا ينبغي له أن يكون من الغافلين.

ومن الذكر لله أن يتفكر المسلم في هذا الماء الطهور الذي جعله الله تعالى وسيلة إلى النظافة الظاهرة بإزالة ما علق بالجوارح من الأوساخ، ويتفكر في ما في هذا الماء من نظافة باطنية لا تراها العين لكن أخبر عنها

النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، ففي هذا الوضوء نظافة للجوارح التي قد تحصد السيئات وترتكب الخطايا.

يتجلى ذلك في هذا البيان النبوي لأثر الوضوء في الحديث الذي رواه مسلم أن رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام قال:

"من توَضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره ".

وفي الحديث ما ينبغي التنبه إليه وهو إحسان الوضوء الذي يعني في الظاهر إيصال الوضوء إلى الأعضاء كلها، وفي الباطن وعي معنى الوضوء وأهميته وآثاره، واستحضار هذا المعنى المرتبط بغسل الوضوء للخطايا هو نوع من الذكر القلبي الذي يدرك به المسلم أثر ما يقوم به من الطاعات، ومن ذلك إدراك الأثر الأخروي للوضوء ليكون الوضوء سمة مميزة للمؤمنين يوم القيامة وهو ما يبينه هذا الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال:

"إن أمتي يأتون يوم القيامة غرا محجلين فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل"

وهذا يعطينا وجها آخر لماء الوضوء الذي يفيض على الأعضاء، فهو ليس نظافة فحسب بل نور يشع منها يوم القيامة يعرف به النبي عليه وآله الصلاة والسلام أتباعه به يوم القيامة ويميزهم عن غيرهم من الأمم.

ومما ورد من أذكار الوضوء هذا الذكر الذي يتضمن الشهادتين وله فضل عظيم يبينه هذا الحديث: روى مسلم في صحيحه عن النبي عليه وآله الصلاة والسلام أنه قال: حي على الصلاة.

هناك ذكر يتردد على أسماعنا في اليوم والليلة خمس مرات، وكثير منا لا يلتفت إليه ولا يتوقف عنده ولا يتدبره، بل إن كثيرا منا يسمعه وهو لاه عنه.

إنه الذكر الذي ينتشلنا من غفلتنا فنقطع النوم ونلبيه، ويذكّرنا ونحن في أشد حالات انشغالنا في السوق والمدرسة والجامعة والمصنع

والمزرعة فنترك ما في أيدينا حتى لا نكون من الذين تلهيهم الدنيا عن ذكر الله وإقامة الصلاة.

إنه الأذان، الأذان الذي هو ذكر وتذكير.

وقد حدثتني زميل كريم درس الشريعة الإسلامية في جامعة دمشق منذ سنين أن أحد الطلبة كان اسمه يدل على أنه أرمني ولكنه اعتنق الإسلام، وكان سبب إسلامه الأذان ولا سيما أذان الفجر، فقد روى ذلك الأرمني المسلم أنه كان يسكن قريبا من مسجد وكان لأذان الفجر في سمعه حلاوة وفي قلبه نور فكان مفتاح الهداية الذي به دخل الإسلام.

كم منا الذي يتلقى الأذان ويحس بحلاوته إحساس ذلك الأرمني المسلم؟

كم منا من يقف عند كل كلمة من كلماته وقفة تدبر يدرك معانيها ومراميها ويتلمس آثارها في نفسه وفي الحياة؟

الأذان إعلان بأن وقت الصلاة قد حان، ولم يقتصر على قول موجز هو:

أيها الناس قد حان وقت الصلاة فحي عليها،

بل جاء الأذان شاملا لما ينبغي أن يكون مستقرا في قلب المسلم وموجها لحياته كلها.

في الأذان تكبير لله وتعظيم في بدء الأذان وختامه.

وفي الأذان الشهادتان اللتان بهما يدخل الإنسان الإسلام.

وفي الأذان دعوة إلى الصلاة ودعوة إلى الفلاح.

ونسأل: لماذا يتضمن الأذان ست تكبيرات؟

ويأتي جواب استنتاجي غير قطعي هو: أن الجهات المحيطة بالإنسان ست تأتيه من كل منها أمور قد يكبرها فلكل جهة منها تكبيرة يصغر بها كل كبير أمام عظمة الله.

وفي تكرار التكبير طرقات على عقل المسلم وحواسه ليدع كل شيء، ويعظم الله تعالى ويقبل على الصلاة متجردا من تعظيم أي شيء في

الوجود، مرددا مع الأذان بدءا وختاما: نعم، الله أكبر الله أكبر.

وتأتي بعد التكبير شهادة أن لا إله إلا الله، والإنسان في الحياة تحوم على قلبه غيوم الشهوات، وتعرض له أحوال تثير في نفسه شكوكا وتساؤلات وشبهات فيأتي صوت المؤذن ليعيد الأمور إلى نصابها، يذكره بالله فينيب إليه ويتوكل عليه.

ويأتيه صوت المؤذن بالقسم الآخر من الشهادتين: أشهد أن محمدا رسول الله، فتنمحي من أمام عينيه كل الصور التي تراءت له في ليله ونهاره، ويتجلى له رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام قدوة يهتدي به ويتبعه في الصراط المستقيم فتنجلي عن عينيه كل غشاوة.

ويأتيه النداء إلى الصلاة: حي على الصلاة فيرى أنه قد أعطى دنياه من الوقت الكثير وها قد حان الوقت الذي يتجه فيه إلى بيت الله أو إلى الصلاة حيث هو إن تعذر عليه ذلك، ليتزود من النور، ويغتسل من الخطايا، ويصحح بالصلاة الوجهة، ويعيد (برمجة) نفسه وعقله وقلبه .

ويأتي بعد ذلك الحافز الذي يزيل العوائق ويزيح الكسل بقول المؤذن: حي على الفلاح،

وقد يتراءى للإنسان أن الفلاح في المال والولد والوظيفة والجاه فيأتي الأذان ليصحح الرؤية ويصفيها من الغبش.

ولأذان الفجر خصوصية تناسب حال الإنسان الذي يكون مستغرقا في نومه فيقول له المؤذن: الصلاة خير من النوم.

وهل يملك المسلم إلا أن يقول للمؤذن: صدقت؟

وهل يملك إلا أن يلبي النداء ما لم يمنعه عذر مشروع من مرض أو غلبة نوم؟

ويختم الأذان بالتكبير ليحيط التكبير بالإنسان في كل أحواله ومن كل جهاته فيلبي نداء ربه.

والأذان كما قلت في بداية الكلام ذكر وتذكير، ولذلك نجد أنفسنا نردد ألفاظ الأذان ونردد بعده أذكارا علمنا إياها النبي ﷺ لتزداد قلوبنا نورا على

نور ونحصد من وراء ذلك أجرا عظيما، وهذا ما بينه الحديث الذي رواه مسلم عنى عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال:

"إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر فقال أحدكم الله أكبر الله أكبر، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ثم قال: أشهد أن محمدا رسول الله، قال: أشهد أن محمدا رسول الله، ثم قال: حي على الصلاة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حي على الفلاح قال لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: الله أكبر قال: الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله قال: لا إله إلا الله من قلبه دخل الجنة "

ليس المطلوب منا أن نسمع الأذان صامتين أو لاهية قلوبنا، بل علينا أن نسمعه ونردد ما يقوله، لأن الأذان ذكر وتذكير يكرر للإنسان ما يجب أن يرسخ في قلبه من أسس الإيمان ولنقف على ثمرة ترديد هذا الذكر بيقين، قال عنه النبي عليه وآله الصلاة والسلام: (من قلبه) والثمرة هي الجنة، ذلك أن من كان هدي الأذان ضابطا لحياته كان على الصراط المستقيم الذي يقود صاحبه إلى الجنة.

وليس ذلك فضل ترديد الأذان فحسب، بل إن ترديد كلمات الأذان سبب لنيل المغفرة من الله تعالى، وذلك ما يبينه الحديث الذي رواه مسلم وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا غفر له ما تقدم من ذنبه"

وهذا الذكر صدى لكلمات الأذان واستجابة لندائه، وهي كلمات يرددها المسلم بصدق وإيمان تفتح له باب المغفرة، وينال بها الجنة والرضوان، لأنه بهذه الكلمات الصادرة من قلبه يمضي على الصراط المستقيم الذي يصل به باب الجنة لينال فيها الدرجات العلى.

وهناك باب آخر من أبواب الخير يفتحه ذكر الأذان هو نيل شفاعة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام، يوم القيامة، وهذا ما يبينه الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "من قال حين يسمع النداء (أي الأذان): اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة

القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة " (رواه البخاري وأحمد)

إن هذا الحديث يقدم للمسلم شرفا يناله في اليوم والليلة خمس مرات، وهو شرف الدعاء للنبي عليه وآله الصلاة، وهو دعاء يتشرف به وترقى به درجته وينال رضوان الله تعالى، كما ينال الشفاعة يوم القيامة في ذلك المشهد الحاشد الذي يتطلع فيه الخلق إلى من يشفع لهم ليقضي الله بين العباد، فينال شرف هذا المقام رسولنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام في الشفاعة العامة للناس، وفي الشفاعة الخاصة بالمؤمنين.

إن الأذان وما يرافقه من ذكر وما يتلوه تجعل المسلم مستحضرا للصلاة التي يدعوه الأذان إليها، ولصفات الله الذي يتوجه لعبادته، كما يستحضر الآخرة وما فيها من هول يتطلب الشفاعة، والجنة وما فيها من نعيم مقيم.

الأذان ليس كلمات يرفع بها المؤذن صوته فيرددها من يسمعها فحسب بل الأذان نور يخترق ظلمات الحياة ليذكر المسلم بوجهته، وينتشله من قيود الغفلة التي تغشاه، وهو يتقلب في الليل والنهار، فالأذان ذكر وهو دعوة إلى حلقة ذكر هي الصلاة.

وقفة مع الصلاة

لا يخفى ما للصلاة من منزلة في الدين، ومن أثر يجب أن يتحقق في حياة المسلمين؛ أفرادا وجماعات.

فالصلاة عماد الدين.

وهي الركن الثاني من أركان الإسلام.

ولها في القرآن الكريم والسنة النبوية منزلة لا تخفى.

إنها عبادة يستعد المسلم لها بالطهارة.

وينادى إليها بالأذان.

ويدعى إليها بالإقامة.

وهي ذكر كلها، وبعدها ذكر يتردد نوره في لسان المسلم وقلبه، ومن أداها حق أدائها كانت ضابطة لحياته ناهية له عن الفحشاء والمنكر، وموجهة له إلى كل خير.

الصلاة حلقة ذكر، يجتمع لها المسلمون في بيوت الله في الفرائض، ويؤديها في البيت من لم يستطع أداءها في المسجد، كما تؤدى النوافل في البيوت.

وقبل الوقوف المفصل مع أذكار الصلاة لنقف مع الصلاة وقفة عامة نتفكر فيها ونتدبرها.

ولعل من المفيد أن نقوم بإحصاء ما نردده في يوم واحد من أذكار الصلاة لنرى بعض آثار الصلاة في حياتنا.

فكم مرة نكبر؟

وكم مرة نقرأ دعاء الاستفتاح؟

وكم مرة نقرأ سورة الفاتحة؟

وكم مرة نقرأ ما تيسر من القرآن؟

وكم مرة نسبح ربنا العظيم؟

وكم مرة نسبح ربنا الأعلى؟

وكم مرة نلقي على ربنا التحية في التشهد؟

وكم مرة نصلي على نبينا عليه وآله الصلاة والسلام؟

وكم مرة ندعو الله بأدعية ما قبل السلام؟

الصلاة حلقة ذكر ممتدة ترافقنا في يومنا كله: ليله ونهاره.

هذه الحلقة ندعى إليها خمس مرات في اليوم والليلة، ونحن نتذكر قول ربنا سبحانه عن المساجد في سورة النور:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨].

هذه الصلاة التي هي حلقة ذكر ممتدة، قال عنها رسولنا عليه وآله الصلاة والسلام: "الصلاة نور" (رواه مسلم)

ويحضرني وأنا أقرأ هذا الحديث صورة شحن البطاريات في زماننا للهاتف الخلوي وما أشبهه مما يعمل بالشحن الكهربائي من الآلات.

وأحس أننا كلما صلينا زدنا من شحن قلوبنا بالنور.

وأستحضر وأنا أتدبر أحوال الصلاة التي هي ذكر كلها، ونور كلها، ما ورد من أحاديث في فضلها وأثرها في حياة المسلم:

فالصلاة ملاذ المؤمن في الشدائد وذلك كان حال النبي عليه وآله الصلاة والسلام، فقد كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول:

" أرحنا بها يا بلال"

والصلاة بنورها تمسح ظلمة الخطايا، وتزيل ما يتراكم على القلب من آثار الذنوب، وقد بين النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أنها من

مكفرات للذنوب:

" الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما لم تغش الكبائر" (رواه مسلم وأحمد والترمذي)

وما أروعه من تصوير لأثر الصلاة في غسل الخطايا وتكفير الذنوب هذا المشهد الذي يقدمه لنا هذا الحديث النبوي الذي لا يحتاج إلا إلى طول تدبر:

ها هو النبي عليه وآله الصلاة والسلام يسأل جلساءه:

"أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه خمس مرات في اليوم والليلة أيبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه فقال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا ويرفع بهن الدرجات " (متفق عليه)

إنني أقول: لو صلحت صلاتنا لصلحت حياتنا، فلو عرفنا حقيقة الصلاة وما ينبغي أن يكون حالنا فيها ونحن نقف بين يدي ربنا، ولو تدبرنا ما تجري به ألسنتنا في الصلاة، وأحضرنا قلوبنا فيها ولم تشرد أذهاننا وعرفنا بين يدي من نقف لكان لنا شأن آخر وأجدني أستذكر بيت شعر لعمر أبي ريشة عن الحال في الصلاة:

كم صلاة صليتها لم يجاوز   قدس آياتها حدود لساني

ولا يخفى أن الصلاة هي أكثر العبادات مرافقة للمسلم في حياته، فنحن نصوم شهرا في العام أداء للفريضة، إلا من زاد على ذلك نافلة، ونزكي في العام مرة واحدة إن توافر النصاب وحال عليه الحول، ونؤدي فريضة الحج مرة واحدة في العمر، أما الصلاة فهي رفيقتنا على مدار العمر كله، نؤديها خمس مرات في اليوم والليلة فرائض مقرونة بسنن.

ولذلك لا بد من التدبر الطويل للصلاة وأذكارها وحركاتها، لعل الله تعالى ينفعنا بهذا التدبر، فنزداد منه قربا، وله حبا، ولنحيي أثر الصلاة في حياتنا، ونستمد أنوار أذكارها لتعمر قلوبنا وتنير دروبنا.

ومما يلفت النظر في الصلاة ويدل على منزلتها أننا لا ندخل فيها من غير مقدمات، بل نجد اشتراط طهارة الثوب والبدن والمكان، ونجد في الفرائض: الأذان والإقامة، مما يشعرنا بجلال ما نحن مقبلون عليه.

وأول ما نقوم به في الصلاة هو ذكر البداية: التكبير، والتكبير في الصلاة مكرر، ولأول تكبيرة منزلة خاصة، ولذلك سميت تكبيرة الإحرام، ولهذه التسمية وقع خاص في النفس والعقل، وتسميتها تذكرنا بالإحرام في الحج والعمرة .

إن المحرم بالحج والعمرة يمتنع عن أمور تحظر عليه فيحرص على اجتنابها تقربا إلى الله تعالى، كذلك هو المصلي الذي يبدأ صلاته بتكبيرة الإحرام، فيحرم عليه من الأقوال والحركات والأفعال ما هو خارج عن أمور الصلاة.

إنه محرم وواقف بين يدي ربه، وجه وجهه إليه، وفرغ له وقته، وانقطع عن دنياه ليذكره، ويجلو بذكره قلبه، ويطفئ ذنبه.

قال ابن الأثير في كتاب "النهاية في غريب الحديث" في بيان معنى الإحرام: "ومنه حديث: (الصلاة تحريمها التكبير)

كأن المصلي بالتكبير والدخول في الصلاة صار ممنوعا من الكلام والأفعال الخارجة عن كلام الصلاة وأفعالها، فقيل للتكبير: تحريم؛ لمنعه المصلي من ذلك ولهذا سميت تكبيرة الإحرام، أي الإحرام بالصلاة "

ولنا أن نسأل: لم كان افتتاح الصلاة بالتكبير بقول: الله أكبر، لا بغير هذا الذكر من الأذكار الأخرى من تسبيح أو تحميد أو تهليل؟

تكبير الله يعني أو يجب أن يعني للمصلي حين يردده أن يصغر في قلبه وعقله وعينه كل شيء، وأن ينحي عن تفكيره وهو يصلي كل شيء، فقد كبر الله تعالى، ووقف بين يديه يدعوه، ويتلو آيات من كتابه، ويسبحه ويحمده.

وهو بين كل حركة وحركة يعيد التكبير مرة أخرى، وكأن هذا التكبير لله يطارد كل خاطر يدخل عليه ليقطع عليه صلاته، ، ويذكّره تكرار التكبير بأن: الله أكبر؛ لينال من صلاته أكبر قدر:"عن عمر بن أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبيه أن عمار بن ياسر قال: سمعت رسول ﷺ يقول: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي وَلَعَلَّهُ أَلا يَكُونَ لَهُ مِنْ صَلاتِهِ إِلا عُشْرُهَا، أَوْ تُسْعُهَا، أَوْ ثُمْنُهَا، أَوْ سُبْعُهَا حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِ الْعَدَدِ " (رواه النسائي)

وكم في هذا التكرار للتكبير من آثار يجب أن تتجلى في حياة المسلم فضلا عن صلاته وفي نظرته إلى الدنيا وما فيها ومن فيها.

إنه حين يعظم عليه أمر يكبّر الله، وحين يستعلي على أهل الباطل يكبّر الله.

ومن كان الله في قلبه كبيرا لم يكبر في عينه شيء.

تكبيرة الإحرام هي المحطة الأولى في الصلاة، هي الذكر الأول فيها، هي بوابة الصلاة التي يدخل منها المسلم إلى حضرة ربه، ينسل من دنياه، ومن أشغاله وأهله وماله، ليفرّغ نفسه لذكر الله سبحانه وتعالى.

وما أعظم تكبيرة الإحرام من ذكر حين تصبح للمسلم منهج نظر ومنهج حياة، وحين تملأ عقله وقلبه وحواسه فيكون في حياته كلها محرما لربه، مستجيبا لأمره، منتهيا عما نهى عنه.

أذكار الاستفتاح: سبحانك اللهم

إن مما يلفت النظر في الصلاة أن المسلم بعد أن ينطق بتكبيرة الإحرام لا يبدأ بقراءة الفاتحة، بل يتبع الهدي النبوي بالبدء بواحد من الأدعية التي سميت أدعية الاستفتاح؛

وفي هذا تأكيد على كون الصلاة ذكرا كلها من بدايتها إلى ختامها .

ومن الملاحظ أن من الناس من يعتاد على دعاء واحد من أدعية الاستفتاح، يردده في صلاته كلها، مع أن لدعاء الاستفتاح صيغا متعددة، ولعل من المفضل التنويع في الأدعية لتتجدد معانيها في النفس ولينال المسلم بركة الأدعية كلها .

ولعل من أشهر صيغ الاستفتاح صيغة:

«سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ» رواه مسلم وأحمد والترمذي وأبو داود ."

وفي هذا الاستفتاح من المعاني ما ينبغي التوقف عنده:

إنه يبدأ بتسبيح الله وبحمده،

والتسبيح تنزيه لله تعالى بعد تكبيره، وتطهر للعبد به عن كل تقصير يحصل في صلاته بين يدي ربه سهوا أو غفلة أو شرود ذهن.

والحمد في هذا المقام مفهوم، فهو حمد العبد لربه أن أعانه على ترك الدنيا والإقبال على الصلاة، وحمد لله على نعمه كلها التي أولاه ربه إياها.

وفي هذا المقام يستمد المصلي الخير والبركة من اسم الله تعالى الذي هو مصدر كل خير:

(وتبارك اسمك) أي فاض علينا من اسمك المبارك كل بركة في ديننا ودنيانا.

وهذا موقف تعظيم لله تعالى: (وتعالى جدك): أي عظمتك وسلطانك

ومع هذا التسبيح والحمد واستمداد البركة من اسمه تعالى يأتي التوحيد ليكتمل في هذا الاستفتاح كل ما به نجاة العبد وحصوله على الخير .

"ولا إله غيرك": إقرار بوحدانية الله وأنه وحده المستحق للألوهية المقصود بالعبادة.

هذه المعاني نجدها ونحن ما زلنا في مطلع الصلاة في دعاء الاستفتاح.

وفي الصيغ الأخرى للاستفتاح معان أخرى، وأنوار ينبغي ألا نحرم منها قلوبنا وحياتنا، منها هذا الاستفتاح الجميل الذي رواه البخاري ومسلم:

"اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب،

اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد،

اللهم نقني منى الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ".

وإذا كان في دعاء الاستفتاح السابق ثناء على الله تعالى ففي هذا الدعاء اعتراف وطلب: اعتراف بكون العبد خطاء، وطلب المغفرة من الله تعالى.

ولننظر في تركيب هذا الدعاء النبوي:

يطلب المصلي أن يكون البعد بينه وبين خطاياه كالبعد ما بين المشرق والمغرب، فمن اقتربت منه خطاياه وأحاطت به هلك ودخل النار.

والخطايا: أوساخ يطلب المصلي من ربه أن يغسله منها بالماء بأشكاله المختلفة:

ماء وثلجا وبردا.

والغسل بالماء مألوف معروف ولكن الغسل بالثلج والبرد ليس كذلك، وكأن الغسل بالثلج والبرد غسل بماء طهور مبارك نازل من السماء حديثا، يتخلل عضلات الجسد ببرودته ليتم الغسل بأشكال الماء ظاهرا وباطنا، من الأوساخ الظاهرة العالقة بالأعضاء، ومن الخطايا وآثارها في تلك الجوارح.

ويبرز لنا هذا الدعاء مشهدا ناصعا يرجو به المصلي أن يكون مثله هو صورة الثوب الأبيض النقي من الأوساخ.

ومن أدعية الاستفتاح الواردة عن النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام هذا الدعاء الذي يصحح به المصلي وجهته، ويجعل به حياته كلها ظاهرا وباطنا لله تعالى، وفيه إقرار بالذنب وتعظيم للرب، وطلب كل خير ودفع كل شر، وهو دعاء رواه مسلم وغيره، وهو:

"وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي وحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين،

اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعها إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت،

لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك." (رواه مسلم وأحمد والترمذي وأبوداود)

لكل إنسان في هذه الحياة وجهة، ووجهة المؤمن ربه، وجه إليه وجهه وقلبه.

ويمتد الأفق أمام المصلي في هذا الدعاء ليستحضر من مخلوقات الله تعالى السماوات والأرض، ويستحضر خلق الله تعالى لها، ولا يخفى ما في هذا المشهد من استحضار لعظمة الله وقدرته، مما يجعل الصلاة من خلال هذا المشهد معراجا في جنبات هذا الكون.

ويحدد المسلم موقفه: فهو يترك كل معبود سوى الله، وكل ملة سوى دين الحق، يتبرأ من الشرك والمشركين ومنهجهم، ويصحح نيته في كل أمر من أمور حياته: صلاة وحجا وذبحا، وحياة ومماتا.

ويستحضر المصلي في هذا الدعاء مشهدا آخر بعد أن استحضر السماوات والأرض، وهو مشهد ربوبية الله تعالى للعالمين، وكم في كلمة

العالمين من آفاق غير محدودة بل لا يستطيع العقل البشري أن يحيط بتفصيلاتها وإن أحاط بعظمة المشهد .

ويلفت النظر هذا الوصف: وأنا أول المسلمين، وكأنه يقول للمسلم لتكن همتك عالية ولا ترض بأقل من الموقع الأول في كل شأن من شؤونك.

وليس ذلك فحسب، بل يستحضر المصلي صفة الله: الملك، مع تكرار شعار التوحيد: لا إله إلا أنت، وما دام الله هو الملك فإن المصلي يستحضر أمام ربوبية ربه عبوديته له، وإقراره بظلم نفسه واعترافه بذنوبه، وظلم النفس لا يعني ارتكاب الذنوب دائما، فالتقصير في فعلل الخيرات، والكسل عن الصالحات هو لون من ألوان الظلم للنفس، يدل على ذلك اقتران الحديث عن ظلم النفس بالاعتراف بالذنب، وطلب مغفرة الذنوب كلها مع إقرار المسلم أنه لا يغفر الذنوب إلا الله.

ولعل من ظلم الإنسان لنفسه أن يضيع فرصة الصلاة بما فيها من التجليات الإيمانية التي رأينا منها هذه الأنوار العظيمة وما زلنا بعد في أدعية الاستفتاح، ما زلنا على شاطئ بحر الأنوار التي نقف عليها من خلال الصلاة.

ومع طلب المغفرة الذي فيه اعتراف بالذنب وهو تقصير من العبد، يأتي طلب فيه سعي إلى الاكتمال بطلب الهداية إلى أحسن الأخلاق والأعمال التي لا يهدي لأحسنها إلا الله .

ومع طلب التحلي بهذه الأخلاق يأتي طلب التخلي عن أضدادها: سيء الأخلاق والأعمال، وفي هذا الدعاء تلبية: لبيك وسعديك، وما له لا يلبي وقد أجاب داعي الله الذي ناداه بالأذان؟ قال له: حي على الصلاة، حي على الفلاح، فترك كل شيء وجاء ليقف بين يدي ربه داعيا ذاكرا.

وترديد اللسان للكلام لا بد أن يكون له رصيد في القلب ليكون له معنى، وليكون له اثر في حياة قائله، كما يكون لهذا الترديد أثر في تثبيت هذه المعاني في النفس، ولا سيما إذا كان الأمر كحال المصلي الذي يردد أذكار الصلاة ومنها أدعية الاستفتاح مع كل صلاة يصليها فرضا أو سنة.

ومما يذكر الإنسان به نفسه هذا المعنى الذي فيه تنزيه لله عما لا يليق به:

"الخير كله بيديك، والشر ليس إليك "

وفي هذا الذكر استعراض ما في الحياة من الخير والشر، ونسبة الخير إلى الله تعالى، ونفي للشر عنه، فالشر من الخلق لا من الخالق.

ويستحضر الإنسان حاله وما هو فيه من حول وقوة فيرد ذلك إلى الله تعالى، وهذا يذكرنا بقولنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقولنا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ويستحضر المصلي بركة الله تعالى التي تتجلى في مخلوقات الله كلها، كما يستحضر ما يقوله الكافرون والضالون مما لا يليق بالله سبحانه ويستحضر تعالي الله عن ذلك.

وأخيرا يستحضر تقصيره في حق ربه فيستغفره ويتوب إليه.

هذه بعض أدعية الاستفتاح وهذه بعض أنوارها وآفاقها التي أتمنى أن نستحضرها أو نستحضر بعضها ونحن نصلي، وألا نرددها سريعا، فلا ندرك معانيها ولا تتحقق الفائدة المرجوة منها، فلم يشرعها لنا الرسول الكريم عبثا بل لها مقاصد لعلنا لا نغفل عنها.

سبح اسم ربك العظيم

بعد أن يكبر المصلي تكبيرة الإحرام، ويقرأ ما تيسر له من أدعية الاستفتاح، ينتقل إلى قراءة الفاتحة وما يتيسر من القرآن الكريم. ويلفت النظر أن قراءة القرآن تفتتح بالاستعاذة

وذلك ما ورد في كتاب الله تعالى بقوله:

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠]

وهذا يكون في الصلاة و في قراءة القرآن خارج الصلاة، فما حكمة ذلك؟

إن الشيطان يقعد للإنسان بكل سبيل، ويحاول أن يحجب عن قلبه النور، ولذلك حين نقرأ القرآن نستعيذ بالله تعالى كيلا يشوش علينا القراءة، ولا يلبس علينا الفهم، ولا يصرفنا عن الخشوع والتدبر، فكأن هذه الاستعاذة إجراء احتياطي ضد وسوسة الشيطان.

وبعد قراءة الفاتحة وما يتيسر من القرآن الكريم يكبر المصلي ويركع، ويلفت النظر في الصلاة هذا التكرار للتكبير عند كل حركة منها ما عدا الرفع من الركوع والتسليم.

فأي معنى يمكن أن نستجليه من تكرار التكبير؟

إن في تكرار التكبير تذكيرا للمصلي أنه بين يدي ربه الكبير المتعال، وأنه بتكبيره لله تعالى يصغر عنده كل شيء، فكلما شغله في باطنه شاغل عن الله تعالى كبر، وكلما لاح له شيء ليشغله كبر، فصغر ذلك الشيء، ليتفرغ القلب والعقل لما سعى إليه المصلي، وهو الخشوع لله تعالى والإقبال عليه في الصلاة.

وللركوع أذكار خاصة به شأنه شأن كل حركة من حركات الصلاة.

وفي انحناءة الركوع تذلل لله تعالى وخضوع له: خضوع جسد يجب أن يصدقه خضوع القلب بصدق الإيمان بسطوة الله تعالى وعظمته وجلاله.

علمنا الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أذكارا متعددة في الركوع وأشهرها: "سبحان ربي العظيم" (رواه مسلم)

ويكرر المصلي هذا الذكر مع التدبر والخشوع.

وكان النبي عليه وآله الصلاة والسلام يضيف إلى هذا الذكر قوله:

"سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي" (متفق عليه)

ومن أذكار الركوع: "سبوح قدوس رب الملائكة والروح" (رواه مسلم)

و"اللهم لك ركعت، وبك آمنت ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري، ومخي وعظمي وعصبي" (رواه مسلم)

و"سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة" (رواه أبو داود بسند حسن)

إننا ونحن نردد أذكار الركوع نستذكر قول الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام:

"أما الركوع فعظموا فيه الرب " (صحيح مسلم)

ونستذكر قوله تعالى: (فسبح باسم ربك العظيم) في سورة الواقعة لنستعرض في ذهننا ونحن نسبح ربنا ما ورد في السورة من آيات الله التي سبقت الأمر بالتسبيح، مما فيه بيان عظمته سبحانه: في حديثه عن خلق الإنسان من مني يمنى، وفي إنبات الحرث، وفي إنزال الماء من السماء عذبا زلالا، وفي جعل النار متاعا للإنسان وآية ربانية.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٧٤].

كل ذلك ينبغي أن نستحضره ونحن نسبح باسم ربنا العظيم.

وحين نقول في ركوعنا: "سبوح قدوس رب الملائكة والروح"

نجد أنفسنا نتشبه بالملائكة الكرام، ونتذكر قول الملائكة لربنا سبحانه:

﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فالله عز وجل هو المسبَّح بلسان كل مخلوق، والمقدَّس المطهَّر عما ينسبه إليه كفرة الإنس والجن مما لا يليق بعظمته.

وفي الركوع خضوع لله تعالى، نعلنه بالجسد المنحني، وباللسان المردد:

"لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت "

إنه إعلان من المصلي يؤكده في نفسه وهو يردده بين يدي ربه، ويعلن لربه خشوعه وخضوعه، ظاهرا وباطنا، سمعا وبصرا، ومخا وعظما وعصبا، مع استذكار جبروت الله وملكوته وكبريائه وعظمته.

وكما يذكر المصلي ربه راكعا فإنه يذكره رافعا،

والملاحظ أن الحركة الوحيدة التي ليس فيها تكبير هي الرفع من الركوع، إذا استثنينا التسليم . وقد تعددت الأذكار الواردة في الرفع من الركوع، وإن كان الشائع منها ما يستسهله الناس وهو:

"سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد أو: ربنا ولك الحمد" (متفق عليه)

وهناك زيادات واردة على هذا الدعاء ومنها:

"ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد" (رواه مسلم)

وفي رواية: "اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات والأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد" (رواه مسلم)

وفي رواية أن أحد الصحابة رضي الله عنهم قال بعد أن رفع من الركوع وهو يصلي مع النبي عليه وآله الصلاة والسلام:

"ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه "

فسأل النبي عليه وآله الصلاة والسلام عن القائل وقال له:

"رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول " (رواه البخاري)

وإذا وقفنا مع هذه الأذكار وجدنا أن قول:

"سمع الله لمن حمده "

فيه إخبار ببشارة: أن الله تعالى سمع حمد من حمده، وذلك يعني قبول الحمد وفوز العبد الحامد. وهذا إخبار عن حامد سابق مما يدفع المصلي الرافع الرأس من الركوع إلى حمد ربه طمعا في الفوز كما فاز السابق في الحمد. ولذلك يقول بعد: سمع الله لمن حمده: ربنا ولك الحمد "بصيغها المختلفة وزياداتها المتعددة. وفي هذه الصيغ تنوع في أساليب حمد الله تعالى بما يليق بنعمه التي لا تحصى، وبما يكافئ عطاءه، فلا يكتفي المصلي بقول: "ربنا ولك الحمد" فحسب، بل يسعى إلى أن يكون الحمد كثيرا، ولذلك جاءت صيغ مثل: "حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه"، فهو كثير بالكم، طيب في النوع، مبارك فيه، ينمو ويزداد بما يليق بجلال الله تعالى ونعمه التي لا تنتهي .

وإذا كان في هذا الحمد تعميم غير محدد فإن في الصيغ الأخرى لأذكار الرفع محاولة لزيادة هذا الحمد زيادة تلفت النظر، ومنها هذه الصيغة:

"اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات والأرض"

ولك أن تتصور سعة الأرض، أما سعة السماوات السبع فأمر يعجز الخيال البشري عن تصوره، وإن كان يتخيل مساحة هائلة تملأ بالحمد لله؛ استشعارا من العبد بعظيم النعم التي أسبغها عليه وعلى خلقه كافة.

وليس الحمد ملء السماوات وملء الأرض فحسب بل يأتي بعد ذلك ما يضاعف الحمد أضعافا لا حدود لها، ولا يعلمها إلا الله تعالى:

"وملء ما شئت من شيء بعد ".

وبعد هذا الحمد غير المحدود يأتي من العبد مدح لله تعالى، وبيان ما ينبغي أن يقوله العبد في حق ربه سبحانه:

" أهل الثناء والمجد "

أي المستحق للثناء، وصاحب المجد والعظمة، وهذا القول هو أحق

ما يقوله العبد في الثناء على ربه سبحانه، ويأتي الإقرار لله سبحانه بالعبودية، لاعبودية القائل وحده بل عبودية الجنس البشري كله: "وكلنا لك عبد".

في هذا الجو المليء بالحمد والإقرار به، يلهج لسان المصلي بما يظهر إيمانه بأن العطاء والمنع، والبسط والقبض بيد الله وحده، لا شريك له، ولا معقب لحكمه:

"اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت"

فهل يسأل العبد بعد هذا الإقرار غير ربه الذي بيده كل شيء؟

إنه إذا نال العطاء شكر، وإذا حصل المنع صبر، وعلم أن فيه الخير، فالله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

وينطلق اللسان بالإقرار بعظمة الله التي لا تقوم أمامها عظمة، فلا ينفع صاحب جاه ما هو فيه من مال أوقوة، أو ما يغتر به من متاع الدنيا، كل ذلك لا ينفعه ولا يحول بينه وبين قدر الله تعالى وقدرته عليه، لأن الله هو القوي العزيز،: "ولا ينفع ذا الجد منك الجد "

إن من المهم ونحن نردد أذكار الركوع وسواها من الأذكار في الصلاة أن يكون لها رصيد في عقولنا وقلوبنا وحياتنا، وألا يرددها اللسان بسرعة تفقدها معناها وتجعل أثرها سطحيا فلا نتدبر ما نقول ولا نستلهم ما في الدعاء من الأنوار.

سبحان ربي الأعلى

بعد أن يستوي المصلي رافعا من الركوع، ويذكر ما تيسر له مما يحفظه من أذكار الرفع، يخر ساجدا لربه سبحانه. وإذا كان الركوع موضع تعظيم لله تعالى بالانحناء وما يرافقه من أذكار، فإن في السجود مثل ذلك وزيادة عليه. ولذلك كان السجود من مواضع الدعاء المرجو الإجابة، وهذا ما يوضحه الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "فأما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء فإنه قمن أن يستجاب لكم".

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء"

في السجود تذلل لعلو الله تعالى يمثل أعلى درجات التذلل، وذلك ما لا يجوز لغير الله سبحانه، والسجود نفسه يحتاج إلى وقفة تدبر وتأمل في دلالته.

في السجود خضوع تام وانقياد ظاهر للرب سبحانه، وإحساس بقوة الرب وضعف العبد، وعزة الله وذل الإنسان، وقدرة الله وحاجة البشر وفقرهم وعجزهم.

هذا مما ينبغي أن تتنبه إليه ونحن نخر لله ساجدين.

وإذا كان الذكر الأساسي للركوع: "سبحان ربي العظيم" فإن الذكر الأساسي للسجود: "سبحان ربي الأعلى".

وكأن الركوع لعظمة الله والسجود لعلوه سبحانه.

ولنتذكر ونحن ساجدون (سورة الأعلى) التي افتتحت بتسبيح السجود، ولنستعرض بقلوبنا المعاني ذات الصلة بالسجود:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ

﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ [الأعلى: ١ - ٥].

إنك تقول: سبحان ربي الأعلى، ويجول القلب في الخلق الذي سواه ربنا، وفي الأقدار التي هدى إليها المخلوقات بالفطرة والتسخير، وفي المرعى الذي يملأ الأرض خضرة وجمالا ونفعا.

فإذا تجلى كل ذلك في قلوبنا وعقولنا، قلنا: "سبحان ربي الأعلى" بكل جارحة من جوارحنا وبكل ذرة في أجسادنا.

وقد ورد عن نبينا الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أدعية للسجود، وكثير منها شبيه بأذكار الركوع، ومنها الحديث المتفق عليه الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت:

"كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي"

وهذا التسبيح والتحميد والاستغفار مما يلهج به لسان المسلم في كل حين، فكيف وهو راكع خضوعا لعظمة الله، وساجد متذلل لعلو الله سبحانه؟

ومن الأذكار المشتركة بين الركوع والسجود ما ورد في صحيح مسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في بيان أذكار الركوع والسجود:

"سبوح قدوس رب الملائكة والروح"

و "سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة"

إن موقف الصلاة قياما وركوعا وسجودا هو موقف تسبيح وتحميد وتقديس للرب العظيم، العلي القوي القدير، وموقف استذكار لأسمائه الحسنى والاستمداد منها.

ومن أدعية السجود التي رواها مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها هذا الذكر، وهو دعاء يأتي بعد التسبيح والتحميد والتقديس:

"اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك "

إن المستعيذ يكون في موقف الخوف، فما الذي يتضمنه هذا الذكر؟

إنه الخوف من سخط الله تعالى وعقوبته.

وهل من الله تعالى ملجأ يحتمي به العبد إلا أن يلجأ إليه؟

فالملجأ من سخط الله هو رضاه عن عبده وتجاوزه عن سبب السخط.

والملجأ من عقوبة الله معافاته ومغفرة الذنوب المؤدية إلى العقوبة.

ولا ملجأ من الله إلا إليه، و لا حول ولا قوة إلا به، ولذلك يفر المرء إليه من نفسه التي بين جنبيه، ومن شيطانه: العدو المتربص به، ومن ذنوبه التي تسود وجهه، وتسقط منزلته عند خالقه ورازقه.

والله رب رحيم، عفو كريم، يقبل توبة التائبين، فهو الذي خلق الإنسان ويعلم ما فيه من ضعف؛ ولذلك فتح له باب التوبة والأوبة، والتطهر من الزلل .

والصلاة باب من هذه الأبواب يغتسل فيها، ويرقى في مدارجها، ويحلق في معارجها.

هذه الصفات الربانية التي تضمنها هذا الدعاء نعمة تستحق من العبد المزيد من الثناء على خالقه، لا بلسان العبد نفسه، فهو عاجز عن أن يفي ربه سبحانه حقه من الحمد والثناء، بل كما أثنى ربنا سبحانه على نفسه، في كتابه بألوان الحمد.

أولسنا في فاتحة الكتاب نحمد الله تعالى بما علمنا إياه من الحمد الذي هو أهل له؟

ومن أدعية السجود الواردة عن نبينا عليه وآله الصلاة والسلام ما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول:

"اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، وأوله وآخره، وعلانيته وسره"

وهذا من الاستغفارات الجامعة، وكذلك كان دأب النبي عليه وآله الصلاة والسلام في دعائه أنه يحب الأدعية الشاملة من جوامع الكلم.

إن من يدعو بهذا الاستغفار يطلب غفران ذنبه بكل تجلياته، فهو يطلب المغفرة الشاملة الكلية كما يطلب مغفرة الصغير والكبير من الذنوب، وما سبق وما لحق، وما كان سرا لم يطلع عليه أحد، وما كان

علانية أمام الخلق.

إن هذا الاستغفار يدلنا على خطر الذنوب على الإنسان، وعلى ضرورة السعي للتخلص منها بكل أشكالها وتجلياتها لأن الذنوب أوساخ، والاستغفار يطهر منها، فكما يحرص الإنسان على نظافة بدنه وثيابه من الأوساخ؛ عليه أن يكون حرصه على نظافة باطنه أشد.

ومن أدعية السجود هذا الذكر المتفق عليه:

"اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت"

إن من الملاحظ أن السجود من مواطن الاستغفار المفضلة، فهو موضع يرجى فيه القبول وإجابة الدعاء، والمسلم يستغفر من الذنب يكون منه كما يستغفر من التقصير يقع فيه، وهذا الدعاء جامع لأسباب الذنوب وألوانها التي قد يقع فيها وهي: الخطيئة والجهل والإسراف والجد والهزل، والخطأ والعمد، ويقع الذنب في السر كما يقع في العلن، ومن الذنوب ما هو قديم ومنها ما هو حادث، ومنها ما يذكره الإنسان ومنها ما ينساه، كل ذلك يقر به المصلي ساجدا لربه، معترفا له بالتقصير؛ في ذنب كان منه، أو غفلة عن حق ربه، أو نسيان لمتطلبات العبودية، والمسلم يعلم أنه لا إله له غير ربه؛ ولذلك يلجأ إليه معترفا بما كان، طالبا العفو والغفران.

ويظل السجود ملاذا للمسلم يلجأ إليه يسكب عبرات الندم على ما كان، ويستشعر معاني القرب من الرحيم الرحمن، أوليس العبد أقرب ما يكون إلى ربه وهو ساجد؟ إنه قرب الحب والخشية، قرب القلب المخبت المنيب، والعقل الواعي المتدبر لشأنه، المتفكر في آلاء ربه، المتأمل في أسماء الله وصفاته وتجلياتها في النفس والكون، ويظل باب الدعاء مفتوحا يعرض فيه العبد على ربه مطالبه يسأله أن يفيض عليه من خزائن رحمته.

فإذا رفع المصلي رأسه من السجود الأول ردد ما علمه إياه نبيه الحبيب من ذكر ما رواه أبوداود والترمذي وغيرهما عن حذيفة بن اليمان

رضي الله عنه وهو:

رب اغفر لي، رب اغفر لي.

وله أن يكرر هذا الاستغفار ما شاء، لأن كل حركة من حركات الصلاة محطة تفكر، وموقف تدبر، ومنهل يروي ظمأ العطاش.

ومما ورد من ذكر في هذا الموضع ما رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في روايته لصلاة النبي في الليل قوله عليه وآله الصلاة والسلام:

"رب اغفر لي، وارحمني، واجبرني، وارفعني، وارزقني، واهدني"

إنها أمهات المسائل التي تطلب: المغفرة والرحمة، والجبر: أي إصلاح الحال، لأن الجبر كون بعد الكسر الذي هو اضطراب الحال، ورفع الدرجة والرزق، والهداية.

الصلاة لو أحسنا التعامل معها جنة وارفة الظلال لا ينبغي أن نمر بها مسرعين.

التحيات لله

التشهد من أذكار الصلاة التي نرددها مرة واحدة في الصلاة الثنائية ومرتين في الصلاة الثلاثية والرباعية، ومع التشهد الأخير نردد الصلاة على النبي عليه وآله الصلاة والسلام، ولا يخفى أن للتشهد والصلاة الإبراهيمية أكثر من صيغة، ووقفتي ستكون مع صيغة واحدة لنقف على ما فيها من الأنوار التي علينا أن نفتح أعيننا عليها وقلوبنا لها.

الصيغة الشهيرة للتشهد هي:

التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"

إننا في الجلوس الأول وفي الجلوس الأخير نوجه التحية إلى ربنا الذي وقفنا بين يديه مصلين، وسبحناه وعظمناه ورجوناه ودعوناه، وسألناه من كل خير.

إننا في التشهد أمام أربعة مقاطع:

المقطع الأول: التحيات لله والصلوات والطيبات، قال ابن الأثير في كتاب النهاية في غريب الحديث: التحيات: جمع تحية، قيل: أراد بها السلام أي يقال لك حياك الله أي: سلم عليك، وقيل: التحية: الملك، وقيل: البقاء، ثم قال: قيل للمسلمين: قولوا: التحيات لله، أي الألفاظ التي تدل على السلام والملك والبقاء هي لله تعالى.

إن في توجيه التحيات إلى الله تعالى استشعارا مجددا للحضور بين يديه، فالمصلي يخاطب ربه سبحانه، ويوجه إليه الكلام، ولا يخفى أن على المصلي أن يستشعر هذا الإحساس في كل لحظة من لحظات الصلاة.

ومع التحيات لله: الصلوات وهي جمع صلاة، والصلاة بمعنى التعظيم والتكريم، قال ابن الأثير: وقوله: الصلوات لله: أي الأدعية التي يراد بها تعظيم الله، هو مستحقها، لا تليق بأحد سواه.

ولا يخفى أن الصلاة كلها تعظيم لله، وخضوع له وتذلل بين يديه،

وأما الطيبات فمعناها كما قال ابن الأثير الطيبات من الصلاة والدعاء والكلام مصروفات إلى الله تعالى.

إن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا: طيب الكلام وطيب النفقة وطيب العمل، وإنما يطيب العمل بكونه صالحا وبكونه خالص النية لله تعالى.

إنه موقف عظيم، ومشهد تحية وتكريم يستحضر فيه العبد وقوفه بين يدي ربه، ويستشعر كل ما يليق به من تحيات وصلوات وطيبات.

بعد هذا المقطع الذي خصص لله تعالى يأتي **المقطع الثاني**، وفيه التفات إلى النبي عليه وآله الصلاة والسلام: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

والتسليم كما يقول ابن الأثير مشتق من السلام اسم الله تعالى، لسلامته من العيب والنقص. وقيل معناه اسم السلام عليك، أي اسم الله عليك.

وهذا السلام الكامل المقرون بالرحمة والبركات فيه استحضار للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، وتذكر ما قاله عليه الصلاة والسلام من أن هناك ملائكة سيارين في الأرض يبلغون النبي عليه وآله الصلاة والسلام من أمته، وهذا السلام المباشر باستخدام ضمير المخاطب (عليك) يدل على القرب الذي يطوي الزمان والمكان، وفي هذا السلام إقرار من المصلي بفضل النبي عليه وآله الصلاة والسلام على أمته بما بلغها من رسالة وبما كان له عليها من حرص شديد.

وفي المقطع الثالث يلتفت المصلي إلى الصالحين من عباد الله ممن يشاركونه الإيمان فيسلم عليهم بعد أن يسلم على نفسه ومن حوله من عباد الله الصالحين، وفي هذا المشهد الذي يتجلى في التشهد تتجلى عظمة الله وجلاله بتقديم التحيات والصلوات والطيبات له، ويتجلى النبي الكريم في السلام عليه وكأنه معنا قريب نناديه، ويتجلى مشهد المؤمنين عبر الزمان والمكان وكل من يصلي يسلم على العباد الصالحين كلهم ليتجلى المفهوم الإسلامي للأمة بأنها أمة الإيمان التي تتجاوز المكان والزمان، ومما يلفت

النظر أن المصلي الذي يسلم في التشهد على عباد الله الصالحين قد يغفل عن السلام على عباد الله الذين يصلون عن يمينه ويساره، وقد تكون علاقته بهم علاقة نفور، فكيف يتفق هذا مع سلامه عليهم في صلاته؟

وفي **المقطع الرابع والأخير** يختم المصلي بخير الكلام: الشهادتين، مفتاح الجنة ومفتاح القبول في سفر السعادة، فبهما يقبل كل عمل صالح، ومن غيرهما يكون كل عمل هباء منثورا.

هذا هو التشهد الذي تجري به ألسنتنا وهي تعدو وقلما نتوقف عنده نستجلي أنواره، تدعونا الدنيا ومشاغلها، ويجعلنا نتجوز في الصلاة ما نسمعه من الفقهاء حول الحد الأدنى الذي به تقبل الصلاة ونغفل عن أن الصلاة جنة (بفتح الجيم) وجنة (بضم الجيم).

وأقول كلمة مهمة في هذا السياق: لو صلحت صلاتنا لصلحت حياتنا.

وبعد أن يردد المصلي التشهد في الجلوس الأخير يقرنه بالصلاة الإبراهيمية، وكما تعددت روايات التشهد تعددت كذلك صيغ الصلاة الإبراهيمية، وسأقف على الصيغة الشهيرة منها وهي:

"اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم

وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين

إنك حميد مجيد"

إن صلاتنا على رسولنا الكريم عليه وآله الصلاة والسلام هي استجابة لأمر ربنا سبحانه الذي قال معلما لنا ومبينا منزلة الرسول الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

والملاحظ في صيغة الصلاة على النبي عليه وآله الصلاة والسلام أننا لا نقول: نصلي ونسلم على محمد، بل نقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.

وقد قال ابن الأثير في تفسير هذه الصلاة: عظمه الله في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته وتضعيف أجره."

ومما قاله في تعليل دعائنا أن يصلي الله تعالى عليه بقولنا: اللهم صل على محمد:

"قيل المعنى: لما أمر الله سبحانه بالصلاة عليه ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك أحلناه على الله وقلنا: اللهم صل أنت على محمد لأنك أعلم بما يليق به".

والملاحظ أن الصلاة لم تقصر على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام بل دخل فيها (الآل) وقد بين ذلك النبي عليه وآله الصلاة والسلام حين سئل عن كيفية الصلاة عليه فقال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ..إلى نهاية الصلاة الإبراهيمية (انظر: صحيح الجامع الصغير الأحاديث من ٤٤١٤-٤٤١٧)

والآل فسرها النبي عليه وآله الصلاة والسلام في إحدى روايات الصلاة عليه بقوله: قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته والذرية هي التي تؤول إلى من تنتسب إليه فأبناء فاطمة عليها السلام هم آله، وأما أزواجه فهن من أهله، أي ممن أهل بيته، أي عمرنه بوجودهن فيه.

ويلفت النظر في الصيغ المختلفة أنها جاءت مقرونة بالصلاة على إبراهيم وآله، وهذا يذكرنا بما كان مع إبراهيم وزوجته حين جاءت الملائكة بالبشرى:

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ

مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ [هود: ٧١ - ٧٣].

وفي هذا إخبار ودعاء من الملائكة بصلاة الله ورحمته وبركاته على إبراهيم وآله، وهذا ما ندعو به لسيدنا محمد وآله لتكون صلاة الله تعالى عليه وعلى آله كصلاته سبحانه على إبراهيم وآله، ولا يخفى أن إبراهيم هو خليل الله وأبو الأنبياء وجدّ النبي عليه وآله الصلاة والسلام، ومنزلته العالية عند ربه هي التي جعلت صلاة الله عليه وعلى آله مقياسا نطلب تحقق مثله لنبينا محمد وآله عليهم الصلاة والسلام.

ومن الملاحظ في هذه الصلاة أننا نطلب البركة لمحمد وآله ليمتد ذكره في العالمين وينتشر دينه ويعرف حقيقته العالمون. ومن بركات هذه الصلاة انتشار آل بيت الرسول عليه وآله السلام وزيادة عددهم في كثير من بلاد الإسلام كانتشار آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

ونختم الصلاة الإبراهيمية بقولنا: إنك حميد مجيد، واسم الله الحميد هنا لا يدل على كون الله تعالى محمودا على كل حال فحسب بل يدل على كونه حامدا من يستحق الحمد من عباده، وأولاهم بذلك عبده ورسوله المسمى محمدا، عليه وآله الصلاة والسلام، فالله يحمد لعباده طاعته فيجزيهم عليها أحسن الجزاء.

والمجيد: المفضال، كثير الخير، كريم الفعال.

ونحن في موقف الصلاة على رسولنا الكريم، عليه وآله الصلاة والسلام، نستمد من اسم الله الحميد واسمه المجيد ليتحقق من الصلاة ما نريد.

أستغفر الله .. أستغفر الله

ينتقل المسلم بعد السلام من الصلاة التي هي ذكر إلى الذكر بعدها، فإذا كان في صلاته المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم قد ذكر ربه واقفا وراكعا وساجدا فإنه يتابع ذكر ربه بعد التسليم استجابة لأمر ربه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢]

ويفعل ذلك تبرؤا من حال المشركين الذين قال الله تعالى في وصفهم:

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]

وقد علمنا نبينا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام ما نذكر به ربنا سبحانه بعد الفراغ من الصلاة، وسأقف على ما تيسر منها عسى الله أن يجعلنا من الذاكرين له كثيرا.

روى مسلم في صحيحه عن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته "استغفر ثلاثا " وقال: "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام "قيل للأوزاعي وهو أحد رواة الحديث: كيف الاستغفار؟ ٌ: أستغفر الله، أستغفر الله.

كان المتوقع ممن يتم صلاته أن يقول بعد أدائها: الحمد لله، أو الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ولكن الذي علمنا إياه رسولنا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام كان غير ذلك، علمنا أن نستغفر الله ثلاثا، والأصل أن الاستغفار يكون بعد ذنب أو شعور بالتقصير، فما علاقة ذلك بالصلاة؟

لا يخفى أن الصلاة وقوف بين يدي الله تعالى، وأن لهذا الوقوف متطلبات يفترض أن يقوم بها المصلي، فهو ابتداء يقبل على الصلاة ببدن طاهر وثياب طاهرة، ويتحرى دخول الوقت، ويقبل على ربه سبحانه كما طلب منه في أحسن حال عملا بالآية الكريمة:

﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[الأعراف: ٣١].

ومع هذا نجد الاستغفار هو ما يبدأ به عند الفراغ من الصلاة؟

إن للوقوف بين يدي الله تعالى حقا عظيما يجب على المصلي الوفاء به؛ من حضور القلب وخشوع الجوارح؛ واستحضار القلب ما يجري به اللسان من المعاني؛ والتفكر والتدبر في كل ما يقول ويفعل؛ فإذا كبر ينبغي أن يصغر عنده كل شيء، وإذا سبح الله تعالى نزهه عن كل ما لا يليق به مما يخطر بالبال أو يلقيه الشيطان، أو تجري به ألسنة الجاهلين بقدر الله وعظمته، وإذا استغفر ربه استحضر ذنبه، وأحس بخطره عليه فلجأ إلى ربه سبحانه مستعيذا به من عاقبته.

وهكذا في كل ذكر وحال في الصلاة، أفيكون هذا من المصلي دائما أم أنه قد يسرح في صلاته فيشرد ذهنه إلى السوق أو مكان العمل، أو تقتحم عليه مشكلات الحياة محراب مصلاه، فإذا هو قد قرأ الفاتحة ولم يعقل منها شيئا، وقد يقضي صلاته ثم لا يذكر ماذا قرأ أو كم صلى، وكأن صلاته شريط تسجيل فارغ لم يلتقط من الصلاة إلا قليلا .

ألا يحدث هذا مع كثير منا؟ أولم ينبهنا الحبيب المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام، إلى أن المصلي يصلي صلاته وليس له منها إلا ربعها أو ثلثها أو نصفها؟

بعد هذا ألا يستحق هذا الحال من المصلي أن يجعل أول ما يردده لسانه بعد الفراغ من الصلاة أن يستغفر ربه طالبا منه العفو عنه أن سها ولم يحضر قلبه؟ طالبا منه قبول صلاته على ما كان منه معززا الأمر بمزيد من الذكر الذي يتقوى به في رحلته إلى الله؟

ومع الاستغفار يمجد المسلم اسم ربه السلام الذي يستمد منه السلامة والأمان في حياته، ويمجد ربه ذا الجلال والإكرام، تعظيما له.

ومن الأذكار التي وردت عن النبي الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام بعد الصلاة ما رواه الشيخان عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من صلاته قال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما

منعت ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد"

في هذا الذكر تجديد للتوحيد:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له" فالله هو وحده المعبود ولا شريك له في العبادة، وهذا القول يتطلب من القائل أن يدرك ذلك، وأن يؤدي متطلباته، من التوجه إليه بالعبادة ، والتقرب إليه بكل ما طلبه منه.

وفي هذا الذكر قصر للعبادة على الله تعالى وحده، فهو مالك السماوات والأرض ومن فيهن، وسيدهم وربهم، وخالقهم ومدبر أمورهم، والرقيب على كل شأن من شؤونهم.

وما دام له الملك ومنه العطاء فالحمد له وحده، فهو يستحق الحمد لأنه هو المنعم بكل ما لدينا من ظاهر النعم وباطنها، ولئن كان للنعم أدوات توصلها إلينا فإن المؤمن لا تحجبه هذه الأدوات عن المنعم الحقيقي، المستحق للحمد على الحقيقة.

وبعد تثبيت هذه الحقائق في القلب بجريانها على اللسان: التوحيد الخالص لله تعالى، والملك الحق لله وحده، والحمد المطلق له؛ بعد ذلك يردد اللسان حقيقة القدرة المطلقة لله الأحد الملك المحمود حق الحمد:

"وهو على كل شيء قدير"

وهذا القول يمثل إيمانه بطلاقة القدرة الإلهية، وفي هذا القول تحرير للعبد القائل من الوقوع في اليأس أو الإحساس بالضيق، فهو يردد هذا الذكر معلنا إيمانه بالله تعالى المتصف بهذه الصفات، والمتدبر في نفسه والناظر في ما حوله من جنبات الحياة والكون يدرك طلاقة القدرة الإلهية بما يراه من تدبير الله تعالى لأمر هذا الكون وما فيه ومن فيه، فيكون قوله إقرارا بحقيقة يدركها بحواسه، وهي مستقرة في عقله وقلبه وما دام الأمر كذلك: توحيدا وملكا وحمدا وقدرة، وهذه صفات لله تعالى يأتي من العبد المردد لهذا الذكر إقرار يمثل موقفا من هذه الصفات وهو إقرار يستشرف به مشهد الفعل الإلهي في الوجود إعطاء ومنعا:

"اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت "

أوليست الحياة كلها في كل أمر من أمورها عطاء ومنعا؟:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]

ويمتد العطاء والمنع، والإيتاء والنزع إلى المال والصحة والقوة والذرية والمنصب وكل شأن من شؤون الحياة، فالمؤمن الذي يردد هذا الذكر يكون مستشرفا لمشهد الكون كله وآثار القدرة الإلهية فيه.

ومن آثار الإيمان بالله إلها واحدا أحدا، ملكا للكون، محمودا بكل لسان، معطيا مانعا، من آثار ذلك ألا يكون لأحد في مواجهة قدرة الله تعالى مجال تأثير، فأمره جار على كل الخلق، لا يمنع ذلك جاه ولا سلطان:

"ولا ينفع ذا الجد منك الجد "

والجد: العظمة والجاه والسلطان، فكل الخلق أيا كان موقعهم عبيد لله، تجري عليهم أقداره، ولا يحول بينها وبينهم جاه ولا مال ولا موقع ولا سلطان.

هذه بعض تجليات هذا الذكر العظيم:

"لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد"

السلام وما قبله من أذكار

علمنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام أن نبدأ صلاتنا بعد التكبير بدعاء الاستفتاح، وكذلك أرشدنا أن نختم صلاتنا بأدعية قبل التسليم فإنه من مواضع الدعاء المرجوة القبول.

وقد ورد في حديث علمه النبي عليه وآله الصلاة والسلام أصحابه رضي الله عنهم ماذا يقولون قبل السلام من التشهد والصلاة الإبراهيمية ثم قال في ما ورد في الصحيحين:

"ثم تخير من الدعاء أعجبه إليه"

(أي ما يناسب حاله الذي هو فيه فلكل حال دعاء خاص إلى جانب الدعاء العام) وفي رواية لمسلم "ثم ليتخير من المسألة ما شاء" (والمسألة هنا: الدعاء)

وقد سأل النبي عليه وآله الصلاة والسلام أحد أصحابه:

"كيف تقول في الصلاة؟"

فأجابه عما سأله عنه فقال:

"أتشهد وأقول: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار "

ثم عقب ذلك الصحابي على ما كان يجد من النبي عليه وآله الصلاة والسلام

"أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ " فأجابه النبي عليه وآله الصلاة والسلام: "حولها ندندن " (رواه أبو داود)

وهذا يدل على أن مما يدعى به في هذا الموضع: سؤال الجنة والاستعاذة من النار إلى جانب ما يكون للمرء من حاجة

وقد وردت أدعية محددة عن رسولنا عليه وآله الصلاة والسلام منها هذا الحديث المتفق عليه، وهذه رواية مسلم:

"إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر المسيح الدجال"

وهذه أمور أربعة خطيرة **أولها:** عذاب جهنم، وجهنم شر دار وشر مأوى، من دخلها هلك، ومن زحزح عنها فاز، (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) ولذلك كانت أول أمر يستعاذ بالله منه.

والأمر **الثاني:** عذاب القبر، والقبر أول منازل الآخرة وهو بوابة عالم البرزخ، وللمؤمن فيه ألوان من النعيم ن وللكافر لون من ألوان العذاب ولذلك جاءت الاستعاذة من القبر أن يكون بوابة إلى العذاب.

والأمر **الثالث:** المستعاذ منه: هو فتنة المحيا الممات، وأما فتنة المحيا فما يلقاه المؤمن في الدنيا من الصوارف عن الحق التي بها تزيغ القلوب ويمتحن الإيمان، فمن ثبت على الحق نال الأجر، ومن زلت به القدم وأحاطت به الخطيئة هلك، وما دام الإنسان حيا فالفتن تعرض له نفسها في أشكال فتانة غرارة، والمعصوم من عصمه الله،

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] ،

وفتنة الممات هي ختام فتن الدنيا وذلك ما يكون من الشيطان عند لحظة الوفاة من اجتهاد ليختم الإنسان حياته بالشر الذي يرديه، ليموت على غير الحق.

والفتنة **الرابعة** هي: فتنة المسح الدجال، وهي فتنة لم يدركها السابقون، ولم ندركها نحن بعد، وتكون من أشد الفتن قبل قيام الساعة، والاستعاذة منها عبر العصور كلها علامة على شدة خطرها، فإذا كان من لم يشهدها يستعيذ بالله منها فكيف يكون حال من يواجهها؟ وفي الدجال أحاديث كثيرة صحت عن النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

ما أعظمها من أدعية هي استعاذات وتحصين من الشرور الأساسية في الدنيا والآخرة، وما أعظم حظ من استجاب الله تعالى دعاءه.

ومن الأدعية المأثورة قبل التسليم هذا الاستغفار الشامل من كل ذنب:

"اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت".

إنه الوقوف موقف العبودية الشامل أمام الرب القادر، موقف الضراعة والتسليم، والإقرار بالذنب: ذنب الخطيئة، وذنب التقصير في القيام بحق العبودية، والغفلة عن الآيات التي تحيط بنا من كل جانب ومن غفر له فقد تطهر من ظلمات الذنب، وغمرات الغفلة ونال ألنور الذي يسعى بين يديه وبيمينه يوم القيامة.

وقريب من هذا الاستغفار الشامل ما علمه النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام لأبي بكر رضي الله عنه أن يقوله في صلاته:

"اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم (رواه الشيخان)

ومن علم أن له ربا يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنب والتجأ إلى حماه عصمه ونجاه.

وبعد الانتهاء من الأذكار التي تسبق السلام يقول المصلي: السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه وشماله، فما دلالة هذا السلام؟ وأين يقع السلام في حياة المسلم؟

إننا نقول: "السلام عليكم ورحمة الله في ختام صلاتنا ولو كنا نصلي منفردين كما نقولها ونحن نصلي جماعة، فمن المخاطب بهذا السلام؟ أهم الملائكة الكرام الذين يحضرون الصلاة؟وإذا كنا جماعة فهل من المخاطبين من هم عن يميننا وشمالنا من المصلين؟ أم ترانا نستحضر في هذا التسليم من سلمنا عليهم من عباد الله الصالحين عبر الزمان والمكان ليشمل هذا السلام من كان من الصالحين في عالم الغيب والشهادة؟

إن السلام هو شعار المسلم في حياته وهو التحية التي نتداولها في ما بيننا، إننا ونحن نلقي السلام أو نطلبه أو ندعو به فإننا نطلب حالة من الأمن والسلام: وهو سلام في النفس والحياة، في حياة الفرد وحياة الجماعة، بل سلام يعم الأرض جميعا، ولذلك نجد أننا نطلب السلام بعد الصلاة في ذكر كريم بقولنا:

اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام" (رواه مسلم)

وهذا الذكر أو شبيه به وارد عند دخول المسجد الحرام، ومن ذلك ما ورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا دخل مسجد الكعبة قال:

"اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام"

ومثل ذلك ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وللسلام باعتباره ذكرا، وباعتباره تحية منزلة كبيرة في حياة المسلم، فهو ذكر يتردد على لسانه إذا لقي إخوانه، فتحية الإسلام هي السلام بصيغه المختلفة، موجزة كانت أو مفصلة: السلام عليكم، السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وكل صيغة من هذه الصيغ بحاجة إلى وقفة تأمل: فالصيغة الأولى مقصورة على السلام، والصيغة الثانية فيها: رحمة الله، والثالثة أضيف إلى السلام والرحمة البركات، وفي كل من السلام والرحمة والبركات ما فيها من خير الظاهر والباطن، خير الدنيا والآخرة، إضافة إلى ما تشيعه هذه التحية من روح الأخوة والمودة والمحبة والأمان، وما تتضمنه من تمني الرحمة والبركة إلى من يتلقاه، وذكر السلام وإفشاؤه من وسائل التحاب بين الناس، فالسلام وسيلة التحاب والتحاب من أسباب دخول الجنة، التي لا بد منها: يدلنا على ذلك هذا الحديث الشريف الذي رواه مسلم وغيره:

"لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"

ما أعظمها من ثمرة لإفشاء السلام الذي هو ذكر اسم الله السلام، وإشاعة لروح السلام بين الناس وفي الحياة كلها، وإن السلام الذي نختم به صلاتنا هو تحية المؤمنين يوم يلقون ربهم سبحانه:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]

وهو تحية الملائكة للمؤمنين في الجنة:

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾

[الرعد: ٢٣ - ٢٤].

والسلام ذكر دائم على لسان المسلم حتى لو دخل بيتا خاليا فإنه يسلم على نفسه وعلى عباد الله الصالحين من الملائكة الحاضرين ومن عباد الله أجمعين:

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ﴾ [النور: ٦١].

اللهم أعنا على ذكرك

من الأذكار التي علمنا إياها حبيبنا المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام لنقولها بعد الصلاة هذا الذكر الذي رواه عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي أخبرنا أن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام أخذ بيده وقال له: يا معاذ، والله إني لأحبك، وقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" (رواه أبو داود بإسناد صحيح) .

ما أعظمه من حديث، وما أجمله من ذكر، جاء في هذا الموقف الحميم من رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام تجاه أحد أصحابه، اخذ بيده، وفي هذا ملامسة بين المتحدث والسامع، وفيها إيصال لشحنة الحب الذي جرى به لسان النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام، وفي ذلك من المودة والمحبة والتواصل ما فيه مع تصريح يتمناه كل مسلم أن ينال منزلة في قلب رسول الله وحبيبه محمد عليه وآله الصلاة والسلام، أي نور ملأ قلبك يا معاذ؟

وأي موجة عاطفة طغت على قلبك وكيانك وأنت تسمع حبيب الله محمدا عليه وآله الصلاة والسلام يقول لك: "يا معاذ، والله إني لأحبك"؛ يناديك باسمك، ويقسم على حبه لك؟

الله الله، ما أعظمه من موقف**!** موقف إعلان حب النبي عليه وآله الصلاة والسلام لك،

ومن آثار هذا الحب هذه الوصية العظيمة التي أرجو أن ينال من فعلها اتباعا لأمر النبي عليه وآله الصلاة والسلام منزلة في قلب حبيبنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، ليقول مخاطبا إياه: يا رسول الله لقد أهديت معاذا هذه الوصية، وكانت من ثمرات حبك له، ونحن نعمل بها طمعا في نيل حبك لنا.

"لا تدعن في دبر كل صلاة تقول": لقد حدد الموقع الذي يقال فيه هذا الذكر، وهو دبر كل صلاة، أي بعد التسليم مما يجري به اللسان من ذكر،

وماذا في هذا الذكر:

"اللهم أعني على ذكرك": إن ما يطلب فيه العون من الله تعالى لأمر عظيم، والمطلوب هو العون على ذكر الله تعالى، والعون يأتي بتذكر حق الله تعالى، وإبصار آياته، وشق حجاب الغفلة الذي يحجب العبد عن ربه وعن كل ما يذكره به.

وإذا كان الشاعر الحكيم يقول:

ألا عجبا كيف يعصي الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

فإن لنا أن نقول: كيف نغفل عن ذكر ربنا ونحن وكل ما حولنا هو له وهو منه ويدل عليه؟

إنه الانشغال بالشيء عن موجده، وبالسطح عن الأعماق، وبالظواهر عن الحقائق،

ولذلك كان هدي نبينا عليه وآله الصلاة والسلام ذكر الله تعالى في كل حال، ومن اتبع ذلك الهدي كان من الذاكرين.

ومع طلب العون من الله تعالى على ذكره، يأتي طلب العون على شكره: "وشكرك": والشكر إنما يكون على نعمة، ويكون بعد إدراك النعمة وعظمها وآثارها، وإدراك أنها من الله تعالى.

وكم نغفل عن شكر الله تعالى في مواقف نرى فيها أدوات إيصال النعم وننسى مرسلها!! فيكون حالنا، وأستمد هذه الصورة من بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله في الكلمة الأولى من كتاب الكلمات، كحال من يشكر حامل الهدية الذي يوصلها إليه ويغفل عن شكر من أرسلها إليه!!

ويأتي الأمر الثالث الذي يطلب فيه العون من الله تعالى: "وحسن عبادتك": إن الله تعالى يحب الإحسان في كل شيء، ويحب المحسنين الذي يتقنون كل ما يقومون به، وأولى ما يستحق الإحسان والإتقان العبادة، أن تؤدى على ما يحب الله تعالى ويرضى؛ من الإقبال فيها عليه، وحضور القلب بين يديه، والتفكر في ما يجري به اللسان، ليكون له رصيد في القلب

والعقل والحياة.

"اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" وصية غالية ما أحرانا أن نداوم عليها بعد كل صلاة .

ومن أذكار ما بعد الصلاة ما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه كان يقول: دبر كل صلاة مكتوبة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون" قال ابن الزبير: وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة.

إن من الملاحظ تكرار جزء من هذا الذكر في أكثر من موضع في الصلاة وخارجها وهو قول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وهو ذكر يغرس في قلب قائله معنى التوحيد الخالص: ألوهية وربوبية، وطلاقة قدرة الله في هذا الوجود؛ فلا إله غير الله، والملك الحقيقي له، والحمد الحقيقي له وحده، فمنه كل فضل، وعنده خزائن كل شيء، ولا يعجز الله شيء؛ فهو على كل شيء قدير.

ومع هذا الافتتاح في هذا الذكر يأتي قول: "لا حول ولا قوة إلا بالله": وفيه إقرار بأن الحول: أي الحركة والسعي في الأرض من الله تعالى الذي جعل الإنسان كائنا متحركا، فمنحه من تصميم الجسم ما يجعله قادرا على المشي المستقيم، وعلى القيام والقعود، وبهذا الحول أو الحركة يقضي أشغاله، ويحقق غاية وجوده بعمارة الأرض وعبادة الله تعالى في الأرض.

ولا يخفى أن الحركة تحتاج إلى طاقة تعين عليها وهي التي عبر عنها هذا الذكر بكلمة: قوة، وإذا أخذنا السيارة مثلا وجدنا أن القوة هي الوقود الذي يمدها بالحركة، وتكون قادرة عليها.

ولا حول ولا قوة إلا بالله ذكر عظيم يدلنا على ذلك الحديث المتفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: "ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله."

وإذا كان الإنسان يستمد من كنوز الدنيا ما تقوم به حياته المادية فإن هذا الذكر كنز يستمد الإنسان من خلاله الصلة بالله تعالى ويستنزل به الحول والقوة من خزائن ربه.

ومن الناس من يخلط بين هذا الذكر بذكر آخر يقال عند المصيبة هو ما علمنا إياه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]

ومن الملاحظ أن بعض الناس يستخدم هذا الذكر مقطوعا غير تام بقول: لا حول الله، أو غير ذلك من الصيغ الناقصة، والأصل أن يقوله كاملا لينال بركته.

ومن تتمة هذا الذكر الذي رواه ابن الزبير قول:

"لا إله إلا الله و لا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن."

إنه تكرار يؤدي إلى تثبيت فكرة التوحيد بقول: لا إله إلا الله، وتخصيص الله تعالى بالعبادة: "ولا نعبد إلا إياه"، وإقرار لله تعالى بأن ما نحن فيه من النعم وما نحن فيه من الفضل الزائد عن حاجاتنا هو منه سبحانه: "له النعمة وله الفضل".

والنعمة والفضل يقتضيان من العبد أن يعرف حق المنعم فيذكره ويشكره ويثني عليه بلسان الحال ولسان المقال.

ويأتي المقطع الأخير: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

إن التوحيد بقول: "لا إله إلا الله"، لازمة ترافق المسلم في كل لحظة من لحظات حياته، ومع التوحيد إعلان الإخلاص في الدين لله وحده، وإخلاص الدين يعني الطاعة لله تعالى وحده، وتوجه النية إليه وحده؛ لأن من المعلوم أن من خلط النية فسد عمله، وفي الإخلاص لإفراد لله تعالى بالتوجه بالعمل وعدم اتخاذ الشركاء، وكثيرة هي الآيات التي حضت على الإخلاص ومنها قوله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾

وختام الذكر قول: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الذين يكرهون التوحيد وأهله ويسعون إلى صرفهم عن الصراط المستقيم، ونستذكر هنا سورة "الكافرون" التي نرددها كثيرا في صلواتنا ونربطها بهذا الذكر الذي نردده بعد الصلاة.

المعوذات

من الأذكار التي علمنا إياها رسولنا الحبيب عليه الصلاة والسلام بعد الصلاة: المعوذات .وهي تشمل: سورة الإخلاص وسورة الفلق وسورة الناس.

قال عقبة بن عامر رضي الله عنه: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة. وفي رواية بالمعوذتين. رواه أبوداود (١٥٢٣) الترمذي (٢٩٠٣) والنسائي (١٣٣٦) وصححه الألباني.

فأما سورة الإخلاص فهي تحدثنا عن أخطر قضية في حياة الإنسان وهي قضية التوحيد، هذه القضية التي تعرضت عبر مسيرة البشر للتحريف ودخلها من أهواء البشر وتخيلاتهم ما جعل تصور كثير من البشر لله تعالى غير صحيح، وضل الناس بين تجسيم لله تعالى، وتصوير له، وجعل بعض الناس له ولدا، وجعل آخرون له شركاء في خلقه وملكه، ومن الناس من جعل إلهه بعض مظاهر الطبيعة من شمس أو قمر أو كوكب.

وقضية التوحيد هي أساس الدين، ومن أجلها بعث الله النبيين، وقراءة سورة الإخلاص من أذكار ما بعد الصلاة، ولقراءتها أثر مهم في النفس بتثبيت معانيها في القلب والعقل.

إنك وأنت تقرأ سورة الإخلاص بتدبر تستحضر كل الشبهات التي أثارها الضالون عن التوحيد، أولئك الذين لم يعرفوا الإله الحق.

ابتداء تقرر السورة أحدية الله تعالى بتعليم المسلم ما يقوله بحق ربه:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾

فهو أحد لا ثاني له لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ فهو مقصود من خلقه بالحاجات كلها، لأنه لا رب

لها سواه، هم يحتاجونه، ولا يحتاج أيا منهم.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

في هذا الإيجاز المعجز بيان للاحتمالات المختلفة في هذا الشأن، فهو لم يلد، فليس لأحد أن يزعم أنه ولد لله تعالى، ولم يولد، فليس لله تعالى والد، وفي هذا البيان الوافي الشافي نفي للبنوة أو الأبوة عن الله تعالى لأنه الله الذي لا إله إلا هو.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

وكما أن الله تعالى لا ولد له، ولا والد له، فكذلك سبحانه لا ند له، لأنه لا إله غيره، ولا رب سواه فأنى يكون له كفو؟

هذه السورة التي نخلص بها توحيدنا ونحن نرددها، ونجدد إيماننا بالله الواحد الأحد، نفعل ذلك عقب كل صلاة، فما لنا من الأجر ونحن نفعل ذلك؟

أخبرنا الحبيب المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام أن لقارئها من الأجر ما يعدل ثلث القرآن الكريم، ولنستمع إلى هذا البيان النبوي بشأنها: روى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: قل هو الله أحد ثلث القرآن، "وفي رواية: "إن الله عز وجل جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءا من أجزاء القرآن "

لقد حرص النبي عليه وآله الصلاة والسلام على أن ننال الأجر بتلاوة القرآن فمن لم يستطع قراءة صفحات كثيرة منه فها هو ثلث القرآن بين يديه فليردده وليكسب من الأجر ما شاء.

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "احشدوا (أي اجتمعوا) فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد ثم خرج النبي ﷺ فقرأ قل هو الله أحد، ثم دخل فقال بعضنا لبعض: إنا نرى هذا خبرا جاء من السماء فذلك الذي أدخله، ثم خرج النبي ﷺ فقال: إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن"

وحب هذه السورة، سورة التوحيد الخالص التي سميت سورة الإخلاص، هذا الحب سبب من أسباب دخول الجنة؛ يدلنا على ذلك هذا الحديث الشريف، بعث النبي عليه وآله الصلاة والسلام رجلا من أصحابه على سرية كان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال:" سلوه لأي شيء يصنع هذا؟ فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: أخبره أن الله يحبه ". وفي رواية لأحمد "أن من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرا في الجنة."

إنها من أقصر سور القرآن، ولكن لها هذا الفضل العظيم، ولذلك ما أحرانا أن نرددها في كل حين، وأن نتبع الهدي النبوي بقراءتها عقب الصلوات الخمس ضمن أذكار ما بعد الصلاة.

ومن أذكار ما بعد الصلاة قراءة المعوذتين اللتين ختم بهما القرآن الكريم وفي هذا الختام دلالة مهمة علينا الالتفات إليها، هي مقدار ما في المخلوقات من الشر الذي علينا أن نتقيه باللجوء إلى ربنا ورب هذه المخلوقات.

ولنقف على سورة الفلق: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفَلَق: ١ - ٥]

إن فيها استعاذة برب الفلق، أي الصبح، بما فيه من نور ووضوح من شر الخلق كلهم، حيهم وجمادهم، وما كان من المكلفين من ظلم وبغي، وقتل وضرب وشتم، وأي لون من ألوان الشر، وما كان من غير المكلفين من المخلوقين من الحشرات والدواب والسباع وغيرها، هذا كله مكتنز في قوله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾، لأنه يشمل المخلوقات كلها.

وفي هذه السورة استعاذة من الليل وشروره، ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، ففي

الليل تحاك المؤامرات، وتدبر المكائد وتنفذ الجرائم، وفي جو العتمة والظلمة تأتي الاستعاذة من ﴿شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ أي السحر، وهو يتم في أجواء من الغموض والظلمة، ظلمة النفس والمكان، وظلمة النوايا الشريرة التي تسعى إلى إيقاع الأذى بالناس، وفي الجو نفسه، جو الشر تأتي الاستعاذة من ﴿شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحسد ظلمة في النفس تضيق بما يصيب الناس من النعم فتسعى إلى إفسادها وتتمنى زوالها.

إنه جو قاتم هذا الذي تصوره هذه السورة ولكنه ينفرج باللجوء إلى الله تعالى خالق كل شيء والقادر على كل شيء، إنها سورة فيها بيان لجانب من هذا الوجود وبيان لكيفية النجاة من شروره.

وهذه السورة من أذكار ما بعد الصلاة، وإنها لمعاذ المسلم حين يخاف من شر كل ذي شر.

والمعوذة الأخيرة هي: سورة الناس، وإذا كانت الاستعاذة في سورة الفلق من شر كل ما خلق الله تعالى إجمالا ثم تفصيلا لبعض أصحاب الشرور، فنحن هنا في سورة الناس في موقف استعاذة ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

إنها استعاذة من الوسواس بالشر الداعي إلى الانحراف عن طريق الحق والصراط المستقيم.

ولعل ما يلفت النظر هذه الصفات الربانية المستعاذ بالله منها: الرب والملك والإله، ليقر في نفس المسلم أنه لا رب سوى الله، ولا ملك في الحقيقة في الوجود سوى الله، ولا إله للناس غير الله، فهو حين يلجأ إليه يأوي إلى ركن شديد، ويستعيذ بمن يلقي عليه الأمن في نفسه وفي أهله وماله.

هاتان المعوذتان لهما من الفضل الشيء الكثير مما جعل النبي عليه وآله الصلاة والسلام يوصي المسلم بقراءتهما بعد الصلاة وفي كل حال.

روى مسلم في صحيحه حديث عقبة بن عامر أنه قال قال رسول الله ﷺ: "ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط، قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس."

إن سورة الإخلاص تعويذة من الشرك بإخلاص التوحيد، وسورتا: الفلق والناس تعويذتان من الشرور كلها، ولذلك كان حرص نبينا عليه وآله الصلاة والسلام على تعليمنا قراءتها بعد كل صلاة بل في كل حين.

معقبات لا يخيب قائلهن

تعددت الأذكار الواردة عن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعد الصلاة، وقد يضيق وقت بعض الناس عن استيعابها كما قد تضيق ذاكرة بعض الناس عن حفظها، ولذلك يختار منها أهمها، وكلها مهم.

ومن الأذكار الواردة بعد الصلاة هذا الذكر الذي قدمه النبي عليه وآله الصلاة والسلام لفقراء المسلمين ليكون بديلا عن المال الذي ينفقه الأغنياء.

ولنقف على الذكر وقصته: روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه "أن ألفقراء المهاجرين أتوا رسول الله فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال: يحجون بها ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدقون. فقال: ألا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، و لا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين"

وفي رواية في صحيح مسلم: "معقبات لا يخيب قائلهن أو فاعلهن دبر كل صلاة مكتوبة: ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة ".

وفي رواية أخرى لمسلم: "من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، وحمد الله ثلاثا وثلاثين، وكبر الله ثلاثا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر. "

إننا أمام ذكر يتكرر بعد كل صلاة مكتوبة وله فضائل متعددة تعدد الأحاديث التي أوردتها في الروايات المختلفة .

الذكر هو تسبيح وتحميد وتهليل،
والعدد هو: ثلاث وثلاثون مرة،
وفي رواية يكون التكبير أربعا وثلاثين مرة،
والثمرات الناتجة عن هذا الذكر متنوعة،
ففي رواية كان الذكر معادلا لإنفاق المال،
وفي رواية الثمرة مغفرة الخطايا وإن كانت مثل زبد البحر.

فأما معادلة الذكر لإنفاق المال وتفوقه عليه فله شواهد منها الحديث الذي رواه ابن ماجه بسند صحيح عن رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام أنه قال: "ألا أدلكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا بلى، قال: ذكر الله"

فالذكر ليس كلمات تقال، ولا ألفاظا تردد، بل هو استثمار للوقت يفوق إنفاق المال، و لا يقل عن الجهاد في سبيل الله أجرا؛ لأن الذكر باعث على كل خير، فالمنفق إنما ينفقه حين يذكر ربه، والمجاهد إنما يعجل إلى لقاء ربه ويقوم لنصرة دينه وهو ذاكر لربه، ومحب للقائه وناصر لدينه.

إن حرص نبينا الكريم عليه وآله الصلاة والسلام على أن نردد هذه الأذكار: سبحان الله والحمد لله والله أكبر، برواياتها المختلفة، إنما يدل على أهميتها، إنها من الباقيات الصالحات، إنها من أحب الكلام إلى الله تعالى.

إن في التسبيح تطهيرا للعبد من الذنوب، وتنزيها للرب من كل نقص يخطر ببال الخلق أو ينسبه إليه الجاهلون بقدره، وفي التسبيح تشبه بالملائكة الكرام الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

وفي الحمد استحضار لنعم الله تعالى الكثيرة علينا، وإحساس بها، وشكر لله تعالى المنعم بها، وفي هذا الحمد استنزال للمزيد من النعم، لأن من شكر الله تعالى زاده من نعمه،

وفي التكبير تثبيت لحقيقة مهمة هي إدراك أن كل ما في الوجود مخلوق لله تعالى، وأنه في قبضته وهيمنه، فالله أكبر من كل شيء، فلا يعظم في قلب المؤمن شيء، و لا يعسر عليه شيء، و لا ييأس من أن ينال

ما يسعى إليه، لأنه يتوكل على الله العلي الكبير.

إننا نردد هذه الأذكار خمس مرات في اليوم والليلة لتظل في كل أحوالنا على صلة بربنا سبحانه وتعالى.

إن هذا الذكر النبوي تتجلى فيه رحمة نبينا بنا؛ حيث جعلنا نذكر ما ننال به ما لا يعلم إلا الله تعالى من الحسنات. وما أجمل هذا العلاج النبوي للعجز الذي يصيبنا أحيانا فنقصر في حق أنفسنا، قال رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام: "أيعجز أحدكم أن يكسب في يوم ألف حسنة؟ فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: يسبح مئة تسبيحة فتكتب له ألف حسنة أو تحط عنه ألف خطيئة"

فلننظر كم حسنة نكسب ونحن نذكر الله تعالى بعد كل صلاة تسبيحا وتحميدا وتكبيرا ونختم بالتهليل؟ إنها آلاف الحسنات تكتب وآلاف الخطايا تمسح.

إن من منهج النبي عليه الصلاة والسلام أن يبين أجر ما يطلب منا من أعمال ليكون حافزا للمؤمن للإقبال عليه، فنفوس البشر جبلت على الإقبال على ما تعرف نتيجته، وقد رأينا هذا في بعض ما سبق من الأذكار، وهذا هو المنهج الرباني في القرآن الكريم الذي نادى عباده إلى جنة عرضها السماوات والأرض، ودعاهم إلى التجارة معه ووعدهم بمضاعفة الأجور أضعافا كثيرة.

وها هو نبينا الحبيب ﷺ حين يحثنا على قراءة آية الكرسي بعد كل صلاة يبين لنا أجر تلك القراءة. في الحديث الصحيح الذي رواه النسائي وابن حبان عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت".

ما أعظمه من أجر لعمل هين هو قراءة هذه الآية العظيمة بعد كل صلاة، وما أكرمها من عاقبة لعمل لا يأخذ إلا وقتا قليلا، والأمر يدعونا إلى التفكر والتدبر في هذه الآية العظيمة التي لها هذا الأجر الجزيل، وما لنا لا نفعل ذلك وهي كما أخبرنا نبينا أعظم آية في كتاب الله؟ ففي الحديث الصحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ فضرب في صدري وقال: والله ليهنك العلم يا أبا المنذر ".

ومن فضل هذه الآية أنها تحمي قارئها من الشيطان الرجيم، وهي من أذكار النوم التي يقولها المسلم حين يأوي إلى فراشه.

إن عظم هذه الآية جاء من كونها تتحدث عن ربنا سبحانه وتعالى.

وقد ذكر ابن كثير أنها تشتمل على عشر جمل مستقلة، كل جملة تقدم لنا صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، ومن المهم ونحن نقرأ هذه الآية أن نقف عند هذه الصفات ونتدبرها، ونرى آثارها في حياتنا، ونستشرف منها ما يكون في عالم الغيب .

وهذه الجمل هي:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: فالله هو المتفرد بالألوهية لجميع الخلائق، فلا إله غيره، وهذا ما بعث الله تعالى الرسول لدعوة الخلق إليه ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾.

﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾: فهو حي لا يموت أبدا، والإنس والجن يموتون، بل هو مصدر الحياة لكل الأحياء، وهو القيوم: الذي تفتقر إليه جميع الموجودات وهو غني عنها، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، والمدبر لأمر الكائنات كلها، لا يغفل عن حاجة من حاجاتها أو أمر من أمورها.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾: والسنة هي درجة من درجات النوم، فلا يعتريه سبحانه ما يعتري الخلق من الحاجة إلى الراحة بالإخلاد إلى النوم، وفي النوم يغفل النائم عما حوله، ولا يدري ما يكون بعد نومه، والله تعالى قيوم السماوات والأرض منزه عن ذلك.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾: فكل ما في السماوات والأرض خلق من خلقه، وعبيد له، وفي ملكه وتحت سطوته وقهره

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾: وهذا من عظمة الله سبحانه وجلاله وكبريائه، فلا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه، فالشافع والمشفوع له عبيده وتحت جلال عظمته.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾: فعلمه محيط بالكائنات كلها، ما كان منها وما سيكون، لا يخفى عليه من أمر خلقه شيء.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ : فهو العليم الحكيم الذي يعلّم من عباده من شاء ما شاء، بل هو الذي علم الكائنات ما لديها من علم، ومن اسمه العليم يستمد الخلائق علمهم

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾: فالسماوات والأرض أصغر من الكرسي، وقد حدثتنا هذه الآية عن الكرسي، وحدثتنا آيات أخرى عن العرش، وذلك من أمر الغيب الذي لا يحيط العقل به.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾: فلا يثقل عليه سبحانه حفظ السماوات والأرض من الاختلال والزوال، فبأمره قامتا، وبأمره تكون الساعة، وهو مدبر شؤون المخلوقات كلها في السماوات والأرض، لا يشغله شيء عن شيء يجيب كل داع، ويلبي حاجة كل محتاج.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ الكبير المتعال الذي لا يحيط بصفاته الواصفون، ولا تدركه الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

هذا بعض شأن آية الكرسي والمعقبات التي نقولها بعد الصلاة ولا يخيب قائلها.

اهدنا في من هديت

دعاء القنوت ذكر من أذكار الصلاة، ولا يهمني في الحديث عنه الخلاف الفقهي في موضعه: في صلاة الفجر أو في صلاة الوتر، بل ما يهمني هو الوقوف عند أنواره، وتدبر معانيه

ومن معاني القنوت الخشوع، ولعل هذا هو المعنى المراد عند قولنا: دعاء القنوت.

وللقنوت دعاءان مشهوران الأول رواه الترمذي وغيره وصححه أهل الحديث، وهو مروي عن سبط النبي عليه وآله الصلاة والسلام: الحسن بن علي رضي الله عنهما، قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: "اللهم اهدني في من هديت، وعافني في من عافيت، وتولني في من توليت، وبارك لي في ما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت ".

وكم أجد في هذا الدعاء من جمع لكل خير ودفع لكل شر، وما أجمله من دعاء يصلح لكل وقت، وذلك حين نجد من أنفسنا إقبالا على ربنا، وخشوعا في قلوبنا، وأدمع الضراعة في عيوننا، لنطلب منه ما نرجو، ونستعيذ به مما نخشى .

ولنقف على مكونات الدعاء:

يتكون هذا الدعاء من مقطعين: الأول فيه دعاء بطلب أمور، والآخر فيه تعظيم لله تعالى.

أما الأمور المطلوبة فمنها:

الهداية: "اللهم اهدني في من هديت" وهذا أغلى طلب يطلب، فمن أجل الهداية بعث الله الرسل، وأنزل الكتب، وهو طلب نكرره عند قراءتنا سورة الفاتحة في كل مرة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ .

والأمر الثاني هو: العافية: وهي أمر تطلب فيه السلامة في البدن أولا، وفي كل ما له علاقة بالإنسان، وهناك دعاء نبوي يفسر طلب العافية ويحددها بقوله:

(اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي)

فالصحة من العافية، والأمن من العافية، وسلامة الأهل والمال من العافية، فالعافية هي السلامة من المرض وسائر الآفات.

والأمر الثالث: الولاية بأن يكون الله ولي العبد في كل أمر:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

ومن كان الله وليه نال كل خير ودفع عنه كل شر، ومن كان الله وليه كان لله وليا، وعبدا خالص العبودية ونال شرف هذه الآية:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

والأمر الرابع: هو البركة: والبركة تعني الزيادة والنماء، والشيء المبارك فيه يغني ويكفي ويزيد، والبركة مطلوبة في كل ما أعطاه الله تعالى للإنسان: في جسمه وعقله ووقته وماله وفي ذريته، وهذا واضح في تركيب الدعاء:

"بارك لي في ما أعطيت: أي في كل ما أعطيتني.

بعد هذه المطالب يأتي أمر يسأل العبد ربه سبحانه أن يدفعه عنه وهو: شر ما قضاه الله تعالى "قني شر ما قدرت وقضيت ".

وهنا لا بد من وقفة تدبر، فكيف يكون في ما قضى الله تعالى شر؟ أقول مستعينا بالله: إننا مثلا حين نأكل فإن الأكل خير، ففيه بناء للجسم، وتزويد له بما يحتاج، وقد يكون في الأكل ضر وأذى وشر، وذلك حين يدخل بعض الطعام في مجرى النفس، أو حين نزور بلقمة أو يسبب لنا الطعام حموضة في المعدة قد تؤدي إلى قرحة. وقد نتناول دواء فبدلا من أن يفيدنا يضرنا ويسبب لنا الأذى، ويتضاعف المرض، من هذا المثل نرى أنه قد يكون لكل شيء من الأشياء وجهان: وجه خير ووجه شر، وبهذا نفهم معنى هذا الدعاء: "وقني شر ما قدرت وقضيت ".

بعد هذه المطالب التي حواها دعاء القنوت يأتي تمجيد لله تعالى، وذكر لبعض صفاته ذات الصلة بمفردات هذا الدعاء:

"إنك تقضي ولا يقضى عليك": إنه تمجيد لله تعالى الملك الفرد الأحد الذي كل الوجود وما فيه خلقه، وتحت سطوته وحكمه وقضائه.

"وإنه لا يذل من واليت": ولهذا المقطع من الدعاء صلة بما سبق " تولني في من توليت "فنحن حين ننال ولاية الله تعالى ننال العزة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فنحن أعزة بعزة الله الذي لا يعز من عاداه.

ويأتي التمجيد الأخير في الدعاء لله تعالى:

" تباركت ربنا وتعاليت "

أي تقدست وتنزهت وتعاليت عما لا يليق بك مما نسبه إليك الجاهلون بك، والكافرون بك، والمشركون بك، وتنزلت علينا بركاتك التي نراها في حياتنا وفي كل شأن من شؤوننا.

ومع هذا الدعاء هناك دعاء آخر للقنوت مروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وله روايات منها:

"اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ولا نكفرك، نؤمن بك، ونخلع من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، ، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق، اللهم عذب الكفرة الذين يصدون عن سبيلك، ويكذبون رسلك، ويقاتلون أولياءك ، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، وأصلح ذات بينهم، وألف بين قلوبهم واجعل في قلوبهم الإيمان والحكمة، وثبتهم على ملة رسول الله ﷺ، وأوزعهم أن يوفوا بعهدك الذي عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوك وعدوهم، إله الحق، واجعلنا منهم ".

هذا دعاء شامل فيه ألوان من المطالب التي تصلح بها حياة الفرد وحياة المجتمع بل الحياة كلها، وفيه تمجيد لله تعالى وتعظيم له، وفيه دعاء على أعداء الإسلام، كما فيه دعاء للمسلمين .

في هذا الدعاء استعانة بالله ابتداء: "اللهم إنا نستعينك" ومن تحقق له العون من الله تعالى نال السعادة في الدنيا والآخرة، ونحن نطلب العون من الله تعالى في كل مرة نقرأ فيها سورة الفاتحة حين نقول:

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

وفيه استغفار: "ونستغفرك"، والاستغفار مفتاح كل خير، ففيه توجه إلى الله تعالى باعتراف العبد بالتقصير، وسعي إلى الإصلاح، ومن حقق الاستغفار نال البركات:

﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]

والاستغفار أمان من العذاب:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]

وفي الدعاء نفي الكفر بالله، "ولا نكفرك "،

والكفر: الستر والإخفاء، ومن كفر ربه فقد نسيه، ومن نسي الله تعالى أنساه نفسه، ونسي غاية وجوده، فعمي عن الحقيقة، وضل سعيه في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وبعد نفي الكفر يأتي إثبات للإيمان بالله تعالى: "ونؤمن بك" ومع هذا التبرؤ ممن لا يؤمن بالله ولا يطيعه: "ونخلع ونترك من يفجرك" والفجر والفجور: الإسراف في المعاصي، والفسق والكذب والعصيان، والأصل في المؤمن أن يوالي المؤمنين الطائعين، ويتبرأ من العصاة الفاجرين، سواء أكان فجورهم سلوكيا في المعاصي أم فكريا بما يتعلق بالله تعالى؛ كفرا به أو تطاولا عليه.

ويأتي المقطع الثاني وفيه إقرار بالعبودية لله تعالى وعبادته والوقوف موقف العبد المتذلل أمام ربه سبحانه: "اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد" وقد خص السجود وهو من الصلاة لأنه رمز تذلل العبد لربه، وهو موضع القرب من الله تعالى، وموضع الدعاء المستجاب.

" وإليك نسعى ونحفد ": وهنا إشارة إلى درجتين من التوجه إلى الله تعالى، فالسعي: المشي والقصد نحو الشيء، والحفد: الإسراع في المشي، فكأنما يقول الداعي: نتوجه إليك ماشين ومسرعين، وفي هذا تصوير لحال العبد مع ربه سبحانه، في طاعته له، والتزام أوامره ومسارعته في الخيرات.

"نرجو رحمتك ونخشى عذابك": إننا هنا أمام وصف الحالة النفسية للعبد مع ربه، بالجمع بين الرجاء والخشية، ومن جمعهما استقام في طريق الحق وسار متوازنا بهذين الجناحين.

"إن عذابك الجد بالكفار ملحق": وهذه جملة تحتاج إلى وقفة بيان، فكلمة ملحق تأتي بالكسر وبالفتح، وعذابك الجد: أي عذابك الحق الواقع – بالكفار ملحق، (بالفتح) أي واقع بهم، وبالكسر: أي ملحق بهم ما توعدتهم به من العذاب في الدنيا والآخرة.

وبعد هذا يأتي مقطع طويل بالدعاء على الكافرين الذين يضلون عن سبيله ويكذبون رسله ويقاتلون أولياء الله، وهم بذلك مصدر سوء وأذى في الأرض.

ويأتي بعد ذلك مقطع دعاء للمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة وإصلاح ذات البين وجمع الكلمة بتأليف القلوب وملئها إيمانا وحكمة، وبالثبات على منهج رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، والوفاء بعهد الله ونصر المؤمنين على عدو الله وعدوهم.

ويختم بمناداة الله تعالى بإله الحق.

إنه دعاء جامع مانع يحقق الخير الفردي والجماعي، الدنيوي والأخروي.

الفصل التاسع

سبحوا بكرة وعشيا

بك أصبحنا .. بك أمسينا

أمرنا الله تعالى أن نكثر من ذكره فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

وفي هذه الآية تخصيص لوقتين بالذكر: البكرة والأصيل، أي الصباح والمساء، بعد صلاة الفجر، وبعد صلاة العصر.

وتكرر هذا التوجيه الرباني في القرآن الكريم أكثر من مرة ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وقوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقوله عز وجل: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وإذا كان الله تعالى قد أمرنا بالذكر والتسبيح في الصباح والمساء فقد فصل لنا نبينا عليه وآله الصلاة والسلام الأمر، فبين لنا ما نذكره في هذين الوقتين لنستقبل نهارنا بالذكر ونمضي في نوره، ونودعه بالذكر، ونستقبل الليل ونحن مع الله نردد الأذكار التي علمنا إياها الحبيب المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام.

وقبل المضي في الرحلة مع أذكار الصباح والمساء أشير إلى

خصوصية للذكر بعد صلاة الفجر بينها لنا النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام في هذا الحديث الذي رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

"من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة".

ما أعظمه من أجر يناله المسلم جزاء قضاء وقت قصير: بالبقاء في المسجد حتى طلوع الشمس وببذل جهد قليل: بذكر الله تعالى في هذا الوقت الذي يقضيه في بيت الله تعالى، لينال بذكر الله أجرا عظيما من الله العظيم، وتحل عليه بركات ربه الكريم.

إن كثيرا من الأذكار التي نرددها في الصباح نرددها كذلك في المساء ولكن مع تغيير في الفعل الدال على الزمان، فبدلا من أن نقول: أصبحنا نقول: أمسينا.

إن مما يلفت النظر في أذكار الصباح والمساء أن منها ما نسأل الله تعالى فيه أمرا نطلب أن يتحقق.

ومنها ما نستعيذ فيه بالله من أمور أن تقع.

ومنها أذكار فيها تمجيد لله تعالى وحمد له، وإعلان من الذاكر واعتراف ببعض أسمائه الحسنى.

إن مما علمنا إياه رسولنا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام أن نردد أذكارا نؤكد فيها صلتنا بالله تعالى، ونعلن فيها إيماننا به، وإحساسنا بنعمه علينا، وفي هذا الصنف من الأذكار إنعاش للمعاني الإيمانية وتثبيت وتعميق لها، ومنها هذا الذكر الذي فيه تسبيح الله تعالى: روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من قال حين يصبح ويمسي: سبحان الله وبحمده مئة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء له إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه"وفي رواية لأبي داود: "سبحان الله العظيم وبحمده"

لقد حدد الحديث الذكر وهو: "سبحان الله وبحمده" أو "سبحان الله العظيم وبحمده".

وحدد الوقت: حين يصبح وحين يمسي.

وحدد الأجر العظيم لهذا الذكر يوم القيامة.

في هذا الذكر تسبيح لله وتحميد وفيه تشبه بالملائكة الكرام، وهي مرتبة عالية يرتقي إليها المسلم بذكر الله تعالى.

ومن هذه الأذكار التي فيها إعلان من المسلم لعقيدته وتثبيت لها ما يبينه هذا الحديث:

"من قال إذا أصبح: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كان له عدل رقبة من ولد إسماعيل (أي أجر عتق رقبته)، وكتبت له عشر حسنات، وحط عنه بها عشر سيئات، ورفع له بها عشر درجات، وكان في حرز من الشيطان حتى يمسي، وإذا قالها إذا أمسى كان له مثل ذلك حتى يصبح".

إنها كلمات قليلة لكنها تمثل في قلب المسلم حقائق الإيمان، يجري بها لسانه، ويستنير بها قلبه وتستقيم بها حياته.

الذكر وأصول الإيمان

ما زلنا مع أذكار الصباح والمساء، وقد قلت من قبل إن من هذه الأذكار ما لا يتضمن طلب شيء من استعاذة أو سؤال خير، بل هو تمجيد لله وتحميد له، وتقديس لذات الله العلية.

ومن هذه الأذكار ما رواه الترمذي وغيره عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام قال: "من قال حين يصبح و حين يمسي: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة" وفي رواية: "و بمحمد رسولا".

إن في هذا الذكر تثبيتا للأصول الأساسية التي لا بد منها لأي إنسان ليكون مسلما، وفي هذا الذكر الذي يعتاد عليه لسان المسلم تثبيت للإجابات عن الأسئلة التي تكون بعد الموت، حيث يسأل الملكان الإنسان: من ربك؟ وما دينك؟ ومن هذا الرجل الذي ظهر فيكم؟

فمن اعتاد أن يقول كل صباح:

"رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا"

لم يجد صعوبة في الجواب، لأنه ما دام قد رضي بذلك فلا بد أنه قد أقام حياته وفق ما يرضي الله، وكانت حياته صورة عملية للإسلام، واتخذ في ذلك إماما هو رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام.

ومن أذكار الصباح والمساء: هذا الذكر الذي يدل على وعي المسلم بالزمان، ووعيه ما هو عليه من فكر ومعتقد، ومن منهج وعمل، فقد روى أحمد وغيره عن الصحابي عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه أن النبي عليه وآله الصلاة والسلام كان إذا أصبح أو أمسى قال:

"أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين".

المسلم حين يصبح أو يمسي يأتيه الزمن الجديد وهو في وعي وصحو لا في غفلة، ولذلك يقول: أصبحنا أو أمسينا.

ثم هو واع لحاله وقلبه ومنهج حياته: "على فطرة الإسلام": والفطرة هي الخلق على أصله قبل أن يحدث فيه التغيير، وكل مولود يولد على الفطرة: أي يعرف أن له ربا، ويعرف حق الربوبية وحد العبودية، لأن فيه انشداد المخلوق إلى الخالق، والعبد إلى الرب، وذلك ما يدل عليه الحديث الشريف الذي رواه مسلم:

" فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه "

و "كلمة الإخلاص" هي شهادة التوحيد، وهي ثمرة الفطرة السليمة، فكل ذي فطرة سليمة يعلم أن لا إله إلا الله، ويؤمن برسول زمانه، ونحن نؤمن بالأنبياء والرسل جميعا وخاتمهم سيدنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام.

"وعلى دين نبينا محمد ﷺ": والدين هو المنهج والشريعة المنزلة على رسولنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام، وإن يكن الدين في أصله واحدا لدى الأنبياء جميعا: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ والمسلم يتبع في حياته ما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من شريعة ضابطة لأمور الحياة.

وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، وقد ورد الحديث عن ملة إبراهيم في كتاب الله أكثر من مرة، ومنها قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقوله: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله: ﴿ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وملة إبراهيم هي توحيد الله تعالى التي وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب:

﴿ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

كم في هذا الذكر من دلالات ومعان يجب أن نقف عليها ونحن نردده بتروّ وتدبر لا بعجلة تفقدنا ما فيه من أنوار تغمر القلب والعقل والحياة، وتجعلنا على بينة من أصول الإيمان التي بها نجاتنا.

الذكر ومشاهد الأحوال

من أذكار الصباح والمساء التي ليس فيها سؤال أمر أو استعاذة هذا الذكر الذي يرى فيه العبد نعمة الله عليه، ونعم الله التي لا تعد ولا تحصى على العباد كلهم.

في هذا المشهد يلهج اللسان بالاعتراف بمصدر هذه النعم والشكر له: (عن عبد الله بن غنام أن رسول الله ﷺ قال: من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر يومه، ومن قال مثل ذلك حين يمسي فقد أدى شكر ليلته) (رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وقال: صحيح الإسناد)

ما أعظمه من مشهد يلوح للمؤمن الذاكر لربه، وقد أصبح معافى في بدنه، آمنا في أهله، يجد قوت يومه ويرى نعم الله تعالى من حوله على كل خلق الله تعالى، فيعلم أن الله تعالى هو المنعم على العباد كلهم، ما علم من تلك النعم وما خفي عليه منها، ما ظهر منها وما بطن، فيشكر الله تعالى رب العالمين، الذي تتجلى آلاؤه وتتنزل نعمه في كل لحظة على مخلوقاته كلها.

إنها نظرة إيمانية شاملة إلى الوجود كله تربط الوجود بخالقه.

وتمضي هذه النظرة الشاملة مع المسلم في أحواله كلها، وفي أذكار شتى، ومنها هذا الذكر الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيره عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يقول إذا أصبح: "اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا، وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور، وإذا أمسى قال: اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير".

إن مما يلفت النظر في هذا الذكر قول الذاكر: "بك" فالمسلم يرى كل أحواله تقوم بربه، وفي هذا الذكر أجد وجها من وجوه التفسير لقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله". فتقلب الإنسان في الزمان: صباحا ومساء يكون بحول من الله وقوة، وتقلب الإنسان بين الحياة والموت (في النوم واليقظة

وفي الموت الحقيقي) يكون بحول من الله تعالى وقوة .

ولا بد أن يكتمل المشهد الذي يتجلى للمسلم بكماله، فبعد الموت لا بد من نشور: (وإليك النشور) والنشور يكون من الموت يوم القيامة، وأي معنى للدنيا من غير القيامة؟ أي معنى للدنيا لو كان الموت نهايتها؟؟

هذا الذكر يمد المسلم بالعزم والقوة، فهو بالله يمضي، وإلى الله يسير على بينة ونور، وعلى هدى وبصيرة، وعلى صراط مستقيم، يعرف أن له غاية لا بد أنه منته إليها، ولذلك ينضبط في حياته وفق منهج ربه الذي يستمد منه كل شيء، وقد جعل له موعدا يوم النشور، يوم يقوم الناس لرب العالمين ليجزى كل إنسان بما عمل.

ومن الأذكار التي يرددها لسان المسلم ولا طلب فيها ولا استعاذة بل هي ذكر خالص، فيه الحب لله والخشوع له، والإقرار بفضله، وفيه تذكير الإنسان لنفسه بالحقائق التي ينبغي ألا تغيب، هذا الذكر الجميل الذي رواه ابن السني والبزار والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا أصبح: "أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله لا شريك له، لا إله إلا هو وإليه النشور".

لقد تكررهذا المعنى في أذكار أخرى بما فيه من الوعي على حقيقة مهمة تمثل الصلة الدائمة بالله سبحانه، فلا يكون الزمان حجابا بين العبد وربه سبحانه، بل مذكرا له به، ويتجلى في هذا الذكر حقيقة مهمة هي: "الملك لله فهو الملك الحقيقي الذي لا يزول ملكه، والنعم كلها منه؛ ولذلك يتوجه اللسان بالحمد له، والحمد له يكون وقد تجلت للعبد نعم ربه عليه من خلق ورزق وصحة وذرية وأمن، فيحمد ربه كي تدوم تلك النعم وتزداد.

والتوحيد أساس الدين ولذلك يردد اللسان والقلب: لا شريك له، ويزيد المعنى وضوحا: "لا إله إلا هو"، فلا معبود سواه، ويختم المشهد بصورة يوم النشور، وحضور يوم النشور في قلب العبد سبب مهم من أسباب الانضباط في الحياة؛ لأنه يعلم أنه لم يخلق عبثا، ولن يترك سدى، وأنه لابد من الحساب في يوم النشور .

إنها أذكار ولكنها تجلّي للذاكر مشاهد الوجود في أوضح صورها.

الذكر المشهود

من المهم أن يكون الفهم قرين الذكر، وأن يكون الفهم أساسا له، فأي فائدة من ذكر نردده ونحن غافلون عن معانيه؟

وهل يجوز أن يتحرك اللسان بذكر والقلب ساه غافل؟ لا بد في الذكر من التدبر الذي يؤدي إلى التنور.

فالعلم نور يستضيء به العقل ويستنير به القلب، والذكر نور إن أغمض الذاكر عينيه عنه كان كمن يغمض عينيه عن نور الشمس فأنى يستفيد منه؟

وذلك ما يجب أن يكون حالنا مع الأذكار كلها ومنها أذكار الصباح والمساء التي منها هذا الذكر العظيم بمعانيه وألفاظه.

روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺقال: "من قال حين يصبح وحين يمسي: اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت وأن محمدا عبدك ورسولك، أعتق الله ربعه من النار، وإن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار، وإن قالها ثلاثا أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار، وإن قالها أربعا أعتقه الله من النار".

إننا في هذا الذكر أمام العبد المؤمن وهو يخاطب ربه سبحانه، معلنا بالشهادتين اللتين هما مفتاح الإيمان ومفتاح الجنة، ولكنه ليس إعلانا وشهادة فحسب.

إن هذا الدعاء مهرجان عظيم تزول فيه السدود والحواجز بين عالمي الغيب والشهادة.

إنه إعلان بصوت عال يعلو ويمتد إلى أسماع كل الكائنات وكل المخلوقات ليقول العبد بهذا الصوت العالي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ولكن لهذا الإعلان درجات نتبينها بتدبره:

"اللهم إني أصبحت أشهدك"

وهنا نجد الزمان حاضرا كما هو الحال في أذكار أخرى بقولنا: أصبحت ـ وأمسيت والزمان يذكر المسلم بربه سبحانه.

ونجد الذاكر يشهد ربه سبحانه على توحيده له وإيمانه برسوله عليه وآله الصلاة والسلام

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾

لكنه من فرحه بهذا الإيمان وإحساسه بقيمته لا يريد أن يبقى بينه وبين ربه عز وجل بل يريد أن يعلنه أمام المخلوقات كلها وعلى الكون كله بما فيه ومن فيه، وبدأ بالمخلوقات الكريمة المقربة من ذي الجلال والإكرام .

"وأشهد حملة عرشك": وما له لا يشهد حملة العرش وهم يستغفرون للمؤمنين كما أخبرنا بذلك ربنا سبحانه في كتابه الكريم بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: 7 - ٩].

إن المسلم وهو يشهد حملة العرش كأنه يريد أن يسجل اسمه في سجل من يدعون له من حملة العرش بل إنه يشهد الملائكة:

"وملائكتك": والملائكة أيضا يستغفرون له في استغفارهم لمن في الأرض وكأنه يقول للملائكة وهو يشهدهم في هذا الدعاء: أنا ممن يستحقون استغفاركم، قال الله سبحانه في بيان استغفار الملائكة لمن في الأرض:

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥].

ويمتد أفق إشهاد المؤمن على ما يؤمن به من توحيد الله تعالى وتصديق نبوة رسولنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام إلى الخلق كلهم:

"وجميع خلقك"

وكأن من يردد هذا الذكر في فرح غامر وسعادة كبيرة يريد أن يطلع عليها الخلق كلهم: من حملة العرش إلى الملائكة إلى كل المخلوقات: من كان منهم عاقلا ذا إرادة ومن كان مسيرا، ومن كان منهم مؤمنا ومن كان كافرا جاحدا .

الإيمان هو أغلى ما عند الإنسان، فمن كان مؤمنا فهو السعيد ومن كان كافرا فهو الشقي، أفلا يستحق الإيمان هذا الإشهاد عليه؟

ذكر أبي بكر الصديق

لا بد للإنسان حين يصبح أن يضع لنفسه تصورا ليومه ومساره فيه، وكذلك حين يمسي لا بد أن يضع لليلته تصورا كيف يقضيها . والمسلم إنسان خيّر يحب الخير لنفسه كما يحبه للآخرين ويدفع الشر عن نفسه ولا يسببه للآخرين.

والدعاء والذكر وسيلة تربوية مهمة في المنهج الإسلامي لأنهما يذكّران المسلم بالمعاني المطلوب تذكّرها ويثبّتانها في عقله وقلبه، ويعينانه على السلوك القويم.

ولننظر في هذا الذكر الذي رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لرسول الله عليه وآله الصلاة والسلام: "مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت" فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

قل: "اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره على مسلم قال: قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك".

إن في الأذكار المروية عن نبينا عليه وآله الصلاة والسلام استشرافا لآفاق الكون وجنبات الوجود، وفيها نوع من السياحة العقلية والقلبية لا تعرف حدودا، فهي ترتقي بالذاكر إلى الملأ الأعلى حينا، وتجوب به الكون مع الكائنات المختلفة ليرى آيات الله وتجليات أسمائه في هذه الكائنات.

وفي هذا الذكر استفتاح فيه استشراف للسماوات والأرض ومخاطبة لله تعالى بصفته فاطرا لهما:

﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالذاكر هنا كأنه يرى السماوات والأرض بين يديه وفي مرأى عينيه وهذا هو **النداء الأول** لله تعالى.

والنداء الثاني: ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: والذاكر هنا أيضا يطل على هذين العالمين، ويرى كيف يحيط علم الله تعالى بهما، وهو بهذا النداء يثبت في نفسه معنى إحاطة علم الله تعالى بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء لا في الغيب ولا في الشهادة.

والنداء الثالث: "رب كل شيء ومليكه": فالله تعالى هو رب كل شيء، خالقه وسيده، ومالك أمره، فلا يخرج عن ملكه شيء، و لا رب للوجود سواه.

هذه النداءات الثلاثة التي تستشرف السماوات والأرض، والغيب والشهادة، وتحشد في المشهد كل شيء، نجد بعدها استعاذات ينطلق بها لسان المؤمن، وفي الاستعاذة إحساس بالخوف من شيء وطلب الأمان منه، فما الذي يستعيذ المؤمن منه بهذه الصفات الربانية التي استفتح بها دعاءه؟

إنها: شر النفس وشر الشيطان واقتراف الذنب، والتسبب به للآخرين.

وتقديم الاستعاذة من شر النفس هو جانب وقائي فمن كفّ عن الناس شره اتقى في الأغلب شرهم، لأن الشر يثير الشر، ومن وقي شر نفسه لم يقع في الذنب واتقى غضب الرب سبحانه.

والأمر الثاني المستعاذ منه هو: شر الشيطان وشركه، والشيطان هو مصدر الشر في الوجود، والآمر به، والداعي إليه، وأساس شره الدعوة إلى الشرك فمن أشرك بالله فقد ارتكب أعظم الشرور، ومن وحد الله تعالى فقد سلك طريق النجاة، ومن وقاه الله تعالى من الشيطان فقد سلك درب الأمان.

والمستعاذ الثالث بالله منه هو: اقتراف الذنب، والذنب مجلبة لغضب الرب سبحانه وهو تلويث للنفس بما لا يليق بها وبما ينافي غاية خلقها، ولله الحمد أن فتح للمذنب باب التوبة ليتطهر من أدران الذنب.

والمستغاث الرابع بالله منه هو: أن يجر ذنبا إلى مسلم بأن يكون سببا لوقوعه في معصية، ومن كان كذلك كان إماما للشر وداعية إليه، والمسلم إنما يحب أن يكون إماما في الخير.

في هذا الذكر منهج لضبط النفس واتقاء الشيطان وتقوى الله سبحانه.

أسألك العفو والعافية

للإنسان في هذه الدنيا حاجات يسعى إلى الحصول عليها، وأمامه مخاوف ومخاطر يسعى إلى اتقائها، وإذا كان الإنسان المسلم يخطط ويفكر ويدبر ويسعى فإنه يتذكر أن له ربا بيده أمر كل شيء، ولذلك يقدم في أول نهاره بين يدي تفكيره وسعيه ذكر الله تعالى ودعاءه بكل ما يجلب له الخير ويدفع عنه الضر.

ومن الأدعية المأثورة عن نبينا عليه وآله الصلاة والسلام هذا الدعاء الذي رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو حين يصبح وحين يمسي بهذه الدعوات:

"**اللهم** إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي.

اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي.

اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي."

إننا في هذا الذكر بين سؤال واستعاذة.

السؤال: العفو والعافية، وفي العفو صفح وتجاوز ومغفرة ومسامحة، ومن نال عفو الله تعالى فقد فاز .

والعافية: السلامة من الآفات والبلايا بكل أنواعها.

والعفو والعافية طلبا في هذا الذكر مرتين، المرة الأولى على الإجمال: في الدنيا والآخرة، ولا يخفى أن العفو والعافية في الآخرة يعنيان الستر والمغفرة ودخول الجنة والنجاة من النار.

والمرة الأخرى التي طلب فيها العفو والعافية: جاء فيها تفصيل، فهما مطلوبان في الدين والدنيا والأهل والمال.

ومن سلم له دينه استقام وتيسرت له سبل الطاعة، وإذا كان البدن يمرض فإن دين بعض الناس يمرض ويهزل وقد يموت.

ومن عوفي في دنياه أمن في كل أمر من امور حياته.

وقد جاء تخصيص الأهل والمال من أمور الدنيا لأنهما أهم شيء فيها ، فمن سلم أهله من المرض والأذى ومن الانحراف والضلال فقد نال السعادة والأمان.

ومن سلم له ماله من الآفات: من الهلاك والسرقة وغير ذلك فقد نال الطمأنينة.

إن من يتحقق له سؤاله بالعفو والعافية يأمن ويسلم ويطمئن، وما أعظمه من طلب! وما أجمل أن يتحقق!

وبعد ذلك تأتي مطالب أخرى تمثل مخاوف لدى الإنسان يستعيذ بالله منها.

إن مما يخاف منه الإنسان في حياته: الفضيحة والخوف، فمن فضح سقطت منزلته، وضاعت هيبته. ومن الذي يحب أن يطلع الناس على عوراته؟ والعورة موضع خلل في حياة الإنسان، وهي النواقص التي تكون منه، ومن الذي يستطيع العيش وهو في خوف من أذى يتوقع أن يحل به من عدو متربص أو خصم عنيد؟

"اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي"

والروعات جمع روعة، وهو الخوف الناتج عن أمر يثيره .

إننا أمام مسائل فيها طلب الوقاية من الشرور الكبيرة التي تحول الحياة إلى جحيم، ولذلك يأتي اللجوء إلى جناب الله تعالى وطلب الستر منه، وطلب الحفظ الشامل المحيط الذي لا يجعل للخصم منفذا، ولا للشرور مدخلا، ومن كان عليه من الله حافظ وقي وهدي وأمن وسلم.

وقد جاء طلب الحفظ في هذا الدعاء ليشمل الجهات الست التي يمكن أن يأتي منها سبب للخوف أو يصيب الإنسان من جهتها أذى: "اللهم

احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي" ولكن جاء الحديث عن الوقاية من تحت في أسلوب خاص مختلف: "وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي"، والاغتيال هو القتل بطريقة خفية باستدراج من يراد قتله، ويبدو أن الإنسان يستطيع التنبه إلى ما حوله ومن فوقه ولكنه قد يغفل عن الكيد الخفي من تحته.

في هذا الذكر وفي كل ذكر وقاية وحماية، وفي الذكر استنارة للقلب والعقل، وفي الذكر تربية للنفس وتذكير لها بالخير ولجم لها عن الشر، ولذلك جاءنا هذا الهدي النبوي ضمن أذكار الصباح والمساء ليكون لنا حصنا نتقي به الشرور، وموردا نستمد منه الأنوار التي تعين على كل خير.

أسألك علما نافعا

روى ابن ماجه عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أصبح قال: "اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا".

في هذا الذكر الطيب ثلاثة أهداف يضعها المؤمن أمام عينيه كل صباح ويسأل الله تعالى تحقيقها، وهي أهداف نيرة من نالها ضمن الحياة الطيبة في الدنيا، والعاقبة الآمنة يوم يلقى الله.

المطلب الأول: "اللهم إني أسألك علما نافعا" ولا يخفى أن من العلم ما هو نافع، كما أن منه ما هو ضار!!ومنه ما لاينتمي إلى هذا أو ذاك. والمؤمن حريص على أن ينال العلم الذي ينفعه في نفسه ويكون نافعا للآخرين، وأولى ما يتعلمه الإنسان ما يصلح به أمر دينه، فيعرف ربه سبحانه، ويعرف نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، ويعرف ما يقيم به أمر عباداته، وأمر معاشه، ومن العلوم النافعة ما فتحه الله على الناس في مجالات الحياة كلها؛ من طب وهندسة وفلك، وغير ذلك مما يكتشفه الإنسان من سنن الله تعالى في الكون والإنسان ، ومن نوى في علمه، أيا كان، الانتفاع به ونفع غيره كتب له الأجر.

والمطلب الثاني: "ورزقا طيبا"، والإنسان يسعى في نهاره ليكسب رزقه، وللرزق أبواب منها الطيب الحلال ومنها الحرام الخبيث، والمؤمن يطلب الحلال ليتغذى به وليقدمه إلى أهله، وهو لا ينسى أن كل ما نبت من حرام فالنار أولى به كما ورد في الحديث الشريف، ويكون الرزق طيبا إذا اكتسبه من طريق حلال، كما يكون في نفسه طيبا فلا يكون من المحرمات التي نهى الله عنها.

والمطلب الثالث: "وعملا متقبلا" والعمل يشمل كل سعي الإنسان، من عبادة وطلب رزق وعلم وتعليم وغير ذلك، ومن تقبل الله تعالى عمله نال طمأنينة النفس في الدنيا، وحصل سعادة الآخرة بالفوز بمقعد صدق عند مليك مقتدر.

ومن أذكارالصباح الموجزة البليغة الحاوية لكل معاني الخير هذا الذكر الذي علمه عليه وآله الصلاة والسلام لابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، فقد روى الحاكم وابن السني عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لابنته فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به، أن تقولي إذا اصبحت وإذا أمسيت: "يا حي يا قيوم بك أستغيث فأصلح شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين".

إنه نداء للحي القيوم، ونداء الله تعالى باسم من أسمائه يعني استمداد ما في هذا الاسم من الخصائص، ونداء اسم الله الحي يعني استمداد الحياة: حياة القلب وحياة الجسد، وفي نداء القيوم الذي يقوم على شأن كل ما في الوجود من خلقه، ويلبي حاجاتهم، ويسمع نداءهم ودعاءهم، في ذلك لجوء إلى من يلبي الحاجات، ويجيب الدعوات .

وما المطلوب من هذه الاستغاثة؟ إنها استغاثة العبد الضعيف بحياة الحي وقوة القيوم، وهي تحمل حاجة المستغيث إلى من يلبي نداء من ناداه.

والمطلوب هو: إجابة الدعاء بالرعاية الشاملة التامة، ولذلك جاء الطلب: فأصلح شأني كله، وإصلاح الشأن كله كلمة موجزة تشمل صلاح حال الإنسان كله، في بدنه وعقله وقلبه، في دينه ودنياه، في أهله وماله، في ما طلب وما لم يطلب، في ما علم وما لم يعلم.

وفي الدعاء رجاء: "لا تكلني إلى نفسي طرفة عين " والنفس أمارة بالسوء، النفس تميل إلى الدنيا، تميل إلى الراحة والدعة، لا تحب الجد في الأمور، والنفس ضعيفة قاصرة لا تملك من أمرها شيئا.

ما أجمله من دعاء، وما أعظمها من ثمرة أن يتحقق للعبد ما سأل ربه، سبحانه وتعالى بالغوث وإصلاح الشأن كله، والوقاية من شر النفس.

الاستعاذة من كل شر

في هذه الحياة خير، وفيها كذلك شر، وقد جاء في أذكار الصباح والمساء الواردة عن رسولنا عليه وآله الصلاة والسلام ما فيه استعاذة من الشر وتحصن بالله تعالى من كل ما يضر . والإنسان في هذه الحياة يمضي ولا يدري ما هو مخبأ له مما لا يراه من مخلوقات، أو ما تضمره له المخلوقات التي يراها، ولذلك يلجأ إلى من يعلم السر وما يخفى، طالبا منه الحماية، متقيا برحمته شر كل ذي شر.ومن فضل الله ورحمته، ومن حب النبي عليه وآله الصلاة والسلام أن دلنا على كل ما ينفعنا ويدفع عنا الأذى، ومن ذلك هذا الدعاء الصباحي المسائي:

روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات إلا لم يضره شيء".

إنها وصية نبوية وقائية يستطيع بها المسلم اتقاء الضر الكامن في كل شيء، وقول:

"باسم الله " في مطلع الذكر يعني أتحصن باسم الله، أو ألوذ باسم الله، واسم الله تعالى إذا ذكر على شيء لم يضر معه شيء بإذن الله، وهذا ما يدل عليه الذكر بمجمله: "باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء".

واللافت في هذا الحديث عن "شيء في الأرض ولا في السماء" وأرى في هذه الإشارة لمحة إعجاز ودليل نبوة، لأن النبي عليه وآله الصلاة والسلام يوم قال هذا الحديث لم يكن البشر قد صعدوا إلى الفضاء، لا في طائرة ولا في مكوك فضاء ولا في محطة فضائية، فأنت تستطيع أن تتحصن بهذا الذكر سواء أكنت على الأرض أم في السماء: مسافرا في طائرة أو سواها من وسائل التحليق في الجو، والشر الذي تستعيذ بالله منه موجود معك ومن حولك في من يشاركونك رحلتك، بل قد يكون موجودا في الطعام والشراب الذي يقدم إليك.

ونلحظ ورود اسمين من أسماء الله تعالى في هذا الذكر هما: السميع العليم، وذكر اسم الله السميع لأن في الذكر نداء لله تعالى والتجاء به واستغاثة، وهذا الذكر يبشر الذاكر أن الله تعالى يسمع نداءه ويجيب طلبه. وذكر اسم الله العليم فيه إشارة إلى علم الله تعالى بالضرر الذي يحيط بالإنسان، وعليم بما يدفع عنه الضر.

وشبيه بهذا الذكر ذكر مسائي يقي قائله من كل أذى، و لاسيما لدغ الكائنات الضارة، روى مسلم أن رجلا شكا إلى النبي عليه وآله الصلاة والسلام من لدغة عقرب في إحدى الليالي فقال له: أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضرك".

وجاء الحديث في رواية أخرى عند ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "من قال حين يمسي ثلاث مرات: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم تضره حمة تلك الليلة".

والحمة: الكائنات السامة كالعقرب وغيرها مما يلدغ. ولعل تخصيص الليل بهذا الدعاء راجع إلى أن هذه الكائنات الضارة تخرج من جحورها في الليل وتسبب للناس الأذى ولا سيما في البوادي والأرياف بل إن هذه الكائنات الضارة موجودة في كل مكان ولذلك لا يستغني أحد عن الاستعاذة بالله تعالى من شرها.

وفي هذا الذكر استعاذة بكلمات الله التامات التي تنزل حماية على المستعيذ فتكون حاجزا بينه وبين ما يضر.

إن هناك تكاملا بين الذكر الصباحي المسائي: "بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم"، والذكر المسائي: "أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق"، وإذا ضممنا إليهما المعوذات فإن المؤمن الذاكر يكون في حصن حصين، ولا ينبغي أن نفرط في هذه الأذكار ونركن إلى ما نقوم به من جهود بشرية لأن وراء ما يبدو لنا من الأمور ألوانا من الشر والضر لا نعلمها فنستعيذ منها بالله السميع العليم.

سيد الاستغفار

لا يخلو الإنسان من ذنب، ولا يستغني الإنسان عن الاستغفار، وفي الاستغفار إحساس بالذنب وثقله، أو إحساس بالتقصير تجاه الله سبحانه. وقد دعانا القرآن الكريم إلى الاستغفار، وبين لنا أثره في حياتنا، فالاستغفار مجلبة لرضى ربنا سبحانه، وفيه محو للذنب، وفيه بركات تتنزل من السماء، وبركة في المال والولد.

قال تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وفي الاستغفار أمان من العذاب ودفع لغضب الرب، قال الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وليس للاستغفار وقت محدد فمن لزمه وداوم عليه فرج الله همه، ودفع عنه كل شر ويسر له كل خير.

وكثيرة هي الأحاديث التي بينت فضل الاستغفار، ومنها حديث نبوي يعلمنا ما سماه نبينا عليه وآله الصلاة والسلام: "سيد الاستغفار" وبين لنا فضله العظيم حين نردده في النهار أو في الليل.

روى البخاري عن أوس بن شداد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . قال: من قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من

أهل الجنة)

إن تسمية النبي عليه وآله الصلاة والسلام لهذا الذكر بسيد الاستغفار يدل على أنه أفضل صيغة استغفار تجري بها ألسنتنا، وتستقر في قلوبنا، ندفع بها غضب ربنا سبحانه، ونستنزل رحمته، ولعل تدبر هذا الذكر يكشف لنا عن سبب تسميته بسيد الاستغفار.

إن الاستغفار المباشر جاء في نهاية هذا الذكر، وقد سبق بأمور:

أولها: التوحيد الخالص لله تعالى "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ومن ثمرات هذا التوحيد إدراك الذاكر أن الله تعالى هو الذي خلقه، وأنه عبد له تعالى "خلقتني وأنا عبدك". وفي هذا الذكر اعتراف بالنقص البشري المركب في طبيعة الإنسان، ولذلك يعلن الذاكر الالتزام على قدر الاستطاعة: "وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت" وقد عهد الله تعالى إلى عباده عهدا وهم في عالم الذر (قال ألست بربكم قالوا بلى)، وعهد إلى آدم عليه السلام فنسي ولم يجد له عزما فكان منه الاستغفار ومن الله تعالى التوبة. فهناك العهد في ما مضى، وهناك الوعد الإلهي لعباده بالجنة إن هم أطاعوا، فالإنسان بين عهد بالطاعة، ووعد بالجنة، وهو في ما بينهما يسهو ويلهو، ويغفل ويضعف، ويذنب ويقصر، "وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت"، وما دام حال الإنسان كذلك فإنه يبرأ إلى الله تعالى من شر ما يفعل، ويعوذ به من شر عاقبته، وعاقبة العصيان إن لم تكن المغفرة: النار. "أعوذ بك من شر ما صنعت". ومن لوازم العبودية إدراك النعم والاعتراف بها والشكر عليها: "أبوء لك بنعمتك علي". ومن لوازم العبودية كذلك إدراك ما يصدر عن الإنسان من الذنوب والاعتراف بها: (وأبوء لك بذنبي)، ومن عرف ذنبه طلب من ربه أن يغفره له ليتقي شر عاقبة الذنب: "فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ ومن عرف أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فقد لزم درب الأمان.

لقد كان هذا الذكر سيد الاستغفار لأنه ليس استغفارا مباشرا بل لأنه جامع لأصول الإيمان: الربوبية والألوهية، والاعتراف بالعبودية لله تعالى والتقصير في حقه، والاعتراف بالنقص البشري وبطلب المغفرة من الله

تعالى.

وما أعظمه من أجر لهذا الذكر أن يكون دخول الجنة، حين يصدر عن لسان ذاكر، وقلب موقن بالعبودية لله تعالى، فمن عاش وهو موحد لربه، مقر بذنبه، طالب من ربه المغفرة، ويعلم أن له ربا يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنب فهو من أهل الجنة بإذن الله تعالى، في ليل مات أو نهار.

أصبحنا/أمسينا، وأصبح/أمسى الملك لله

من أذكار الصباح والمساء هذا الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه بروايات متعددة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أمسى قال: "أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم إني أسألك من خير هذه الليلة وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، وسوء الكبر، وفتنة الدنيا وعذاب القبر ".

وكان إذا أصبح قال: "أصبحنا وأصبح الملك لله"،ويقول بدل الليلة: اليوم.

ورد مطلع هذا الحديث في أذكار أخرى، وفيه بيان إحساس المسلم بآيات الله تعالى المتجلية في الزمن صباحا ومساء، وربطه كذلك بملك الله سبحانه، وحمده على تقلب الليل والنهار، والشهادة له بالوحدانية، وبعد ذلك يأتي سؤال الذاكر لربه سبحانه: أن يعطيه من خير الليلة أو خير اليوم، والزمان وعاء الأحداث، والليل والنهار بريد يحمل إلينا الخير كما يحمل الشر، والمسلم يطلب خير كل شيء، ويدفع بدعاء الله شر كل شيء "وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها " فهناك شر مرتبط بالزمان وشر وارد فيه، والاستعاذة بالله تكون منهما، وطلب الخير من الله تعالى مما فيهما، ولك أن تنظر في حياتك وفي ما حولك وتنظر كيف تتجلى شرور الليل والنهار في ألوان من البلاء القدري الذي لا يد للإنسان فيه، وفي ألوان هي من ثمرات مخلوقات الله في عالم الغيب أو الشهادة، كما تتجلى فيهما ألوان من الخير كذلك من الطراز نفسه.

ويرد في هذا الذكر الاستعاذة من أمورمتعددة إن وجدت في حياة الإنسان كانت مصدر شر ونقص وسوء، وإن انتفت كان في حياته الخير، وهي: الكسل والهرم وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر.

وفي الكسل فتور الهمة عما يجب أن يقوم به الإنسان من أمور معاشه

أو معاده . وفي الكسل خمول وتعطيل للطاقات الكامنة في جسد الإنسان وعقله، ومن كسل فوت على نفسه ألوانا كثيرة من الخير، وكانت عاقبته الحرمان.

والهرم هو بلوغ مرحلة تتعطل فيها كثير من أجهزة الإنسان من عقل وحواس وقدرة جسدية، وفي حالة الهرم يصبح الإنسان عبئا على من حوله لعجزه عن القيام بأموره وحده، مما يجعله يمل الحياة، ويجعل من حوله يستثقلون خدمته، وربما يصل به الأمر إن وصل مرحلة الخرف ألا يقوم بالعبادات، وتتعطل قدرته على ذكر الله، ويذهل عما حوله. وقد لا يبلغ الإنسان في كبره الهرم ولكن للكبر آفاته فيأتي التعوذ من سوء الكبر، وهو ما يصيب الإنسان من ألوان الضعف وأمراض الشيخوخة، وكأن في هذه الاستعاذة طلبا بأن يمتع الله عز وجل عبده بقوته وسمعه وبصره وعقله ما دام حيا، وما أعظم نعمة العافية!

وتأتي الاستعاذة من فتنة الدنيا التي تعني الانشغال بها عن الآخرة، فتصير حجابا على القلب فيرضى الإنسان بالدنيا وينشغل بها عن الآخرة، ويتخذها دارا يظن أنه خالد فيها، وينسى أنها دار ممر، وميدان امتحان وابتلاء، وينسى أن وراءها موتا وبعثا وحسابا وجنة ونارا.

وآخر ما يستعاذ بالله منه في هذا الدعاء هو عذاب القبر في عالم البرزخ الذي ينتقل إليه الناس بعد الوفاة، ولعالم البرزخ حياة حدثنا عنها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، للمؤمنين فيها سعادة ونعيم، وللكافرين والعصاة ألوان من العذاب.

إن هذا الذكر يولد في قلب المؤمن نوعا من الحذر من شرور كثيرة تتربص به، ولا ملجأ ولا منجى له منها إلا اللجوء إلى الله تعالى، ولذلك يستعيذ الإنسان منها بربه سبحانه.

تكرار الأذكار

لعل مما يستحق التدبر والتفكر في شأن الأذكار المختلفة أن منها ما ورد عن نبينا عليه وآله الصلاة والسلام أن يذكر مرة واحدة، ومنها ما يردد ثلاثا، ومنها ما يردد أربعا، ومنها ما يردد عشرا، ومنها ما يردد ثلاثا وثلاثين، ومنها ما يردد مئة مرة.

إننا نقرأ الفاتحة في كل ركعة مرة واحدة، ولننظر كم نصلي في اليوم والليلة من الركعات ثم لنحسب عدد تكرار قراءتنا للفاتحة.

ونردد التكبير في حركات الصلاة باستثناء الرفع من الركوع والتسليم، ونردد أذكار الركوع والسجود، وفي هذا الترديد تكرار متباعد غير متتال، ومثله ما يكون من حالنا مع أذكار ما بعد الصلاة التي من السنة أن نذكرها ونستنير بآثارها من التسبيح والتحميد والتكبير ومن قراءة آية الكرسي والمعوذات، وما نردده من الأذكار في مختلف الأحوال. فلماذا هذا التكرار للأذكار عموما ولماذا تكرار بعض الأذكار في كل مرة عددا محددا؟

الأمر في الأذكار كلها ليس سواء، فلكل ذكر معناه وإشعاعه وأثره، ولتكرار كل ذكر فائدة خاصة تتعلق بالإنسان نفسه وحاجته إلى هذا الذكر المكرر.

ومن المعاني التي تلوح لي في تكرار الأذكار أن في هذا التكرار تثبيتا للمعنى المراد من الذكر في القلب والعقل والحواس، هذا إذا تم الذكر بوعي وتدبر، وتم فيه ربط الألفاظ بالمعاني والمشاهد التي يجب أن ترافقها، حينئذ لا بد أن يسهم التكرار في تثبيت المعنى تكبيرا لله تعالى، وحمدا له على نعمه، وتسبيحا بحمده .

فأنت حين تردد مرات كثيرة كل يوم: سبحان الله، يستقر في عقلك وقلبك وحواسك معنى التسبيح: تنزيها لله تعالى عما يقال بحقه مما لا ينبغي أن يقال، وتعظيما لجلاله وشأنه، وكذلك تتطهر بالتسبيح من كل

نقص يصدر عنك مما لا يليق بتكريم الله تعالى للإنسان.

وأنت حين تردد: الحمد لله، يستقر في قلبك وعقلك وحواسك إدراك النعم التي لا تعد ولا تحصى التي يستحق الرب سبحانه على إنعامه بها ما هو أهل له من الحمد الذي لا يقوم به إلا أن تحمده بعددها أو أن تقول بإيجاز شامل: "يا ربي لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك".

وأنت حين تردد: الله أكبر، يستقر في قلبك وعقلك وحواسك عظمة الله تعالى ويصغر لديك كل ما عدا الله تعالى فتأوي إلى ركن شديد، وتحس بالتوكل على من بيده مقاليد كل شيء.

ومن ثمرات تكرار الأذكار: التلذذ بذكر الله تعالى، فأنت حين تذكر الله سبحانه بأي ذكر من الأذكار يفترض أن يملأ قلبك الأنس، ويغمر قلبك وعقلك وجسدك الخشوع، ويجللك النور، وتحس بالطمأنينة. وإذا كان لمحبوبات الدنيا أنس في قلوب المحبين فأي أنس يفترض أن يغمر قلوب أحباب الله تعالى وهم يذكرونه؟ وهذا المعنى لا يقتصر على ذكر دون ذكر بل يفترض أن يكون في الأذكار كلها: تسبيحا وتحميدا، تكبيرا وتهليلا، حوقلة واستغفارا، وفي كل ذكر من أذكار الصباح والمساء، بل في أذكار الأحوال الطارئة.

ومن ثمرات تكرار الأذكار التطهر من الذنب وستر العيب، وسد النقص البشري. ألا ترى أن الإنسان وهو يستغفر ربه سبحانه كأنما هو في حال وضوء حينا أو اغتسال قلبي وروحي وعقلي وحسي أحيانا؟ ألا ترى كيف نغسل الغبار بالماء فيزول؟ وكيف نحتاج أحيانا إلى الصابون لإزالة بعض ما علق باليدين أو الجسد وقد نحتاج أحيانا إلى الاستحمام؟ كذلك هو حالنا مع الذنوب وحالنا ونحن نردد الاستغفار، فقد تستغفر ربك مرة واحدة فتقول: رب اغفر لي، وقد تجد نفسك بحاجة إلى أن تكرر الاستغفار ثلاثا، وإذا أحسست بثقل الذنب وبتقصيرك في حق الرب سبحانه فقد تجد لسانك يلهج بالاستغفار مئة مرة أو فوق ذلك، وقس بقية الأذكار وتكرارها على ما سبق، وقد يفتح الله عليك بمعاني للتكرار أخرى، والله المستعان.

الفصل العاشر

باسمك ربي وضعت جنبي

بين يدي النوم

كما أن الذكر رفيق المسلم في نهاره كله، وفي أحواله كلها فهو كذلك رفيقه حين يأوي إلى فراشه بعد أن فرغ من عمله في النهار، ومن العبادات التي أداها في نهاره وبعض ليله.

إنه وهو يأوي إلى فراشه ويرى الشمس قد غابت، والليل قد أقبل بل استحكم ظلامه، والنجوم وقد تجلت في السماء، ويرى نفسه وقد أدركه التعب واستولت عليه الرغبة في الإخلاد إلى النوم طلبا للراحة، ولاستعادة النشاط والحيوية استعدادا ليوم جديد من السعي في جنبات الأرض، إنه وهو يرى ذلك كله يستذكر الدنيا والآخرة، وتحضر أمامه الحياة والموت، ولذلك حين يضع جنبه على فراشه يستعد للنوم الذي هو وفاة للنفس، وغيبوبة للحواس هي أشبه بالموت. قال الله سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾[الزُّمَر: ٤٢].

ولذلك يستعد لهذه الحالة بأذكار تؤمن له الوقاية من الشر، والحماية من عدوه إبليس وجنده وتملأ قلبه نورا وتجعله مهيئا إذا مات أن يموت على خير.

وقد شرع لنا نبينا محمد عليه وآله الصلاة والسلام أنواعا من الذكر بين يدي النوم، منها سور وآيات، ومنها تسبيحات تردد، وأذكار تقال، بل هناك هيئة للنوم يتخذها المسلم ليضمن لنفسه خير النفس وخير الجسد.

هيئة النوم الواردة عن نبينا عليه وآله الصلاة والسلام أن ينام الإنسان على جنبه الأيمن ويضع يده تحت خده.

وأما السور التي تقرأ فمنها: المعوذات: قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، ومع قراءتها يكون حال يبينه هذا الحديث الذي رواه البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ: قل

هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات ".

ولا يخفى ما في هذا الفعل من أثر وقائي للإنسان من السوء في مرحلة نومه، وكأن هذا المسح يمثل ستارا واقيا يدفع عن المسلم ما لا يعلم من شر كل ذي شر، ومن كيد الشيطان ووسوسته.

يضاف إلى ذلك قراءة سورة (الكافرون) ولا يخفى على المتدبر ما فيها من البراءة من الكفر وأهله، ورفض ما هم عليه من عبادة ضالة، يستعيد المسلم معانيها وهو يودع يومه ويستقبل نومه: روى الترمذي عن نوفل الأشجعي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: "اقرأ قل يا أيها الكافرون ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك"

إن المسلم يقرأ سورة الإخلاص ليثبت في قلبه عقيدة التوحيد، ويقرأ سورة (الكافرون) ليطهر قلبه من كفر الكافرين.

ومن الإجراءات الوقائية التي فيها حفظ للمسلم في عقيدته وجسده وكيانه كله قراءة آية الكرسي، وهي أعظم آية في القرآن لما فيها من بيان صفات الله تعالى، ومن المهم أن يتذكر المسلم وهو يقرأ آية الكرسي الحديث الطويل الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ومما جاء في آخره: "إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لا يزال معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح".

ومن الآيات التي تقرأ عند النوم الآيتان من ختام سورة البقرة ففيهما تثبيت لمعاني الإيمان في قلب المسلم، كما فيهما دعاء جامع لمعاني الخير، وفيهما وقاية للمسلم من كل شر. وقد بين أثرهما الحديث النبوي الذي رواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: "الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه"، وقد ذهب العلماء في معنى الكفاية مذاهب منها: الكفاية من السوء والشر، ومنها أنها تغنيه عن قراءة شيء آخر من القرآن الكريم في تلك الليلة.

النوم والموت

من أذكار النوم التي علمنا إياها حبيبنا الرسول الكريم عليه وآله أفضل الصلاة والتسليم هذا الدعاء المصحوب بسلوك وقائي عند الإيواء إلى الفراش، وذلك في ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين".

في هذا الحديث توجيه نبوي لمن أراد أن ينام بتفقد موضع نومه ونفضه ومسحه ولعل البحث العلمي يثبت أثر هذا السلوك في مقاومة بعض ما ينمو على الفراش من الكائنات الدقيقة التي تموت بهذا الإجراء، ويتقي الإنسان شرها، كما فيه اتقاء شر ما يمكن أن يتسلل إلى الفراش من الحشرات المؤذية ولا سيما في البوادي والأرياف.

وحين يضع المسلم جنبه على فراشه فإنه لا يفعل ذلك وهو غافل بل إن قلبه معلق بربه، ولسانه متحرك بذكره، ينام باسم الله كما يتحرك في كل شؤونه باسم الله سبحانه.

وهو حين يضع جنبه على فراشه ينظر إلى النوم على أنه موت أصغر يفقد فيه إحساسه بالأشياء، ويغيب عن عالم الشهادة، ولكنه يملك الأمل أن يحييه الله تعالى من جديد ليرفع جنبه باسم الله كما وضعه باسمه: "باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه"، ولكن الاحتمال الآخر وارد في ذهنه: "إن أمسكت نفسي فارحمها" فبرحمة الله يتعلق قلب المسلم لا بعمله، وبرحمة الله يرجو ان يتجاوز الله تعالى عن سيئاته، ويتقبل حسناته، وهو يطلب المغفرة والرحمة من ربه . وإن منّ الله تعالى عليه بالحياة فهو بحاجة إلى أن يحفظه ربه من كل سوء، ويقيه من كل شر: شر الشيطان وشر النفس ، ليكون عبدا من عباد الله الصالحين "وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين".

وشبيه بهذا الذكر ما رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه أمر رجلا إذا أخذ مضجعه قال: "اللهم خلقت نفسي وأنت توفاها، لك مماتها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن امتّها فاغفر لها، اللهم إني أسألك العافية"، فقال له رجل: اسمعت هذا من عمر، فقال: من خير من عمر، من رسول الله ﷺ.

إن في هذا الذكر كالذي قبله تثبيتا للعقيدة في القلب بنطق اللسان بها، باعتراف المسلم بالله تعالى إلها وربّا، وباليقين بأن الحياة والموت بيده وحده، وبطلب الحفظ والمغفرة، وفي هذا الذكر الأخير طلب العافية وهو طلب يشمل السلامة من كل سوء.

ومن أذكار النوم ما رواه أبو داود والترمذي عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقد وضع يده اليمنى تحت خده، ثم يقول: "اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك"، ثلاث مرات.

ولوضع اليد تحت الخد أثر يمكن أن يكشف عنه الأطباء، ولا بد أن فيه حكمة وفائدة للنائم. ومن جملة ما ينبغي أن يشغل بال المقبل على النوم ما تضمنه هذا الذكر: "اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك" فهو إلى جانب تعبيره عن إيمان المسلم بيوم القيامة ففيه تعبير عن الخشية التي تملأ قلب المسلم من عذاب الله الذي لا ينجو منه العبد إلا برحمة ربه سبحانه، ومن وقي العذاب فقد فاز:

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

النوم ليس غيبوبة يغرق فيها الإنسان لينسى متاعب يومه وليستعيد نشاطه فحسب بل هو محطة من محطات ذكر الله تعالى يجدد فيها المسلم إيمانه ويقوي صلته بربه، وينظر في أنواع الخير فيطلبها، وفي ألوان الشر فيستعيذ بالله منها .

اقض عنا الدين وأغننا من الفقر

من أذكار النوم التي علمنا إياها الرسول الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام هذا الذكر الذي يطل به الذاكر على آفاق الوجود وهو في فراشه، مقبل على نومه، وقد رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا أوى إلى فراشه: "اللهم رب السماوات ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر".

إن هذا الذكر يطل بنا على آفاق الكون من السماوات والأرض والعرش العظيم، ونستذكر به ربوبية الله تعالى لكل شيء، بل يطل بنا على مخلوقات الله تعالى كلها، كما يغوص بنا في أعماق الأرض لنرى انفلاق الحب والنوى وخروج الحياة المتجددة من هذا الانفلاق، ونرى الكتب الثلاثة المنزلة على رسل الله: موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام: التوراة والإنجيل والقرآن، يطل الذاكر على ذلك كله وهو يمجد ربه سبحانه ويعظمه، وفي ذلك تمهيد ليستعيذ بالله رب كل شيء من شر كل ذي شر ناصيته بيد الله تعالى، خاضع لعظمته وجبروته وسلطانه. وفي هذه الاستعاذة استحضار للشر كله واستعاذة منه بمن يملك دفعه والحماية من أذاه.

بعد هذه الاستعاذة واللجوء إلى الحمى الآمن تأتي هذه المناجاة لله تعالى المحيط بكل شيء: بداية ونهاية، ظاهرا وباطنا، وفي هذه المناجاة استسلام لمن بيده الأمر، ويقين بالسلامة مما استعاذ الإنسان منه، فهو بكل شيء محيط، وهو على كل شيء قدير.

ويأتي ختام الذكر بطلبين هما: قضاء الدين والإغناء من الفقر. وفي طلب قضاء الدين استعاذة من غلبته إن لم يقض، فالدين هم بالليل وذل بالنهار، كما فيه استعاذة من قهر الرجال المطالبين به من أصحابه. وفي

طلب الإغناء من الفقر استعاذة بالله منه، ولا يخفى أن الفقر من أسباب الوقوع في الدين.

ولعل مما يستحق الالتفات إليه في هذا الذكر ما شاع ويشاع من حين لآخر أن الإسلام يستحب الفقر لأتباعه، وأنى يكون ذلك وهذا الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام يعلمنا أن نسأل الله تعالى الغنى؟ وهذا يذكرنا بدعائه عليه وآله الصلاة والسلام الذي قرن بين الفقر والكفر: "اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر".

ومن أذكار النوم ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله عليه وآله الصلاة السلام كان إذا أوى إلى فراشه قال: "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي".

في هذا الذكر استحضار للنعم الأساسية التي تقوم بها حياة الإنسان، ويستطيع بها الاستمرار في العيش، وفيه حمد لله تعالى عليها وهي: الطعام والشراب والكفاية والإيواء. والطعام والشراب أمران لا بد منهما للإنسان، ومما امتن الله تعالى به على قريش أنه:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [قريش: ٤].

ومع الطعام والشراب الكفاية، وفي الكفاية استغناء عن الناس، واتقاء ذل الحاجة، فمن كفي في طعامه وشرابه، ووقي من الآفات، وكان سالما في بدنه، آمنا في سربه، فقد نال خيرا كثيرا بفضل الله ورحمته. وتأتي بعد نعمة الكفاية نعمة الإيواء، وهي نعمة المأوى الذي يعيش فيه الإنسان بأمان.

إن المسلم وهو يدعو بهذا الذكر يحس أنه يأوي إلى كنف رب يرعاه بأنواع النعم، وإذا كان الناس يقيمون لذوي الحاجات الخاصة مآوي يؤمنون لهم فيها متطلبات الحياة فالمسلم يجد المأوى الشامل عند ربه، الذي أطعمه وسقاه وكفاه، وتلك هي متطلبات المأوى الآمن وفي مقابل ما يجده المسلم في حياته من النعم المتتابعة عليه من ربه سبحانه ينظر في الجانب الآخر ليجد من ابتلي بألوان البلاء من جوع وعطش وحاجة

وخوف، (فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي) فيحمد الله تعالى على نعمه ويغمض عينيه قرير العين مع العزيمة على المضي في درب الطاعة ما بقي حيا.

تسبيحات فاطمة عليها السلام

لا يخفى أن الإحاطة بالأذكار كلها وقراءتها أمر يتعذر على كثير من الناس، وكثيرا ما يتخير الإنسان من الأذكار المتعددة ما يسهل عليه حفظا وتكرارا، ومن ذلك حالنا مع أذكار النوم.

ومن أذكار النوم المهمة والخفيفة على اللسان ما يسمى: تسبيحات فاطمة عليها السلام، سيدة نساء أهل الجنة وأم الحسنين، ابنة رسولنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام، وزوج علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هذه السيدة الكريمة أحست بالتعب من عمل البيت، وعلمت أن سبيا جاء رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، فرغبت أن تكون لها خادمة تعينها في عمل بيتها، ولننظر في تتمة الخبر الذي رواه البخاري عن علي رضي الله عنه: أن فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، "فأتى النبي ﷺ سبي، فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة، فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم، فقال: (على مكانكما). فقعد بيننا، حتى وجدت برد قدميه على صدري، وقال: (ألا أعلمكما خيرا مما سألتماني، إذا أخذتما مضاجعكما، تكبران أربعا وثلاثين، وتسبحان ثلاثا وثلاثين، وتحمدان ثلاثا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم.).

ولننظر في هذا الهدي النبوي الذي يبين الأثر البدني للذكر إضافة إلى ما هو معلوم من أثره النوراني فقد جاءت هذه الوصفة النبوية لسيدة نساء أهل الجنة في مقابل طلبها خادمة تخدمها وهي وصفة ثمينة للمرأة التي تحس بالتعب في عملها، أو الرجل الذي يجد الإجهاد في شغله، هذان إن اتبعا الهدي النبوي وجدا مددا ربانيا وبركة في القوة والوقت، وقضاء للحاجات من غير عناء،

ومن أذكار النوم ما ورد في الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «قال لي رسول الله ﷺ: إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك،

وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، "فإن مت: مت على الفطرة واجعلهن آخر ما تقول"

صلى الله عليك يا رسول الله ما أحرصك على ما ينفعنا!

ولننظر في دقة الوصية النبوية: يطلب من البراء وممن يبلغه هذا الهدي النبوي أن يتوضأ وهو متجه إلى فراشه، وفي الوضوء وقاية وحماية، والوضوء نور يتزود به المقبل على النوم، ثم لننظر في وصف هيئة الاضطجاع على الشق الأيمن وما فيها من الفوائد الجسدية، ثم لنتأمل تفاصيل هذا الذكر وما فيه من المعاني من استسلام لله تعالى وتفويض الأمر إليه، ولجوء إلى حماه، ورغبة في الخير وإعلان لمكنون الإيمان بالله ربا وبالقرآن كتابا ومنهجا، وبالرسول عليه وآله الصلاة والسلام نبيا .

إن في هذا الذكر منهج حياة يحدد به الإنسان مساره، وفيه خير ما يستقبل الإنسان به نومه الذي هو موت أصغر، ففيه إجابات عن كل ما يسأل عنه العبد بعد وفاته، ومن عاش على معاني هذا الذكر ومات عليها

الفصل الحادي عشر

سم الله وكل بيمينك

من أذكار الطعام والشراب

الذكر حالة تجعل المسلم في تنبه دائم ويقظة مستمرة، فلا يجعله شيء في غفلة حتى لو كان مما يحب ويشتهي، لأنه يرى في الأشياء آيات لله سبحانه تعرفه به ولا تحجبه عنه. وذلك ما يكون من شأن المسلم مع الطعام والشراب، وإذ قيل في المثل: "عند البطون تغيب الذهون"فذلك حال الغافلين لا حال المؤمنين الذاكرين.

وقد علمنا النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أذكارا نرددها حين نقبل على طعامنا وشرابنا تقينا من الوقوع في أسر شهوتهما. ومن أهم هذه الأذكار البدء باسم الله تعالى، وقد جاء ذلك في الحديث الذي رواه الشيخان عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما حين علمه النبي ﷺ آداب الطعام فقال له: "يا غلام، سم الله، وكل بيمينك وكل مما يليك ".

وتعددت الوصايا النبوية التي تنبه إلى ذكر اسم الله على الطعام والشراب، مع بيان فضل ذلك، فذكر اسم الله على الطعام والشراب يمنع الشيطان من مشاركة الإنسان فيهما .

وقد جاء بيان ذلك في الحديث الذي رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، ومما جاء فيه قوله ﷺ: "إن الشيطان يستحل من الطعام ألا يذكر اسم الله عليه". فذكر اسم الله تعالى يحصن الطعام من مشاركة الشيطان.

بل إن ذكر الله تعالى يبارك في الطعام ويجعل القليل منه يكفي الكثير من الآكلين.

روى أبو داود وابن ماجه عن وحشي بن حرب رضي الله عنه أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله: إنا نأكل ولا نشبع، قال: فلعلكم تفترقون (أي تأكلون فرادى)؟ قالوا: نعم، قال: فاجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه ".

الحديث يبين سببين للبركة:

الاجتماع على الطعام

وذكر اسم الله تعالى عليه .

ومن أذكار الطعام التي علمنا إياها الحبيب المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام حمد الله تعالى بعد الطعام والشراب، روى البخاري عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: "الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفي ولا مكفور".

إن المؤمن بعد أن يأكل لا يشغله الشبع، ولا يثقل لسانه عن حمد ربه، واستحضار نعمه عليه، وفي هذا الذكر حمد لله تعالى وإقرار بفضله ونعمته بما يسر من الطعام والشراب، وفي الذكر إقرار بدوام الإقبال على الله تعالى، الذي يكفي عباده ولا يحتاج إليهم، يستغني عنهم و لايستغنون عنه، فهو الكافي بما أنعم، والمروي بما سقى، ولذلك يستحق الرب سبحانه الشكر على ذلك ولا يستحق كفر النعمة كما يفعل الغافلون الجاهلون .

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أم رسول الله ﷺ قال: "من أكل طعاما فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا وسقانيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ".

إن هذا الحديث يعلمنا دوام اليقظة واستمرار التنبه إلى نعم الله تعالى علينا، وفيه إقرار لربنا بنعمة الطعام والشراب التي نجدها بين أيدينا فتسد جوعنا وتروي عطشنا، ونقر أنها من نعم الله علينا لا من حولنا وقوتنا، فمن الذي يخرج النبات من الأرض؟ ومن الذي ينزل من السماء ماءً فيسلكه ينابيع في الأرض ويجريه أنهارا؟ إنه الله تعالى الذي هيأ لنا في الأرض بفضله ونعمته ما تقوم به حياتنا من كل ما تحتاجه أجسادنا، وتلذ به أعيننا، وتشتهيه أنفسنا.

ومن المهم أن نتنبه إلى صيغة هذا الذكر، فالواحد منا لا يقول: الحمد لله أنني أكلت وشربت هذا بل يقول: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه، فنرد أمر الإطعام إلى الله تعالى، ونقول: وسقانيه، فالسقيا منه سبحانه.

ونستذكر في هذا المقام قوله تعالى في الحديث عن رحلة الشتاء والصيف: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ٤].

فالحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، نسأله أن نحسن شكره على نعمه التي لا تحد لتدوم، وأن يجعلنا من الذاكرين له في كل حين.

من الملاحظ أن كثيرا من الناس حين ينتهون من الطعام قد يتوجهون بالثناء الطيب إلى من أعده، والشكر إلى من أطعمهم، وذلك في الولائم والمناسبات الاجتماعية المختلفة، ومن الناس من إذا فرغ من طعام شغله إتقانه وجودته، يتوجه فكره إلى ما بعده من شراب أو حلوى أو فاكهة، وقد يغفل عن ذكر ربه المنعم سبحانه، الذي أطعمه وسقاه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وها هو النبي الحبيب ﷺ يرشدنا إلى ما ينبغي أن يكون منا بعد الفراغ من الطعام، وهذا الذكر الذي نقف عنده وسواه من أذكار الطعام والشراب لا تمنع من الثناء الحسن على من أعد الطعام من زوجة أو ابنة أو غير ذلك ممن يعدون الطعام، ولكن لا ينبغي أن يشغلنا الثناء على من أعد الطعام عن شكر ربنا الذي رزقنا إياه وأكرمنا به. وهذا ما نجده في هذا الدعاء النبوي الكريم من توجه إلى الله تعالى بقولنا: "اللهم أنت أطعمت وسقيت"ونلاحظ أن الدعاء لا يقول: أكلنا وشربنا بل يرد الإطعام والسقاية إلى الله تعالى اعترافا بفضله ومنته فبرحمته تنبت الأرض، وتثمر الأشجار، وتقدم لنا الأنعام والطيور والأسماك لحومها التي أحلها الله تعالى لنا، فهو الذي أطعم بالخلق والتسخير وبجعل الطعام حلالا لنا، وهو الذي أسقى الماء الذي تسوقه الرياح غيوما ثقالا تتبخر من البحار وتسقط أمطارها حيث يأمرها ربها، لتكون غيثا للناس والأنعام والنباتات وغيرها من الكائنات التي تحتاج الماء. ومما ورد في هذا الذكر:

"وأقنيت"، والإقناء هو العطاء الكثير الذي يرضي من يحصل عليه،

ومنه: "وهديت": ومن اللافت للنظر أننا ونحن نفرغ من الطعام نتذكر الهداية إلى الحق واستنارة القلب بالإيمان فنحمد الله على ذلك، ونذكره ونشكره.

ومنه: "وأحسنت": وإحسان الله تعالى ظاهر في حياتنا كلها يغمرنا في كل شؤوننا.

وبعد تعداد هذه النعم من إطعام وسقاية وإقناء وهداية وإحسان يأتي حمد الله تعالى على ذلك كله: "فلك الحمد على ما أعطيت."

وفي الذكر الثاني نجد الافتتاح بالحمد لله تعالى:

"الحمد لله الذي من علينا": وفي هذا الحمد اعتراف بمنن الله تعالى علينا ونعمه وعطاياه، ومن هذه المنن منة الهداية: "وهدانا". ونلحظ في هذا الذكر تقديم الحديث عن الهداية على الحديث عن الطعام والشراب الذي يأتي في قول: "والذي أشبعنا وأروانا". والحديث هنا ليس عن إطعام وسقاية فحسب بل عن شبع وري، وفي هذا دلالة على وفرة الطعام والشراب إلى حد الشبع الذي يأخذ به الجسم حاجته من الطعام. والارتواء الذي يأخذ به الجسم حاجته من الشراب من الماء وكل مشروب حلال. وبعد ذلك اعتراف بإحسان الله تعالى إحسانا شاملا: "وكل الإحسان آتانا": وفي الإحسان زيادة عن الحاجة، وعطاء فوق المطلوب، وذلك حالنا مع ربنا سبحانه الذي آتانا من كل ما سألناه بل هيّأ لنا كل ما في الأرض ليكون في خدمتنا وتلبية حاجاتنا، فلله الحمد في الأولى والآخرة وله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

لقد علمنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام إذا فرغنا من الطعام أن نحمده، وعلمنا كذلك إذا دعينا إلى طعام أن ندعو لمن دعانا وأطعمنا وسقانا. وقد علمنا كذلك أدعية خاصة ببعض الأطعمة والأشربة، ومن ذلك اللبن أي الحليب، مما يجعل له خصوصية بين الأطعمة والأشربة. ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي وابن السني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أكل أحدكم طعاما، وفي رواية ابن السني: من "أطعمه الله طعاما"، فليقل: اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه، ومن سقاه الله تعالى لبنا فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزئ من الطعام والشراب غير اللبن".

ولنلحظ الفرق بين الروايتين ودلالة كل منهما، فالأولى تقول: إذا أكل أحدكم طعاما وفيها إشارة إلى فعل الأكل، وفي الأخرى: من أطعمه الله طعاما، وفيها إسناد الإطعام إلى الله تعالى، وفي كل رواية زاوية مختلفة: إحداها تشير إلى الفعل البشري والأخرى تبين الإنعام الرباني.

وإذا كان الطعام المأكول من غير اللبن فقد علمنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام أن نسأل الله تعالى أن يبارك لنا فيه وأن يبدلنا خيرا منه، فما من طعام إلا وهناك ما هو خير منه من الأطعمة الأخرى، ويستثنى من ذلك اللبن، أي الحليب، ولذلك خصه النبي عليه وآله الصلاة والسلام بدعاء خاص وتعليل يبين تلك الخصوصية: "اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه"، فنحن نسأل البركة فيه والزيادة منه، والتعليل هو أن اللبن يغني عن غيره من الطعام ولا يغني عنه سواه، ونحن نرى أن الطفل يعيش سنتين من عمره وغذاؤه الأساس اللبن.

وفي هذا الهدي النبوي بيان أهمية اللبن في التغذية ومنافعه للجسم في مراحل العمر كلها.

ومن أذكار الطعام ما علمنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام أن ندعو به لمن أكلنا عنده، والدعاء نوع من الشكر ورد الجميل وزرع المودة في القلوب، روى مسلم عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: نزل رسول الله ﷺ على أبي فقربنا إليه طعاما ووطبة (قربة لبن) فأكل منها ثم أتي بتمر ثُم أتي بشراب فشربه ثم ناوله الذي عن يمينه فقال أبي، وأخذ بلجام دابته: ادع الله لنا، فقال: اللهم بارك لهم في ما رزقتهم، واغفر لهم وارحمهم".

ولا أريد الوقوف عند ما يمكن أن نستخلصه من آداب الطعام والشراب من هذا الحديث، ولكن أقف عند الدعاء: إنه دعاء بالبركة في الرزق لمن أطعم الطعام وذلك بعض حق من يكرمنا أن ندعو له ليعوضه الله تعالى خيرا، ومع البركة في الرزق نظرة إلى الآخرة بالدعاء بالمغفرة والرحمة، وفي المغفرة تجاوز عن الذنب وستر للعيب، وفي الرحمة تفضل من الله تعالى بقبول العمل، وثمرة المغفرة والرحمة جنة عرضها السماوات والأرض.

ومن الأدعية التي علمنا إياها نبينا عليه وآله الصلاة والسلام لمن أكرمنا بطعام أو شراب، ما رواه أبو داود وابن ماجه، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه فجاء بخبز وزيت فأكل ثم قال النبي ﷺ:

"أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة"

إن هذا الدعاء جاء بصيغة الخبر عن أمر واقع مع كونه دعاء، فهو يدعو لهم أن يفطر عندهم الصائمون، ولا يخفى فضل من فطر صائما فله مثل أجره، ويدعو أن يأكل طعامهم الأبرار، ومن أكل الأبرار طعامه نال الأجر ونال دعاءهم الطيب، وكسب صحبتهم، وهم أحباب الله تعالى، ثم يدعو لهم أن تصلي عليهم الملائكة، ومن صلت عليه الملائكة نال المغفرة والرحمة، وهل تصلي الملائكة إلا على الطيبين المقبولين عند الله؟؟

الفصل الثاني عشر

أستودع الله دينك

أذكار وداع المسافر

شرع لنا الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أذكارا تشمل أحوالنا كلها، ما كان منها راتبا وما كان عارضا، ومن أذكار الأحوال العارضة أذكار السفر . ولا يحفى أن السفر يغير من حال الإنسان وعلاقاته، ويخرجه عما ألف واعتاد. فهو قد يترك أهله كلهم أو بعضهم إن كان معه بعضهم، ويغادر بلده، ويترك ما يتعلق به من أشياء، ولذلك يكون في حاجة شديدة إلى الحفظ والرعاية . ومن غير الله تعالى يرعاه في الحل والترحال؟

كما أن المسافر تدور حول سفره الخواطر، وتصحب سفره المخاوف، فمن يودعه لا بد أن يدعو له بالحفظ من كل سوء، ولذلك كانت هناك أذكار للسفر يقولها المسافر وتقال له عند الوداع، تقر بها العين ويطمئن القلب على نفسه وعلى من يترك من أهل، وما يترك وراءه من مال وأشياء، ويكون ذلك حين يستودع الله تعالى أهله وماله، ويتركهما في رعايته سبحانه.

روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

"إن الله تعالى إذا استودع شيئا حفظه "

وهذا ما كان نبينا عليه الصلاة والسلام يفعله حين يودع مسافرا، روى أبو داود عن قزعة قال: قال لي ابن عمر تعال أودعك كما ودعني رسول الله ﷺ: "أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك".

إنه دعاء بالحفظ يقوله المودِع للمودَع، ويطلب به أن يحفظه الله تعالى في ثلاثة أمور هي أهم شيء في حياة الإنسان:

وأولها الدين، والإنسان بلا دين أقرب إلى الحيوان بل يتجرد من التكريم الإلهي له، فمن حفظ الله دينه حفظ إنسانيته وكرامته.

والأمر الثاني: الأمانة وهي كما قال الخطابي تشمل الأهل ومن

يتركه وراءه ممن هم في أمانته وعهدته، كما تشمل ماله الذي بين يدي أمينه عليه.

والثالث: خواتيم عمله التي هي أهم ما يعمله الإنسان لأن العبرة بالخواتيم.

ولهذا الحديث روايات متعددة ورد فيها أن النبي ﷺ كان إذا ودع أحدا أخذ بيده، وفي ذلك مودة من المودع لمن يودعه.

إن من يودع مسافرا يحمل همه في سفره ولذلك يدعو الله تعالى له بالحفظ.

ومن الأدعية النبوية التي تقال في وداع المسافر ما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: إني أريد سفرا فزودني، فقال: زودك الله التقوى، قال: زدني قال: وغفر ذنبك، قال: زدني، قال: ويسر لك الخير حيث كنت".

ما أكرمه من دعاء نبوي يكون زادا للمسافر يصاحبه في سفره، وتكون آثاره فيه خيرا وبركة، والتقوى خير زاد في الدنيا والآخرة، والمسافر بحاجة إليها لأنه يتوجه إلى بيئة جديدة غير بيئته، ويجد أناسا غير من ألفهم، والغربة قد تكون مدخلا من مداخل الشيطان التي تفتح للإنسان أبواب المعاصي، فمن تزود بالتقوى كانت لجاما لهواه.

ومغفرة الذنب من أهم ما يسعى إليه الإنسان الخطاء الذي يدعو ربه في كل حين أن يقبل توبته، ويستر عيبه ويقبل صالح عمله، والخير هو مطلب الإنسان العاقل وزاده في رحلته إلى الله تعالى، ومن يسر له الخير فقد فتح له باب الرضوان والله تعالى ينادي عباده بقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩﴾[الحج: ٧٧].

ومن الأدعية التي تقال للمسافر ما رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: "يا رسول الله إني أريد سفرا فأوصني، قال: عليك بتقوى الله تعالى والتكبير على كل شرف، فلما ولى

الرجل قال: اللهم اطو له البعد وهون عليه السفر".

إنها الوصية بتقوى الله تقال لكل مسافر، والتكبير على كل مرتفع من الأرض في تذكر لله تعالى وهيبته وعظمته ليهون على الإنسان ما يتوقعه من صعوبة الارتفاع ومشقته، وطي الأرض يعني عدم الإحساس بمشقة السفر وبعده، وهذه بعض معاناة السفر النفسية والجسدية.

وقد تحقق للإنسان في زماننا طي السفر بوسائل المواصلات الحديثة، فصار يقطع في ساعات ما كان يمضي فيه أياما بل شهورا.

وإذا كان المسافر بحاجة إلى ألوان من الزاد فإن الدعاء الطيب من أجود ما يتزود به.

زاد المسافر من الأذكار

روى أبو داود والترمذي والنسائي عن علي بن ربيعة قال: "شهدت علي بن أبي طالب رضي الله عنه أتي بدابة ليركبها فلما وضع رجله في الركاب قال: باسم الله، فلما استوى على ظهرها قال:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٣ - ١٤]،

ثم قال: الحمد لله (ثلاث مرات) ثم قال: الله أكبر (ثلاث مرات) ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، فقيل له: يا أمير المؤمنين: من أي شيء ضحكت؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل ما فعلت، ثم ضحك، فقلت: يا رسول الله: من أي شيء ضحكت؟ قال: إن ربك سبحانه يعجب من عبده إذا قال: اغفر لي ذنوبي، يعلم أنه لا يغفر الذنوب غيري"، وهذا لفظ أبي داود.

حين يركب المسلم ما سخر الله تعالى له من وسائل المواصلات، ما كان منها من الدواب الحية كالخيل والبغال والإبل والحمير، أو ما كان منها مما علم الله تعالى الإنسان صنعه من سفينة أو طائرة أو سيارة، حين يفعل ذلك فإن أول ما يفعله هو أن يبدأ بذكر اسم الله تعالى، اسم الله الذي يكون في ذكره استنارة للقلب، وبركة في الأمر الذي نفعله، ووقاية لنا من الشرور، ومعلوم أن كل أمر لا يبدأ بذكر اسم الله فهو أبتر مقطوع البركة.

وأنت حين تقول: باسم الله، تعلن لنفسك وللكائنات من حولك أنك لا تتصرف بحولك وقوتك بل بإذن ربك الذي سخر لك ما تركب لتطوى الأرض لك ويهون عليك السفر، ثم إنك حين تستوي راكبا وتستقر في وسيلة الركوب تستحضر الآية الكريمة التي من الله تعالى بها على عباده ببعض نعمه

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ ﴾ [الزُّخرُف: ١٢- ١٣]،

ومن هنا يبدأ الذكر الذي يقوله المسافر بعد استقراره في وسيلة النقل أو عليها فيقول:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ١٣ - ١٤].

سواء في ذلك وسائل النقل الحية من إبل وخيل وبغال وحميرهي من نعم الله المسخرة للإنسان أو الوسائل التي هي من تعليم الله له من المخترعات الحديثة: من سيارات وقاطرات وطائرات، فلولا هذا التسخير ما لانت لنا تلك الدواب، ولما وصل العقل البشري إلى اختراع هذه الآلات المخترعة.

ونحن في سفرنا نستذكر أنا في هذه الدنيا على سفر، وأننا لسنا فيها خالدين . وذلك ما يوحيه الذكر الذي علمنا إياه ربنا في قول:

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزُّخرُف: ١٤].

بعد هذا يأتي حمد الله تعالى ثلاثا، والحمد يكون على النعمة حين تراها وتتنعم بها، وفي التكرار تثبيت لإدراك النعمة، وإقرار حازم بها وسعي إلى القيام بحق شكرها.

وبعد الحمد ثلاثا تكبير الله تعالى ثلاث مرات، وفي هذا التكبير استحضار لعظمة الله سبحانه، وتليين لما تستخدمه من وسائل النقل التي قد يعسر عليك بعض أمرها، ولا يخفى ما يكون من وسائل النقل الحية والمصنوعة من عقبات ومشكلات تلين وتهون بتكبير الله تعالى الذي ييسر كل أمر عسير.

وفي ختام الذكر استحضار لتقصير العبد أمام نعم الرب سبحانه في أمور حياته كلها ومنها هذه النعمة التي يستخدمها في سفره، هذا الإحساس

بالتقصير يتجلى في قول المسافر: "سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"، ففي التسبيح تعظيم للرب سبحانه، الذي نفخ من روحه في هذا الإنسان وكرمه، ولكن الإنسان لم يقم بحق هذا التكريم كما يجب عليه، ولذلك يعترف العبد المؤمن المسافر بين يدي ربه بظلم نفسه ويطلب المغفرة من الله وحده الذي لا يغفر الذنوب غيره.

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ثم قال:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٣ - ١٤]،

اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل، وإذا رجع قال: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون "

تعددت الروايات الواردة في أذكار السفر، وتشابه بعضها مع زيادات ذات فائدة . فقد ورد من قبل حديث فيه ذكر الآية الكريمة التي علمنا ربنا قراءتها عند ركوب وسائل المواصلات مسافرين، وهي

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٣ - ١٤]

ومعها الحمد ثلاثا والتكبير ثلاثا، وفي هذا الذكر الذي بين أيدينا نجد الآية والتكبير ومع هما أذكار جديدة يتزود بها المسافر ويتوجه بها إلى ربه سبحانه، وما أجمل أن يسأل المسافر ربه سبحانه أن تكون ثمرات سفره برا وتقوى، والبر هو التوسع في أنواع الخيرات قولا وعملا بالتزام العبادات والإحسان إلى الناس بل إلى المخلوقات، والتقوى ضابط لمسيرة الإنسان تأمره بكل خير وتحجزه عن كل شر. وبعد هذا الطلب العام يأتي طلب خاص بتوفيقه إلى ما يرضي الله سبحانه من العمل.

وفي السفر متاعب مهما يتخذ الإنسان فيه من وسائل الراحة فالسفر كما ورد في الحديث الشريف قطعة من العذاب، ولذلك يتوجه العبد إلى ربه الذي بيده كل شيء أن يهون عليه السفر فلا يصادف فيه من العقبات والصعاب ما ينغص . وقد يكون السفر بعيد المسافة، وفي ذلك عناء ومشقة، وبيد الله تعالى أن يطوي البعد فلا يحس الإنسان بطول السفر، ويلمس الواحد منا ذلك، فإذا مر السفر من غير عقبات أو صعوبات في الإجراءات لم يحس الإنسان بطول السفر أو بنكده وعلى عكس ذلك تكون الشكوى.

وفي صحبة الله تعالى لعبده في السفر حفظ ووقاية وأنس يمنع الإحساس بالغربة أو الوحشة.

وحين يسافر الإنسان يترك أهلا من ورائه كان وهو مقيم بينهم يرعى أمورهم ويسد حاجاتهم، وها هو يتركهم ويسافر، وقد يقع من بعض من يخلفه لرعاية شؤونهم تقصير، ولذلك يستودعهم الله الذي لا تخيب ودائعه، ويسأل الله تعالى أن يكون الخليفة عليهم، ليكونوا في كنف رعايته وحياطة حفظه، فييسر أمورهم ويسر لهم من يرعى شؤونهم.

وفي السفر مشقة: "وعثاء السفر" والوعث هو الرمل، ولا يخفى أن المشي في الرمل متعب وهذا استخدام مجازي لمشقات السفر يصور متاعبه التي يستعيذ الذاكر بالله منها.

وفي السفر قد لا يتيسر للإنسان أن يعتني بنفسه كما اعتاد في إقامته، ولذلك قد يتغير منظره، وتصيبه (كآبة المنظر) وذلك ما يستعاذ منه ليظل منظر المسافر مشرقا حسنا لا تعلوه كآبة.

ويظل قلب المسافر معلقا بأهله وماله الذين يتركهم من ورائه مخافة أن يلحقهم في غيابه أذى أو سوء، وذلك ما يستعيذ بالله تعالى منه ليرجع إليهم وهم على خير حال.

وحين يرجع المسافر ويقبل على بلده علمه الرسول الكريم ﷺ ذكرا جميلا فيه الإحساس بالأمان "آيبون" وفيه الاعتراف بالتقصير في جنب الله تعالى "تائبون" وفيه تحديد للمسار بعد السفر "لربنا عابدون".

وروى النووي في الأذكار عن كتاب ابن السني أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أشرف على أرض يريد دخولها قال: "اللهم إني أسألك من خير هذه وخير ما جمعت فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما جمعت فيها، اللهم ارزقنا حياها، وأعذنا من وباها، وحببنا إلى أهلها، وحبب صالحي أهلها إلينا".

وروى النسائي وغيره عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لم يكن يرى قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: "اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأراضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ".

قلب المؤمن متعلق بربه، متحركا في سفره، أو مقيما في البلد الذي يتوجه إليه، وهو يعلم أن الخير والشر موجودان في كل مكان، وقد يستطيع معرفة بعض ذلك بالخبرة والعلم، وقد تخفى عليه أمور كثيرة، ولذلك يتوجه إلى الله تعالى بما علمنا إياه رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام، من أذكار تتعلق بالسفر، وفي الحديث الأول نجد الهدي النبوي في التعامل مع البلد الذي نقبل عليه، وفيه من السكان والمخلوقات ما لا يعلم خيره وشره إلا الله تعالى، والحديث يرشدنا أن نتوجه بالدعاء إلى الله تعالى العليم الخبير بهذا الدعاء الجميل:

"اللهم إني أسألك من خير هذه" (أي البلدة أو الأرض) "وخير ما جمعت فيها"، (أي من الكائنات الظاهرة والباطنة، الخفية والظاهرة) وفي مقابل سؤال الخير نجد استعاذة من نقيضه الشر، فيستعيذ من شرها وشر ما فيها مما جمعه الله تعالى من المخلوقات فيها، وطلب الخير يشمل كل نفع معنوي أو مادي .

ومن ألوان الخير التي خصها النبي ﷺ بالذكر: "اللهم ارزقنا حياها "والحيا: الخصب والمطر، وهذا يشمل ما تخرجه الأرض من النبات النافع، ويستعيذ في مقابل ذلك من وباها، أي الأمراض المستوطنة فيها التي قد تكون من الأمراض المعدية أو السارية التي قد يلتقطها من ينزل فيها من غير أهلها من المسافرين، ومع طلب خير البلد أو الأرض

والاستعاذة من شرها طلب يتعلق بالعلاقة مع سكانها بأن يلقى حب المسافر في قلوبهم فيحبه صالحو أهلها ويحبهم .

وفي الحديث الآخر توجه إلى الله تعالى ودعاؤه بربوبيته التي تظهر قدرته وهيمنته على السماوات وما تحتهن، والأرضين وما فوقهن، والشياطين ومن يستجيب لضلالهم، والرياح وما يحملن، إنه مشهد حاشد هذا الذي يرسمه هذا الدعاء، مشهد السماوات والأراضين، مشهد يعجز العقل عن الإحاطة به فيترك للخيال العنان لتصوره إن كان يستطيع ذلك، ولكن القدرة والهيبة تظللان المشهد ليأتي بعد ذلك السؤال من الرب المهيمن القدير: سؤال خير المكان وخير السكان من بشر وغيرهم مما في الأرض والاستعاذة من شر ذلك كله .

هذا الذكر وكل الأذكار التي يجري بها لسان المؤمن تكشف له عن بعض صفات ربه القدير الجليل المهيمن وتجعله على صلة دائمة به ليحس أنه يأوي إلى ركن شديد، يأوي إلى من بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

روى مسلم ومالك والترمذي عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من نزل منزلا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك"

وروى أبو داود عن عبد الله ين عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: "يا أرض، ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر ما يدب عليك، وأعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد "

لقد علمنا الرسول الكريم عليه وآله الصلاة أذكارا كثيرة نرددها في كل أحوال السفر، نقولها حين ننطلق من ديارنا، وحين نقبل على بلدة أو ننزل مدينة، وحين نبيت في البر إن كان سفرنا طويلا، ولم تكن في الطريق محطات استراحة، وقد كان هذا يحدث من قبل، وما زال يحدث في زماننا، وحيثما ذهب المسلم يعلم أن الخير والشر مرافقان له، وموجودان في ما يقبل عليه من مكان، وهو يعلم أن تحقيق النفع والضر

بيد الله تعالى، ولذلك لا ملجأ ولا منجى له إلا الله سبحانه وتعالى، وها هو نبينا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام يعلمنا استعاذة عامة حين ننزل مكانا غير مأنوس، فنستعيذ بالله تعالى من شر ما خلق، ذلك أن الإنسان دائم التوجس من شر الأشياء التي حوله، ذلك الشر الذي قد يأتيه بغتة أو يأتيه من حيث لا يحتسب، فيلجأ إلى الله تعالى العليم الخبير ليدفعه عنه .

ويعلمنا النبي الكريم ﷺ ذكرا آخر في سفرنا وفيه مناجاة للأرض التي نقبل عليها نازلين فيها، وفي هذا الذكر مناجاة الأرض التي تؤوي كائنات فوق سطحها وفي باطنها، وفيها خير كما فيها شر، ولنتأمل في هذه المناجاة التي تحول الأرض إلى كائن حي عاقل ينادى فيسمع، ويطلب منها فتستجيب بأمر الله تعالى وإذنه، فهو الذي خلقها وخلق من يناديها:

"يا أرض ربي وربك الله"

وما دام الأمر كذلك - اشتراكا في العبودية للرب الواحد سبحانه - فهي لا تملك إلا أن تستجيب بإذن الله وأمره ما يطلبه منها:

"أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك"

ولننظر في هذا المشهد، مشهد الاستعاذة، حيث تصبح الأرض الحاوية لما فوقها وما تحتها مخاطبة بكف شر ذلك كله، بحق الله تعالى الذي يستعيذ به مخاطبها، وبعد تعميم الاستعاذة يأتي التخصيص لعدد من المؤذيات التي تكثر في البرية:

"وأعوذ بالله من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب"

إنها المخوفات من حيوانات البر ومؤذياتها: "الأسد"، وهو من الحيوانات المفترسة، "والأسود" وهو الحية والعقرب كما ورد في كتب اللغة، وهما من أخطر الزواحف أو دواب الأرض التي تتسلل إلى الإنسان وتسبب له الأذى، "ومن ساكن البلد"وقد ذكر الخطابي أن المقصود بذلك سكان البرية من الجن، وكذلك قوله: "ومن والد وما ولد"أي من إبليس وما ولد من الشياطين.

إن الإيمان يعطي المسلم تصورا شاملا عاما، ويربطه في كل لحظة بربه سبحانه، هذا الإيمان يجعله في كل أحواله متوجه القلب إلى الله تعالى، ، سائلا إياه من كل خير، مستعيذا به من كل شر، وعيناه تجوبان أرجاء الوجود ظاهره وباطنه، ما كان في عالم الغيب وما كان في عالم الشهادة، والأذكار التي نرددها في كل أحوالنا تساعدنا على ذلك إن أحسنا تدبرها والاستفادة منها واستشراف آفاقها واستجلاء أنوارها.

الفصل الثالث عشر

ألوان من الأذكار

الاستخارة

روى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن، يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به، قال: ويسمي حاجته".

لا يخفى أن للإنسان في حياته حاجات لا تنتهي يرجو منها الخير ويدفع بها الشر، وللإنسان وسائل للوصول إلى ما يريد، منها خبرته بالأشياء، ومنها استشارة أهل الخبرة في الأمور التي لا علم له بها، ولكن واقع الحياة يدلنا على أن كثيرا مما نتوقع فيه الخير قد يخالف واقعه توقعنا، فكم من رجل تزوج امرأة وهو يرجو السعادة معها انتهت حياتهما بالطلاق، وكم من تاجر كان يرجو في صفقة ربحا وفيرا كانت الخسارة عاقبتها، وكم .. وكم...

وقد لجأ الناس من قديم لاستشراف الخير والحصول عليه إلى العرافين والمشعوذين الذين يدعون قراءة الغيب، ويشيرون على من يلجأ إليهم بالفعل أو الترك، وبالإحجام أو الإقدام. وقد جعل الإسلام للمسلم بابا إلى استشراف الخير يغنيه عن العرافين أو الدجالين، ذلك هو الاستخارة التي تعني أن تتوجه إلى ربك وتطلب منه سبحانه أن يختار لك هو ما فيه الخير بعد أن تضع حاجتك بين يديه، وتزيل من نفسك كل اختيار.

ولنقف وقفات تدبر مع دعاء الاستخارة: لقد بين راوي الحديث أن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام كان يعلم الصحابة رضي الله عنهم

الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن، وفي هذا دلالة على أهمية الاستخارة وحرص النبي عليه وآله الصلاة والسلام عليها. وكذلك إشارته إلى أنه عليه وآله الصلاة والسلام أرشدهم إلى الاستخارة في أمورهم كلها ومما جاء في الدعاء:

"اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب"

إنك بهذا الدعاء تستخير الله الذي يعلم حقائق الأمور، وتستعين بقدرته فهو على كل شيء قدير، وبعلمه، فهو عالم الغيب والشهادة وهو علام الغيوب، وتسأله من فضله العظيم، وهذه أمور لا يعلمها ولا يقدر عليها ولا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم بعد هذا التمهيد الذي فيه إقرار بأسماء الله الحسنى ذات الصلة بالهدف من الاستخارة، يأتي بيان حال العبد السائل بين يدي ربه عز وجل: إنه العبد العاجز عن تحقيق ما يريد، الجاهل بعواقب الأمور التي سيقدم عليها، وربه هو القادر على كل شيء، وهو علام الغيوب، ثم بعد هذا الإقرار وبيان الحال يأتي السؤال المباشر للأمر المطلوب، والتفويض لله تعالى، والطلب منه أن يختار لعبده ما فيه الخير:

"اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويحدد الداعي الأمر الذي يستخير بشأنه) خير لي .."

إلى آخر الدعاء، وأنت بهذا الدعاء التي تتوجه فيه إلى ربك تتبين أن لكل أمر يطلبه الإنسان أثرا في الدين والدنيا والآخرة، وفي عاجل الأمر وآجله، وقد يكون هذا الأثر خيرا فأنت تطلب من الله تعالى أن يحققه لك ويبارك لك فيه، كما قد يكون شرا فأنت تطلب من الله تعالى أن يصرفه عنك، وحتى لا يبقى لنفسك تعلق بما لا يتحقق تطلب من الله تعالى أن يكتب لك ما فيه خيرك وأن يصاحب ذلك شعور بالرضا.

الاستخارة صلاة ودعاء، وموقف تسليم بما يختار الله تعالى للعبد من أمر، والأصل أن يقوم الإنسان بالاستخارة لأموره بنفسه لا أن يطلبها من غيره كما هو معتاد في بعض البلاد أن يقول شخص لآخر: (بيّت لي استخارة!!)، وليس من لوازم الاستخارة أن تقرن برؤيا فإن كان ذلك فهي

إشارة ودليل، وإلا فثمرة الاستخارة هي ما يتحقق في الواقع ويكون خيرة الله تعالى لعبده، وعليه أن يرضى مااختاره له الله عز وجل، وليتذكر القول المأثور: الخيرة في ما اختار الله.

أقرب الدعاء إجابة

كثيرا ما قلت وأنا أنظر في أحوال من أتعامل معهم ولاسيما الطالبات في الجامعة: إن باطن كثير من الناس خير من ظاهرهم، وكم يظلم الناس بعضهم حين يحكمون على الظواهر، بل أقول: ما لنا يحكم بعضنا على بعض؟ وهل الحكم على الناس من شأننا؟ وهل نملك نحن أن نزكي أنفسنا؟ إن كان لنا من موقف فليكن موقف التناصح الذي يكون أساسه الحب لمن ننصح، والحرص على أن ينال من الخير الذي نلنا منه، ويتذوق حلاوة إيمان وطاعة تذوقناها.

أقول هذا وقد مررت منذ مدة بتجربة حين جاءت إحدى الأخوات إلى المكتبة تسأل عن كتاب في أسماء الله الحسنى ووجدت كتابا دلها عليه موظف المبيعات، وسألت أسئلة فجاء بها إلي لأجيب عما سألت.

ووجدت من كلامها، وهي امرأة جاوزت الأربعين وهي أم، أنها تبحث عن طريق يقربها من الله تعالى، وتبحث عن دعاء يستجاب لأنها تحس بعبودية لله تعالى، وقد رددت بعض ما تحفظ من الأدعية للدلالة على ذلك قالت: كنت من قبل لا أصغي إلى نداء الإيمان، كان سمعي مغلقا وكان بصري أعمى عن الله وآياته، أما الآن فقد تغيرت فلساني دائم الذكر لله تعالى وكثير من الأشياء يذكرني بالله، وقالت في نوع من الدفاع عن الذات: لا تنظر إلى ظاهري، وهي غير محجبة، فأنا قريبة من الله تعالى محبة له متعلقة به، وكأنها وهي تقول ذلك تريد إزالة شبهة عدم التدين عن نفسها التي قد يوحي بها المظهر، وفي ذلك إحساس بأنها تدرك الحق وتسعى إليه وهذا حال كثير من الناس الذين لو أحسنا التعامل معهم لاقتربوا من ربهم أكثر، وكان في كلامها نوع من الشكوى من أن الأهل لا يعودون بناتهم على الحجاب في الصغر ولو فعلوا لكان أمرا يسيرا عليهن في الكبر، وذكرت لها مؤكدا كلامها أنني ذات يوم قلت لإحدى الطالبات في الجامعة: أليس ارتداؤك للباس المحتشم خيرا من هذا اللباس الغربي؟ وكان رد فعلها الأول أن قالت متسائلة: هل عندك بنات؟ قلت لها نعم: لي ابنتان، قالت: هل هما محجبتان؟ قلت: نعم ولله الحمد وقد عودناهما على

ذلك منذ الصغر فقالت تلك الطالبة: نعم لو عودنا أهلنا على الحجاب من صغرنا لما كان صعبا علينا.

وأرجع إلى تلك المرأة التي أتحدث عنها التي قالت بنوع من الدفاع عن النفس: هل كانت أمهاتنا كافرات حين لم يكن محجبات؟ قلت: حاشا لله، ما دمن يؤمن بالله ويقمن بأركان الإسلام ولكنهن كن مقصرات بترك الحجاب، والله تعالى لا يظلم الناس مثقال ذرة.

كانت تريد من الكتب ما يقوي إيمانها، وما يقربها إلى ربها، وكان بحثها أكثر ما يكون عن كتب الدعاء، وكانت معها أختها، واشترت بعض الكتب ذات الطابع الإيماني الذي يخاطب القلب بيسر ويفتح له نوافذ النور ليبصر الحقيقة، ومن شدة إحساسها ذلك ورغبتها في الخير اشترت عددا من النسخ من أحد الكتب لأختها ولصديقة لها.

وسألتني عن دعاء تحفظه وتردده حول اسم الله الأعظم وهل يستجاب لها إن دعت به؟ وتذكرت أقوال أهل العلم وخلافهم في اسم الله الأعظم وقلت لها: إن أردت أن يستجاب لك فادعي الله تعالى دعاء المضطر لأن الله تعالى بين لنا ذلك في قوله:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢]،

وأضيف إلى ما قلته لها أن هناك أدعية نبوية ترجى إجابتها، وهناك أوقات ترجى فيها الإجابة: في السحر، وعقب الصلوات، وفي السجود، وبعد الأذان، وعند نزول المطر، وحين الإحساس برقة في القلب وخشوع لله تعالى وإحساس بالضعف والعجز أمامه، وأختم بقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

أذكار تفرج الكرب

تمر بالإنسان لحظات شدة وأحوال ضيق، وللناس في مواجهة الشدائد مواقف، فمنهم من يهرب من المواجهة فيغرق نفسه في المخدرات والخمور، والمؤمن العاقل يواجه الشدائد ويحاول الخلاص منها، ويلجأ إلى ربه بعد أن يقوم بما هو مطلوب منه. وقد علّمنا رسولنا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام أن نستعين على الشدائد والكرب بأذكار نرددها حين نقع في ضيق أو يصيبنا هم أو حزن.

وهذه الأذكار ليست كلاما يقال بل هي علاج نبوي ينزل على قلب المؤمن أمنا وسلاما، وهي مركب نجاة يخلص قائلها بصدق من الشدائد.

ومن هذه الأذكار ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب:

"لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم".

وفي رواية لمسلم: أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر قال ذلك، ومعنى حزبه أمر: نزل به أمر مهم أو أصابه غم.

إن هذا الذكر ليس ألفاظا تجري على اللسان بل هي طاقة تنطلق من كلماته لتعالج ما في النفس من احتقان، وتخلصها من الشحنات السلبية التي يولدها الكرب، وفي هذا حل لمشكلة مهمة بالتخلص من حمل الهم وضغطه على النفس والجسد، ومن فعل ذلك كان أقدر على إدراك واقعه والتعامل مع المشكلة التي تواجهه تعاملا سليما متزنا، ثم إن الإنسان وهو يواجه الهم ويتوجه إلى ربه يعلم يقينا أن الله على كل شيء قدير، وأنه قادر على إزالة كل هم وغم وكرب وحزن.

ولنقف مع كلمات هذا الذكر:

"لا إله إلا الله العظيم الحليم"

إنها كلمة التوحيد يبدأ بها الذكر الذي يتضمن في مطلعه اسمين من

أسماء الله الحسنى: العظيم والحليم .

وذكر اسم الله العظيم في مواجهة أي أزمة يصغّرها، ويجعلها تضعف في نفس الذاكر، وتضعف في الواقع كذلك، لأن وقع الأشياء في نفوسنا يتناسب مع تصورنا لها،

وذكر اسم الله تعالى الحليم يعني اللجوء إلى حلم الله تعالى بألا يكون الكرب النازل والضيق المحيط عذابا من عند الله، فيطلب الذاكر أن يتجلى عليه الله تعالى بحلمه وعفوه ولطفه.

وتتكرر في هذا الذكر كلمة التوحيد ثلاث مرات.

وتلوح لنا ربوبية الله تعالى للسماوات والأرض والعرش، وهو مشهد هائل تصغر أمامه أكبر المشكلات، وتهون أكبر المصائب، ويذكّر الإنسان بعظمة الوجود من حوله ليخرج من ضيق ما هو فيه إلى سعة الأرض والسماء والعرش وليجد فسحة في النفس توازي فسحة هذا المشهد الممتد.

ومن أذكار تفريج الكرب ما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان إذا أكربه أمر قال: "يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ".

والكرب: الشدة التي تمر بالإنسان، وإنّ توجّه الإنسان إلى ربه سبحانه في لحظات الشدة يدل على إيمانه بربوبيته، وأنه صاحب الأمر الذي بيده النفع والضر، وإنزال الخير ورفع الشر، وهو على كل شيء قدير، وهذا الإيمان يولد الشعور لدى الإنسان بالراحة والطمأنينة والثقة بأن كل شدة تزول، ويأتي من بعدها الفرج، (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا).

وفي هذا الذكر استغاثة بالحي الذي لا يموت، واهب الحياة لكل حي وبيده أمر العباد كلهم، والكرب والشدة قد يكونان من الأحياء الذين يكيدون فيكون من كيدهم الأذى، وفي الذكر استغاثة بالقيوم الذي لا يخفى عليه شيء من أمور عباده فهو الذي يمدهم بكل شيء وهو القائم على كل أمرهم.

وبعد الاستغاثة بهذين الاسمين الكريمين من أسماء الله تعالى يأتي الطلب: "برحمتك استغيث" والله تعالى يجيب من يستغيث به، ويرحم من يرجو رحمته.

ذكر يبدل الحزن فرحا

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أصاب عبدا هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحا".

هذا دعاء يفرج الهم ويزيل الحزن، ويفرج الضيق، وهو دعاء يتضمن معاني كثيرة يتمثلها العبد وهو يناجي ربه، سبحانه وتعالى.

إن لجوء الإنسان إلى ربه حين يقع في أزمة، أو يصيبه هم أو حزن، يؤدي إلى زوال الأزمة، وتفريج الهم والغم، لأنه لجوء إلى الحي القيوم الذي بيده مقاليد السماوات والأرض الذي قال سبحانه:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

إن هذا الذكر النبوي يتضمن مجموعة من المعاني ذات الصلة بالإنسان، والمعاني ذات الصلة بالله تعالى، وثمرتها إن أحسن الإنسان تمثلها واستجلاء أنوارها زوال الهم والغم. إن الذاكر يتذلل إلى ربه وسيده سبحانه بقوله: "اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك".

ومن للعبد يعينه غير ربه وسيده؟

ومن تجليات العبودية لله تعالى أن الذاكر يقر بضعفه وسلطان الله تعالى عليه، بشيء من التفصيل:

"ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل فيّ قضاؤك"

إن العبد يواجه قدرا فيه ضيق وهم وغم، وهو يعلم أن الأمر بيد الله تعالى، حكمه لا راد له، وأن ما يقضيه على العبد عدل لأن الله تعالى لا يظلم الناس شيئا، وما يصيب الإنسان من بلاء إنما هو بما كسب، ويعفو الله عن كثير مما يصدر عن العبد من الذنوب التي تستحق العقاب.

بعد هذا التمهيد يأتي السؤال: السؤال بالأسماء الحسنى المعلوم منها للناس جميعا أو ما خصّ الله تعالى به بعض عباده، أو ما لم يعلمه أحدا من عباده، بهذا يسأل العبد ربه سبحانه، والمطلوب المسؤول هو:

" أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي"

إن هذا الذكر لا يعلمنا أن نسأل الله تعالى زوال الهم مباشرة بل يجعلنا نتخذ إلى ذلك واسطة هي القرآن الكريم، هذا القرآن الذي هو وحي الله تعالى وحبله الممدود من السماء، ومائدته الموضوعة في الأرض، في هذا القرآن الهدى والنور والشفاء، وهذا ما يثبّته هذا الذكر من معان للقرآن في قلوبنا وعقولنا، وعاقبة هذا الدعاء حين يستجيب الله تعالى لعبده:

"إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحا"

وهل يبقى في قلب متصل بالقرآن مستنير به هم أو غم، لا، بل تبدو له الدنيا وألوان الابتلاء فيها بصورة مختلفة، صورة المدرك لحقيقتها، والعارف بغاية وجوده في الدنيا، وكيف يعيشها بكل أحوالها؛ ليكون له من بعد حسن المنقلب في الدار الآخرة.

الفصل الرابع عشر

أذكار الأحوال العارضة

الاستسقاء

إن المسلم يرى الأشياء من حوله فتذكره بالله ربه سبحانه وتعالى، وتكون دالته على الله تعالى، وهذا ما علمنا إياه رسولنا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام في الأذكار المتعلقة بظواهر الطبيعة. ومن ذلك ما ورد من أذكار الاستسقاء، حين يشح الماء، ويتأخر الغيث من السماء، ويعلم المسلم أن الأمر بيد الله تعالى عطاء ومنعا، فهو الذي ينزل الغيث، وهو الذي يمنع المطر، فيتوجه المسلم إلى ربه بالدعاء الذي فيه إقرار بربوبية الله تعالى، ويتوجه إليه بالعبادة.

ومن الأدعية التي علمنا إياها رسولنا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام ما رواه أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (أتت النبي عليه الصلاة والسلام بواك: فقال النبي ﷺ: "اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا مريعا نافعا غير ضار عاجلا غير آجل. فأطبقت عليهم السماء).

لقد جاء إلى النبي عليه وآله الصلاة والسلام مستغيثون من الجدب، فماذا فعل عليه وآله الصلاة والسلام؟ لقد توجه سريعا إلى من بيده خزائن كل شيء. ولنقف على مفردات هذا الدعاء الجميل: لقد طلب غيثا لا مطرا لأن الغيث هو المطر النافع الذي يسد الحاجة ويلبي المطلوب من غير أن تكون له آثار جانبية ضارة. والمريء هو الشراب السائغ الذي لا سوء فيه. وقد جاء في الدعاء الطلب السريع للغيث وأن يكون نافعا غير ضار، لأن الناس الذين طلبوا السقيا كانوا في شدة وهم بحاجة إلى إسعاف سريع لفقدانهم الماء، وطلب النفع ونفي الضرر لا يخفى ما فيه من حكمة لأن في المطر ريحا وسيولا وعواقب قد تسبب الأذى.

ومن ادعية الاستسقاء ما رواه أبو داود ومالك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ إذا استسقى قال: "اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك".

وانظر في صياغة هذا الدعاء ما أجملها وما أوجزها: لقد اضاف العباد من البشر وأضاف البهائم إلى كاف الخطاب"عبادك وبهائمك"، وفي

هذه الإضافة استرحام الرب سبحانه على عباده ومخلوقاته من البشر والبهائم الذين لا يستغنون عن الماء الذي به قوام حياتهم. ونزول المطر بالسقيا فيه نشر للرحمة على البلاد وانظر كيف أضاف البلد إلى كاف الخطاب كذلك (بلدك).

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ تأخر المطر، فخرج بالمسلمين إلى المصلى ومما كان في خطبة الاستسقاء أنه كبر وحمد الله عز وجل ثم قال: "إنكم شكوتم جدب دياركم واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم وقد أمركم الله سبحانه أن تدعوه ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، لا إله إلا اله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغا إلى حين ".

لقد قدم النبي عليه وآله الصلاة والسلام قبل طلب السقيا قراءة مطلع سورة الفاتحة، وفيه ذكر اسم الرحمن واسم الرحيم وفي ذلك استنزال للرحمة على العباد المحتاجين إليها، وفي الدعاء إقرار لله تعالى بحق الألوهية: "لا إله إلا أنت"، وفيه تذلل العبد تجاه الرب القادر الغني الذي بيده خزائن كل شيء: "لا إله إلا أنت أنت الغني ونحن الفقراء"، ثم بعد هذه المقدمات يأتي الطلب بنزول الغيث الذي يقيم به الإنسان أمور حياته حتى حين.

ما أجل وأعدل أن يكون قلب المؤمن معلقا بربه في السراء والضراء وفي كل حال، يسأله رفع الضر إن نزل، ويشكره على النعم حين تحل.

أذكار المطر والرعد والريح

يظل قلب المؤمن معلقا بربه سبحانه، يرى آياته فلا يخر عليها أصم أعمى بل يراها فيلهج لسانه بالدعاء بالخير وبدفع الضر، وهو يمضي في ذلك على منهج نبيه عليه وآله الصلاة والسلام الذي علمه أذكارا لكل الأحوال.

فحين ينزل المطر تجد لسان المؤمن ينطلق بالذكر النبوي الذي رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى المطر قال: "اللهم صيبا نافعا"

والصيب هو المطر النازل الذي قد يكون نافعا كما قد يكون ضارا والمؤمن يطلب خير هذا المطر النازل.

وإذا سمع الرعد لم يشغله عن ربه سبحانه صوته ولا ما يصاحبه ويسبقه من برق ومطر أو برد بل يردد قول النبي عليه وآله الصلاة والسلام الذي رواه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: "اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك ونجنا قبل ذلك ".

ولا يخفى ما في الرعد والصواعق من الرهبة التي تثير الخوف، والمؤمن إن خاف لجأ على ربه ليأمن. وهذا الذكر بين أن الرعد وما يضمه قد يكون من تجليات غضب الله التي قد تؤدي إلى القتل، ونحن نعلم ما في الصواعق من آثار ضارة حين تصيب البشر أو الأشياء بشحناتها الكهربائية، فهي أداة قتل، وقد تكون عذابا مهلكا يصيب البلاد والعباد بالخراب، ومع دفع الضر يكون طلب النجاة من الغضب القاتل والعذاب المهلك، فإذا كان القلب يرتجف من الرعد والصواعق فإنه يأمن بذكر ربه، وبدعائه وطلب النجاة منه.

ومن الظواهر الطبيعية التي علمنا إياها الرسول الكريم عليه وآله الصلاة والسلام أذكار الريح إذا اشتدت، وها هو النبي عليه الصلاة والسلام يبين لنا حقيقة الريح وكيف نتعامل معها، وذلك في ما رواه أبو

داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الريح من روح الله تعالى تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها".

الريح لا تتحرك بنفسها بل تتحرك بأمر خالقها سبحانه فتكون رحمة حين تأتي بالغيث وتكون عذابا حين تكون إعصارا مدمرا، ولذلك حين تهب لا يسبها المسلم لما يجد من بعض الآثار السلبية منها بل يسأل الله تعالى خيرها، ويستعيذ بالله من شرها، وهو بذلك يلجأ إلى من يملك النفع والضر، ويملك أن يلجم الريح عن الأذى ويحركها بكل خير.

وروى الترمذي وغيره عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا الريح، فإن رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به".

إن تكرار النهي عن سب الريح يبين أنها كانت عادة عند العرب أن يسبوها، والريح جندي من جند الله تعالى مأمورة بأمره فإذا توقع الإنسان منها شرا ورأى أنها اشتدت لم يلجأ إلى سبها بل يلجأ إلى ربها وربه سبحانه الذي أرسلها بأمر منه لأمر يعلمه، وهو أعلم بعباده وما يستحقون، والمؤمن يطلب من ربه سبحانه ما بينته له الأذكار النبوية في شأن الريح فيطلب خيرها وخير ما فيها وخير ما هي مأمورة بفعله، كما يستعيذ بالله تعالى من شرها وشر ما فيها وشر ما هي مأمورة بفعله.

وهكذا يظل قلب المؤمن متعلقا بربه سبحانه وهو يرى مظاهر الطبيعة العارضة كما يتعلق به في كل حال من أحواله الدائمة.

من أذكار ارتداء الثياب الجديدة

قلب المؤمن معلق بربه سبحانه، يذكره في كل حركة وسكنة: لأنه يرى تجليات نعمائه عليه في السراء، وتجليات الابتلاء في الضراء.

وقد علمنا الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ذكر الله تعالى في كل حال حتى في الأمور العارضة التي قد لا تلفت النظر، ومن ذلك ما ورد من أذكار حين يلبس الإنسان الثياب الجديدة، وهو أمر معتاد في حياة الناس، ولكن للمسلم معه شأنا آخر، فما هو عند الناس من العادات المألوفات يتحول عند المؤمن إلى عبادات يذكر ربه فيها ويؤجر .

روى النووي في الأذكار عن كتاب ابن السني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا لبس ثوبا سماه، (أي ذكر اسمه مع الدعاء الآتي سواء أكان قميصا أم رداء أم عمامة) يقول: "اللهم إني أسألك من خيره وخير ما هو له، وأعوذ بك من شره وشر ما هو له".

وقد يسأل سائل: وهل للثياب خير وشر؟ والجواب: نعم، ولولا ذلك ما قال النبي ﷺ ما قال. ومن ألوان خير الثياب أنها تستر، وأنها تجمل، وأنها تظهر نعمة الله تعالى على عبده، وأما شرها فإنها قد تكون سببا في الكبر والغرور والتعالي عن الناس وحب الشهرة وإبراز الذات، كما أن من شر بعض الثياب أنها قد تسبب الحساسية لدى بعض الناس ويكون منها أذى للجسد.

ولا يخفى أن في هذا الذكر تعلقا للقلب بالله تعالى الذي بيده كل شيء، وعنده خزائن كل شيء، ولذلك يتوجه المسلم إليه طالبا منه الخير ومستعيذا من الشر.

وروى النووي في كتاب الأذكار عن ابن السني عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من لبس ثوبا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا الثوب ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر الله له ما تقدم من ذنبه".

نحن أمام موقف نجد فيه المؤمن لا يرى لنفسه فضلا في ما يلبس بل

يرد الفضل إلى ربه سبحانه ويبرأ من حوله وقوته لأن ما به من نعمة هو من الله تعالى، ولذلك يتوجه إلى ربه سبحانه بالحمد على أن كساه الثوب ورزقه إياه من غير حول منه أو قوة.

ولا يخفى أن قائل هذا الذكر قد يكون اشترى الثوب بماله ولكنه يتناسى ذلك لأن المال مال الله. وثمرة هذا الذكر المحدود الكلمات، وثمرة الموقف من نعمة الثوب هو ثواب كبير قد لا يتناسب في النظر القاصر مع حجم الثوب ولكنه يتناسب مع موقف القلب من الرب المنعم سبحانه وتعالى. فمن قال ذلك الذكر غفر له ما تقدم من ذنبه، وهو أجر يوازي أجر صيام رمضان أو قيام ليلة القدر ومن شاء فليراجع الأحاديث الواردة في ذلك.

إنه أجر التقوى، أجر موقف القلب من النعمة، وثمرة منهج حياة وسيرة يمضي عليها الإنسان وشعار حياته:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وروى أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "كان رسول الله ﷺ إذا استجد ثوبا سماه باسمه: عمامة أو قميصا أو رداء، ثم يقول: اللهم لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له".

وفي رواية رواها الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " من لبس ثوبا جديدا فقال: "الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الذي أخلق فتصدق به كان في حفظ الله، وفي كنف الله عز وجل وفي ستر الله حيا وميتا".

نحن مع هذا الذكر في موقف قلبي يتجلى بحمد الله تعالى على رزقه الثوب.

وفيه بيان لوظيفة الثياب وهي الستر: "أواري به عورتي".

والزينة: "وأتجمل به في حياتي".

ثم هناك موقف عملي، فقد رزقك الله لباسا جديدا فلا بأس أن تستغني عن لباس قديم تستر به عورة من لا يجد الجديد من الثياب، وتنال أجرا كبيرا.

ومن عرف نعمة الله تعالى عليه فحمده وستر عبدا من عباد الله تعالى فله هذا الأجر العظيم: أن يكون في حفظ الله تعالى ورعايته وستره حيا وميتا.

وإذا كنا في الأدعية السابقة أمام دعاء المرء لنفسه فهناك هدي نبوي فيه دعاء لمن يلبس الجديد من الثياب، من ذلك ما ورد في صحيح البخاري عن أم خالد رضي الله عنها قالت: أتي رسول الله ﷺ بثياب فيها خميصة، قال: من ترون نكسوها هذه الخميصة؟ فأسكت القوم، فقال: ائتوني بأم خالد، فأتي بي إلى النبي ﷺ، فألبسنيها بيده، وقال: أبلي وأخلقي، مرتين".

وهذا الذكر يعلمنا ما نقوله لمن نراه لبس ثوبا جديدا، وفيه دعاء بطول العمر ليلبس الثياب الجديدة ويبليها مرات كثيرة.

وروى ابن ماجه وابن السني عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى على ابن عمر ثوبا فقال: أجديد أم غسيل؟ فقال: بل غسيل، فقال: "البس جديدا وعش حميدا ومت شهيدا سعيدا ".

كان النبي ﷺ يتابع أصحابه، وها هو يرى على ابن عمر ثوبا يلفت النظر فيستفسر عنه أعليه رونق الثوب الغسيل أم هو جديد، ثم لما تلقى الجواب جاء دعاؤه الطيب لابن عمر بأن يمتع بأمور طيبة: بلباس جديد، وذلك يدل على رخاء العيش والعيش الحميد، وبحسن السيرة والذكر الطيب وبالموت السعيد شهيدا، وما أجملها من خاتمة أن يختم الإنسان حياته بشهادة في سبيل الله ينال بها حياة خاصة في عالم البرزخ، ومنزلة عالية في الجنة.

العطاس وأذكاره

لم يترك نبينا عليه وآله الصلاة والسلام حالا أو موقفا أو زمنا إلا علمنا ذكرا نذكره فيه لنكون على صلة دائمة بربنا سبحانه وتعالى، ومن ذلك أذكار أحوال تعرض للإنسان ومنها العطاس.

وقد وردت أحاديث في العطاس وآدابه ومنها قوله ﷺ في ما يرويه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: "إن الله تعالى يحب العطاس ويكره التثاؤب فإذا عطس أحدكم وحمد الله تعالى كان حقا على كل مسلم سمعه أن يقول له: يرحمك الله، وأما التثاؤب فإنما هو من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان".

وروى البخاري عن أبي هريرة أيضا عن النبي ﷺ قال:"إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له يرحمك الله فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم".

وقد يسأل سائل: لماذا يحب الله تعالى العطاس ويكره التثاؤب؟ والجواب عن حال الجسم عند العطاس نجده لدى الأطباء في تحليل سبب العطاس وسبب التثاؤب، ولكن لا يخفى أن العطاس يسبب الحيوية والنشاط للإنسان، والتثاؤب مدعاة للكسل والخمول.

ولننظر في أذكار العطاس، العاطس يقول: الحمد لله، ويفترض أن هذا الحمد على خير تحقق أو شر دفع، ويبدو أن الإنسان في حال العطاس يكون في لحظة خطر يحمد الله تعالى على نجاته منها.

وليس الأمر مقصورا على العاطس فهناك دعاء يتلقاه ممن يسمعه يحمد الله تعالى فيقول: "يرحمك الله": والدعاء بالرحمة يكون لمن يقع في أزمة، ولنلحظ صيغة الفعل الذي جاء مضارعا لا ماضيا وفي الفعل المضارع طلب استمرار الرحمة للعاطس في كل أحواله. ويأتي الرد من العاطس: "يهديكم الله ويصلح بالكم"، وما أجمله من موقف عارض لكنه

يتحول إلى موقف دعوات متبادلة بين الإخوة في الدين، هذا يدعو لأخيه بالرحمة وذاك يرد عليه بالدعاء بالهداية، وهو دعاء يتضمن طلب الاستمرار على الصراط المستقيم: عقيدة صحيحة، وعبادة متقبلة، وسلوكا سليما.

ومع الدعاء بالهداية دعاء بصلاح البال، والهداية سبب لطمأنينة النفس في الدنيا ودخول الجنة في الآخرة، وقد قال الله تعالى في أهل الجنة:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢]،

وإصلاح البال يعني إزالة ما يشوش الخاطر من هم أو حزن أو خوف أو قلق.

كل هذه المعاني ترد في معاني الدعاء في موقف عطاس.

وقد يكون العطاس ناتجا عن الرشح و الزكام فيكون عرضا لمرض ومن كان هذا حاله بين النبي عليه وآله الصلاة والسلام كيف نتعامل معه: روى أبو داود والترمذي عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: "عطس رجل عند رسول الله ﷺ وأنا شاهد، فقال رسول الله ﷺ: يرحمك الله، ثم عطس الثانية أو الثالثة فقال رسول الله ﷺ: يرحمك الله، هذا رجل مزكوم ".

ويوضح الأمر حديث ابن السني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا عطس أحدكم فليشمته جليسه، وإن زاد على ثلاث فهو مزكوم، ولا يشمت بعد ثلاث".

وهذا هدي نبوي في التعامل مع العطاس إذا كان ناتجا عن مرض .وإن كان العاطس غير مسلم يقال له إن عطس: يهديكم الله ويصلح بالكم بدلا من: يرحمك الله.

وفي ذلك حديث ورد عند أبي داود والترمذي.

وللعطاس آداب لا يعرفها كثير من الناس، يبينها فعل الرسول ﷺ

وقوله، أما الفعل فيبينه هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن حال النبي ﷺ عند العطاس: (كان إذا عطس غطى وجهه بيده أو بثوبه وغض بها صوته) رواه الترمذي وأبو داود.

وأما القول فحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا عطس أحدكم فليضع كفيه على وجهه، وليخفض صوته" رواه الحاكم.

ولا يخفى أن العطاس ينتج عنه انتشار رذاذ من المخاط الذي ينتشر في الهواء، مما يسبب الأذى للآخرين، وقد يؤدي إلى تلويث الطعام إذا كان العطاس في المطبخ أثناء إعداد الطعام. من أجل ذلك شرع للعاطس أن يغطي وجهه بيده أو ثوبه أو بمنديل. ومن الملاحظ أن من الناس من يصدر عند العطاس صوتا عاليا يؤذي من حوله وذلك ما شرع اجتنابه، ولعل تغطية الوجه بالوسائل المختلفة يسهم في تخفيف صوت العطاس.

إنه الذكر والصلة الدائمة بالله تعالى في كل حال ووقت: يردد اللسان، ويعقل الجنان، ويظل الإنسان على بصيرة وهداية في طمأنينة قلب في الدنيا ونور وسداد يمتدان إلى أن يدخل الجنة.

من أذكار الزواج

لا يشغل المؤمن عن ذكر الله حزن ولا سرور، بل هو في أحواله كلها ذاكر لله، ففي الحزن يرجو رحمة ربه، وفي السرور يشكره على نعمته.

ومن الأذكار التي علمنا إياها الحبيب المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام الدعاء لمن تزوج، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا رفأ الإنسان (أي تزوج) قال: "بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير" .

إن هذا الدعاء خير ما يدعى به لمن يتزوج، فالدعاء بالبركة يعني نيل الخير الوافر الزائد المتكاثر الذي لا حد له، وقوله: "بارك الله لك": أي في زوجك وأعطاك خيرها ودفع عنك شرها.

"وبارك عليك": أي ألقى عليك البركة لزوجتك فيك فنالت خيرك ودفع عنها شرك. وأي دعاء أجمل من أن تكون الأسرة الجديدة مباركة في كل أمورها؟

ويتوج هذا الدعاء بقول: "وجمع بينكما في خير" إن الزواج اجتماع بين زوجين، ولمّ شمل عروسين، وكل اجتماع لا يخلو أن يكون فيه خير أو شر أو خليط منهما، وهذا الدعاء يطلب به أن يكون اجتماعهما على خير. وإذا كان الأمر كذلك مع البركة التي سبق الدعاء بها كانت أسرة سعيدة لا حظ للشيطان فيها لأنها تقوم على دين الله ومنهجه، وعلى كلمة الله وبركته، فلا شقاق ولا نزاع ولا نكد ولا هم.

ومن أذكار الزواج التي يدعو بها الزوج والزوجة كلاهما ما رواه أبو داود وابن ماجه وابن السني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إذا تزوج أحدكم أو اشترى خادما فليقل: "اللهم إني أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه" وفي رواية: "ثم ليأخذ بناصيتها (أي يضع يده على مقدمة الرأس) وليدع بالبركة في المرأة والخادم".

إنه التوجه إلى الله تعالى الذي خلق عباده ويعلم ما فيهم من خير أو شر، فهذا الزوج، وكذلك المرأة، كل يدعو بهذا الدعاء، فيسأل الله تعالى خير ما في شريكه من خلق ومعاملة وحسن عشرة وخير ما في طبعه من الصفات التي جبله عليه، ويستعيذ بالله من ضد ذلك من الصفات الشريرة ما كان منها مكتسبا وما كان أصيلا، وفي وضع اليد على الناصية تواصل جسدي وتحبب وود يكون بين الزوجين في أول لقاء يجمع بينهما في الحياة الزوجية.

ويظل ذكر الله تعالى رفيق الزوجين في حياتهما في الأحوال كلها حتى في العلاقة الجسدية التي بين الرجل والمرأة، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: "لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فقضي بينهم ولد لم يضره الشيطان أبدا".

إن المسلم يأتي شهوته باسم الله ليكون له فيها الأجر، فهو ينوي بها التعفف عن الحرام، ويدعو الله بالحماية من الشيطان له ولذريته إن قدر له ولد. وفي هذا الذكر استحضار للعدو الأول والأكبر في هذه الحياة: الشيطان الذي يستزل الإنسان ويسعى إلى غفلته وهلكته وقيادته إلى النار.

أذكار المولود الجديد

علمنا رسولنا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام أذكارا للأحوال كلها ما كان منها راتبا وما كان عارضا، ومن الأذكار العارضة الأذان في أذن المولود، روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ أذّن في أذن الحسين بن علي حين ولدته فاطمة، بالصلاة " قال الترمذي: حسن صحيح

وقال النووي في الأذكار: "يستحب أن يؤذن في أذنه اليمنى ويقيم الصلاة في أذنه اليسرى"، ولكن يبدو أن الثابت عن النبي ﷺ هو الأذان وأما الإقامة فلعلماء الحديث فيما روي فيها مقال.

وما أجمله من استقبال للوليد الجديد أن يسمع أول ما يسمع الأذان بما فيه من تكبير لله تعالى، ويسمع الشهادتين اللتين هما مفتاح الفوز في الدنيا والآخرة، والدعوة إلى الصلاة والدعوة إلى الفلاح. ولا يقولن أحد إنه طفل صغير، فإنه إنسان مكتمل يملك أدوات التلقي ويختزن ما يمر به من تجارب. إن الأذان لا يخاطب جسد الطفل بل يخاطب العقل والقلب والروح، وسائر اللطائف التي أودعها الله تعالى فيه، ويخاطب كينونة الإنسان أيا كان عمره وحجمه.

حمد على العافية

من الأمور العارضة في الحياة أن يرى الإنسان مبتلى في جسده؛ في عاهة أو إصابة أو غير ذلك، وكل واحد منا معرض للابتلاء ولذلك علمنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام ذكرا نقوله في هذا الموقف، روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "من رأى مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا، لم يصبه ذلك البلاء".

وفي رواية للترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من رأى صاحب بلاء فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا؛ إلا عوفي من ذلك البلاء كائنا ما كان ما عاش".

نحن في هذا الذكر أمام صاحب بلاء نراه فنتذكر أن الذي ابتلاه هو الله تعالى، فنتوجه إلى ربنا الذي ابتلاه فنحمده على أن عافانا من ذلك الابتلاء.

إنها حياة القلب الذي يرى الأشياء فلا تحجبه عن الله تعالى، ولذلك ينطلق اللسان بما يناسب الموقف:

"الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا": إنه الحمد على العافية من البلاء، والتفضيل على كثير من المخلوقات بأمور كثيرة.

والعافية والتفضيل نعمتان تستحقان حمد المنعم سبحانه، وثمرة هذا الموقف، موقف تذكر نعمة الله تعالى وحمده على العافية أن يحفظ الله تعالى عبده من أن يصيبه البلاء الذي رآه وردد هذا الذكر في موقف رؤيته له، وتلك نعمة أخرى من الله تعالى بامتداد العافية.

ولا يخفى أننا لا نردد هذا الذكر على مسمع من نرى ممن هو في ابتلاء، ففي ذلك إيذاء نفسي له، وإن من حقه علينا ألا نشعره بما يولد

الحساسية في نفسه أو يلفت نظره إلى ما هو فيه، بل نحن نردد هذا الذكر سرا وبعيدا عن سمعه، نردده أكثر من مرة، ونحن نرى ألوان النعم الربانية علينا فيخف علينا ما قد يصيبنا من ألوان ابتلاء أخرى تهون أمام ما نراه ويصدق عندنا المثل السائر: "من رأى مصيبة غيره هانت عليه مصيبته".

ذكر في السوق

من الأذكار التي علمنا إياها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ما نقوله عند دخول السوق. والسوق مكان للتجارة تذكر فيه البضائع والأسعار، والدرهم والدينار، وقل أن يذكر فيه اسم الله تعالى، ولذلك كان حال السوق كما قال النبي ﷺ في ما رواه مسلم: "أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها".

وسبب كون الأسواق شر بقاع الأرض أنها بيئة غفلة ونسيان لذكر الله لما يحدث فيها من غش وخداع وتطفيف للكيل والميزان. ولا يخفى أنه لا غنى للناس عن الأسواق؛ ففيها أمر معاشهم ومنها يشترون حاجاتهم، ولذلك كان من فضل ذكر الله تعالى في السوق التي هي بيئة غفلة ما يبينه الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة ".

إنه أجر كبير يترتب على هذا الذكر في السوق وهو أجر يذكرني بما أخبر به النبي ﷺ من أن ذاكر الله تعالى في الغافلين كالحي بين الأموات؛ كما ورد في الحديث المتفق عليه: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت".

إن في ذكر السوق توجها إلى الله تعالى ونفيا للشريك عنه، في بيئة السوق التي قد نجد فيها عبد الدرهم والدينار وعبد الدكان، وكثيرا ممن جعلوا أنفسهم عبيدا لغير الله.

وفي هذا الذكر ذكر للحياة والموت ينزع الإنسان من الوقوع في أسر اللحظة: لحظة البيع والشراء والنظر في الربح الوفير، والبضائع التي تسلب العقول، وتشغل القلوب، وفيه رد الخير إلى الله تعالى الذي بيده وحده الخير كله وهو على كل شيء قدير.

باسم الله

من الأذكار العارضة التي علمنا إياها الرسول الكريم ﷺ ما نواجه به ما يعرض لنا من أحوال تكدرنا لخلل في المركبة في موقف حرج، أو تعثر في أمر من الأمور التي نحب أن تسلك أمورنا فيها، ولمثل هذا الحال أسوق ما رواه أبو داود في سننه عن أبي المليح التابعي عن رجل من الصحابة قال: كنت رديف النبي ﷺ فعثرت دابته فقلت: تعس الشيطان فقال: لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت ويقول: بقوتي، ولكن قل: باسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب"

إنه موقف عثرت فيه دابة، ولنقس عليه أي موقف شبيه، ولنتذكر ما نسمعه من الناس من ألفاظ.

والحديث يبين لنا أننا إذا اغتظنا ونسبنا الفعل إلى الشيطان تعاظم وأحس بنشوة النصرعلينا، وإذا ذكرنا اسم الله تعالى تصاغر. إنه أمر عارض أن يتعثر أحدنا أو يقع منا إناء فينكسر، أو تتعطل السيارة، فعلينا أن نقابل ذلك بذكر اسم الله استعانة به، وتسليما لأمره، وخزيا للشيطان الرجيم الذي وصف ربنا كيده بالضعيف، لنواجه أي أمر عارض يسوؤنا باسم الله، وبالترجيع والدعاء أن يأجرنا ربنا في مصيبتنا ويخلف لنا خيرا منها، ولنعلم أن ما أصابنا لون من الابتلاء نؤجر بالصبر عليه.

قول: "باسم الله" يصغر الشيطان حتى يكون أصغر من الذبابة فتنكسر حدة تعاظمه ويعلم أنه لا طاقة له بمن استعان بالله تعالى وتوكل عليه.

جزاك الله خيرا

ونمضي مع الهدي النبوي في أذكار الأحوال العارضة التي تمر بنا، ومن ذلك ما نجده من تقديم بعض الناس خدمات لبعض في مواقف مختلفة، ونجد الناس يحرصون على أن يردوا على المعروف بمثله، فكل ما يقدم إليك هو دين عليك، وكما قال المثل: "كل شيء قرض ودين حتى دموع العين"، وقد علمنا رسولنا الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام ما نقوله لمن يحسن إلينا ويصنع لنا معروفا، وبين لنا أجر ذلك الدعاء . روى الترمذي عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: "من صُنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرا فقد أبلغ الثناء".

من الناس من يحسن إليك وعينه تتطلع إلى ما يكون منك ردا على ما كان منه، ومنهم من يصنع الخير ولا يرجو إلا ثواب الله تعالى، فجزاء الأول أن ينال من المقابل المادي مثل ما قدم أو قريبا منه، وأما الآخر فلا يكافئه إلا هذا الدعاء الذي علمنا إياه النبي الكريم ﷺ، فنحن بهذا القول نعلن عجزنا عن مكافأته، ونحيل تلك المكافأة إلى ربنا الكريم سبحانه الذي يعلم السر وأخفى ويعلم ما يستحق ذلك العبد من الأجر، وذلك بقولنا له: "جزاك الله خيرا ".

ذكر أداء الدين

من الأمور العارضة في الحياة أن تضطر إلى دين، ومن حق من استدنت منه أن تحسن له الوفاء كما أحسن إليك بالعطاء عند حاجتك، وحتى لا يكون السلوك السلبي منك سببا في قطع الخير عن غيرك، فكم من رجل كريم انكمش كرمه عن الناس وتوقف عن الدين لما لقي من سوء ممن اقترض منه فلم يحسن الأداء، والنبي عليه وآله الصلاة والسلام يعلمنا كيف نسلك حين نرد إلى من اقترضنا منه ماله وذلك في الحديث الذي رواه النسائي وابن ماجه وابن السني عن عبد الله بن أبي ربيعة رضي الله عنه قال: استقرض النبي ﷺ مني أربعين ألفا فجاء مال فدفعه إلي وقال: "بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء".

وفي هذا الحديث تعليمان نبويان: الأول الدعاء لمن أقرضنا، والآخر تعليم حسن الأداء وآدابه ليكون المسلم في قمة الذوق في كل أحواله. ويلفت النظر في الدعاء أن البركة في الأهل سبقت سؤال البركة في المال، فأهل الإنسان أغلى من ماله، وهم قرة عينه، وما نفع المال بلا أهل؟؟

ذكر باكورة الثمر

من الأحوال العارضة التي علمنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام ما نقوله عند رؤية باكورة الثمار، وقد كان الناس في العهد النبوي يحرصون على تقديم بواكير ثمارهم إلى النبي عليه وآله الصلاة والسلام حبا له ورغبة في نيل الأجر العظيم من الله تعالى على تكريم نبيه ﷺ ولينالوا بركة الدعاء النبوي.

روى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله ﷺ فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال **اللهم** بارك لنا في ثمارنا وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا ومدنا **اللهم** إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه قال ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر" قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

إن في رؤية باكورة الثمر تفاؤلا بموسم خير وعطاء رباني، يتجلى على أغصان الشجر التي هي مصانع تدور بقدرة الله تعالى وحكمته، وتقدم إلينا أنواع الثمرات التي في كل منها آية من آيات الله تعالى، وهذا الذكر النبوي يعلمنا ما نفعله حين يقدم لنا أوائل الثمر فندعو بالبركة لنا ولمن قدمه إلينا، وندعو بالبركة والخير لبلادنا عامة. وفي الحديث استحضار لدعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمكة المكرمة بالبركة والرزق الوفير، ودعاء للمدينة النبوية بمثل ذلك. وفي إعطاء الثمر لأصغر الموجودين من الولدان تطييب لخاطره وتأليف لقلبه وإيثار له ومراعاة أنه قد يكون أول مرة يأكل فيها هذا الثمر لصغر سنه، ولكونه أكثر الموجودين اشتهاء له ورغبة في تجربته.

إن في الأذكار تربية للنفوس في دروس عملية نرجو أن نعيها ونعمل بها في حياتنا.

ذكر اتقاء الحسد

قيل: كل ذي نعمة محسود، وقيل: عيون الناس فارغة! ولذلك يخاف الناس من عيون الناس وحسدهم؛ وذلك حين يرون على أحد نعمة فلا يخافون الله، ويستكثرون عليه ما هو فيه. وقد علمنا رسولنا الكريم عليه وآله الصلاة والسلام ما نتحصن به من شر الحسد. روى ابن السني في كتابه عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا رأى أحدكم ما يعجبه في نفسه أو ماله فليبرّك عليه فإن العين حق" وفي رواية أخرى "فليدع بالبركة".

في هذا الحديث تعليم لنا إن رأينا من نعم الله علينا ما نتوقع أن يلفت أنظار الناس ويكون منهم حسد أن ندعو لأنفسنا بالبركة فيه: اللهم بارك لنا في ما آتيتنا، باسم الله، ما شاء الله. وكذلك علمنا أن نحصن أنفسنا وأموالنا وذرارينا بالمعوذتين اللتين بين الرسول ﷺ في حديث رواه مسلم أنه "لم ير مثلهن قط". وروى أبود داود "ما تعوذ متعوذ بمثلهما" . وأنت حين تستعيذ بالله من شر حاسد إذا حسد ومن شر الناس فإن الله تعالى يدفع عنك الشرور كلها بحوله وقوته. وحين تدعو لنفسك بالبركة فيما آتاك الله تعالى من النعم فإن الله تعالى يبارك لك فيه، ويدفع عنك شر كل ذي شر برحمته وفضله.

أذكار النعمة والابتلاء

ونمضي مع أذكار الأحوال العارضة التي تمر بالإنسان ذكر علمنا إياه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ومنها ما يقوله حين يتحقق له ما يريد، ومن ذلك ما رواه ابن ماجه وابن السني عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحب قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال ".

إن لسان المؤمن دائم الحمد لربه سبحانه، وقلبه راض بقضائه، لا يسخط، ولا يحاسب ربه سبحانه!! فلا يقول: لم حدث لي كذا؟ ولم وقع علي دون غيري من الناس؟! فالمؤمن مع النعمة يحمد ويشكر، ويرى أن ما وقع له من الخير فهو من كرم الله تعالى وفضله ويردد ما علمه إياه النبي الحبيب عليه وآله الصلاة والسلام: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات"، وهو بهذا الحمد يشكر ربه عساه يزيده من نعمته كما وعد:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وإن كانت الأخرى فلم يتحقق له ما يريد فإنه يحمد الله كذلك: "الحمد لله على كل حال"، ولا يقولها بلسانه دون قلبه بل يقولها برضى وتسليم؛ لأنه يعلم أن الخيرة في ما يختار الله سبحانه الذي قال معلما لنا:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكم يجد الإنسان في خبرته أنه أحب أشياء وكانت وبالا، وكره أشياء وكان الخير فيها، والمؤمن يسلم أمره لله تعالى بعد أن يؤدي ما عليه من سعي وأخذ بالأسباب، ويوقن أن ربه سبحانه يختار له الخير، ويظل مطمئن القلب بعد الاستخارة والاستشارة لا يأسى على ما فات ولا يحزن على ما لم يكتب له.

الفصل الخامس عشر

وإذا مرضت فهو يشفين

رب الناس أذهب الباس

المرض حالة عارضة لا يكاد يسلم منها إنسان، وللمرض فوائد منها:

اكتساب الأجر مع الصبر والاحتساب، واستثارة القوى الكامنة في الجسد، وإدراك الإنسان فضل الصحة التي لا يعرف الإنسان قيمتها إلا حين يفقدها، أو يرى من فقدها.

ومنها اكتشاف تجليات اسم الله الشافي على عباده من خلال الشفاء المباشر السريع إن كان المرض عارضا، أو من خلال ما يتجلى على أيدي الأطباء ومن معهم من العاملين في المهن الطبية المتعددة.

وقد علمنا الرسول الحبيب محمد عليه وآله الصلاة والسلام، شأنه في كل أمر، أذكارا نرددها حين نمرض أو حين نعود مريضا، وفي هذه الأذكار استمداد من اسم الله الشافي. ومن هذه الأذكار ما ورد في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يعوّذ بعض أهله يمسح يده اليمنى ويقول: "اللهم رب الناس أذهب البأس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما".

ولهذا الدعاء الرقية أكثر من رواية ولكن معانيها تدور حول ما ورد في هذه الرواية.

إن علينا أن نوقن أن أمر الوجود وما فيه ومن فيه بيد الله تعالى، وأن لله خزائن السماوات والأرض يستمد منها الخلق حاجاتهم، ومنها حاجة الشفاء، وهذا ما يثبته هذا الذكر الذي بين أيدينا الذي هو رقية من المرض .

"اللهم رب الناس أذهب البأس": إنه دعاء لله تعالى رب الناس: مربيهم وراعي شؤونهم والقيوم على كل أحوالهم، والحال المقصود هنا هو المرض: البأس الذي أصاب الجسد فاختلت وظائفه، وضعفت بذلك قدرة الإنسان على متابعة وظائفه في الحياة .

"اشف أنت الشافي": إنه استمداد للشفاء من اسم الشافي، هذا الاسم

الرباني الذي يتجلى على المريض مباشرة كما قال سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾.

أو يتجلى من خلال من يستمدون من اسم الله الشافي من طبيب وصيدلاني وممرض وصاحب مختبر ومتخصص في الأشعة وغير ذلك، فهؤلاء جميعا يتجلى من خلالهم اسم الله الشافي. فيجري على أيديهم الشفاء.

وكم هو طيب وحسن أن ندعو الله تعالى باسمه الشافي قبل أن نتوجه إليهم ونضع أنفسنا بين أيديهم ليلهمهم التشخيص الصحيح للداء، والدواء الشافي منه فكم من مريض ذهب إلى طبيب بعلة طارئة فخرج من عنده بداء مزمن، وكم من خطأ يحدث في المختبرات الطبية أو عيادات الأشعة تكون آثاره وخيمة، فأنت بهذا الدعاء وأنت تقول: "اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك "تستحضر اسم الله الشافي وأنت في عيادة الطبيب، وأنت ذاهب إلى عيادة الأشعة أو المختبر لتجري تحليلا، وكلك رجاء أن يلهمهم الله تعالى حسن التشخيص لما تشكو منه من داء، وأن تحصل على الدواء الشافي النافع.

وفي ختام هذا الذكر ـ الرقية طلب أن يكون الشفاء تاما لا يبقى بعده أثر للمرض: (شفاء لا يغادر سقما) فكم من مرض ألمّ بإنسان فترك في جسده أثرا دائما أو علة مستمرة في ظاهر الجسم أو في باطنه.

إن الدعاء لا ينافي العلاج بل هو جزء منه ومتمم له، ومعين عليه، لأنك وأنت تدعو الله تعالى تأوي إلى ركن شديد تقوي به قدرة جهاز المناعة لديك، فيصغر لديك كل عظيم من الأمراض، وكل صعب من الأحوال، بعلمك أن الله الشافي قادر على شفاء كل مرض وإن كان في نظر الأطباء عضالا، وكم للمرضى من حكايات مع المرض كان اليقين بالله هو قنطرة النجاة منه، وكانت الثقة بالله معينا للدواء على أن يحدث المفعول المطلوب، ويزيل المرض من الجسد.

الذكر وجهاز المناعة

إن من المهم أن تكون الروح المعنوية للمريض عالية، وأن يكون الأمل بالشفاء والخلاص من المرض بين عينيه، لأن ذلك يكون دافعا للجسم إلى مقاومة ما أصابه من عوارض، ويجعل للدواء أثرا طيبا في مقاومة المرض.

ونحن نلحظ أن المريض إذا ذهب إلى طبيب (حكيم) يرفع معنويات المرضى خرج المريض من عنده والأمل بالشفاء غالب عليه، وإذا ذهب إلى طبيب (لا يملك الحكمة) يبالغ في التشخيص، ويملأ قلب المريض رعبا مما هو فيه؛ يخرج المريض من عنده مهدود القوى وهو يترقب تضاعف الحالة، وظهور أعراض جانبية للمرض، بل قد يذهب به الوسواس إلى ترقب الموت، وشتان بين حالي المريضين في مواجهة المرض.

وقد كان من سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم رفع الروح المعنوية للمريض، فقد كان إذا دخل على مريض يعوده قال: "لا بأس، طهور إن شاء الله" (رواه البخاري) ومعنى لا بأس: أي لا شدة عليك ولا أذى من هذا المرض، تهوينا من شأنه وتخفيفا من أثره على المريض، ومعنى: طهور إن شاء الله: أي أن هذا المرض يطهرك من ذنوبك بصبرك عليه، ويرفع درجتك عند ربك سبحانه.

وهذا الدعاء النبوي للمريض بالسلامة من المرض، والخلاص من الذنب، يفتح له باب الأمل في الدنيا بالعافية، وفي الآخرة بغفران الذنوب، ويعطيه وجها آخر مقبولا للابتلاء بالمرض.

ومن الأذكار المتعلقة بالمرض ما رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: من قال: لا إله إلا الله والله أكبر صدقه ربه فقال: لا إله إلا أنا وأنا أكبر، وإذا قال:" لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال: لا إله إلا أنا وحدي

لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد قال: لا إله إلا أنا لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال: لا إله إلا أنا ولا حول ولا قوة إلا بي، وكان يقول: من قالها في مرضه ثم مات لم تطعَمه النار".

هذا الذكر ليس فيه استعاذة من المرض، ولا سؤال مباشر للشفاء منه، ولكن فيه إقرار بأن الأمر كله لله الذي بيده النفع والضر والخير والشر، وفيه فتح باب خير لمن أصيب بمرض قد يكون عضالا لينال المغفرة والأجر العظيم والنجاة من النار، وموضع الشاهد فيه ما جاء في آخره: "من قالها في مرضه ثم مات لم تطعمه النار" وهذا يعني أن من المفيد ان نتعلمه ونحفظه ونردده ضمن ما نردد من الأذكار الخاصة بالمرض فإن كتب لنا الشفاء ففضل من الله ونعمة، وإن كانت الأخرى نجونا من عذاب الله.

ومن الأذكار الواقية من المرض هذه الرقية النبوية التي كان يعوذ بها النبي عليه الصلاة والسلام سبطيه: الحسن والحسين رضي الله عنهما، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين: "أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة".

في هذا الدعاء الرقية حماية ووقاية لمن يعوّذ به، وفيه لجوء إلى كلمات الله التامة التي يحفظ الله تعالى بها من يلجأ إليه من مصادر الشر المتوقعة: الشيطان وأذاه، وهوام الأرض من عقرب وحية، وكل مؤذ من مخلوقات الأرض التي تعايش الناس، ومن الحسد الذي يكون من أصحاب العيون الفارغة التي لا تحب أن ترى خيرا ينعم به الناس.

هذه بعض الأذكار الخاصة بالمرض التي فيها رفع لجهاز المناعة وربط للدنيا بالآخرة واستعاذة من مصادر الشر.

أعوذ بعزة الله وقدرته

روى مسلم في صحيحه عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعا يجده في جسده، فقال له رسول الله ﷺ: "ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل: باسم الله، ثلاثا، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر".

إن الداء أو الوجع اختلال في وظائف بعض الأعضاء في الجسد، وهذا الخلل قد ينشأ عن أجسام غريبة تدخل الجسم وتسعى إلى إيذائه، كما قد يكون ناشئا عن عوارض جوية من حرارة وبرودة وغير ذلك، ولا ريب في أن الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له دواء كما ورد في الحديث الشريف، ولكن قبل التداوي وبعده لا بد أن يوقن المسلم أن الله تعالى هو رب الداء والدواء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، ولذلك عليه أول الأمر وآخره أن يكون معلق القلب بالله سبحانه، يرجو منه النفع ودفع الضر، وهذا ما يرشدنا إليه هذا الحديث الشريف، وهو إجراء أوّلي يتخذه المسلم بيقين وإيمان، وذلك بأن يضع يده على الجزء الذي يؤلمه، ولوضع اليد أثر لا شك فيه في العلاج، ففيه نقل الطاقة من جزء إلى آخر في الجسد لدعم عملية المعالجة الداخلية مما يضاعف قدرة الجزء المصاب على مواجهة الظرف الطارئ عليه ويصاحب ذلك قول: باسم الله، ثلاثا، ولذكر اسم الله أثر لا شك فيه على كل ما يذكر عليه، فاسم الله نور وبركة، وخير وشفاء، به تنحل العقد، وتنفرج الكرب، وتقضى الحوائج، وتزول الشدائد، ولتكراره ثلاثا مضاعفة للأثر، ومع ذكر اسم الله تعالى تأتي الاستعاذة بعزته التي يذل لها كل شيء مسبب للأذى فينخنس ويتراجع وينكمش وينسحب من الجسد بإذن الله تعالى، هذه الاستعاذة بعزة الله وقدرته من شر ما يجده الإنسان من ألم وما يحاذره من مضاعفات مجهولة لسببه قد تحوجه إلى الجراحة أو غير ذلك من أنواع العلاج، ولعل مما يستحق الالتفات أن تكرر الاستعاذة سبع مرات، وأنا على يقين أن لهذا التكرار بهذا العدد أثرا في الشفاء، ولا بد في الدعاء من الثقة بالله واليقين

أنه الشافي.

ولم يقتصر الدعاء طلبا للشفاء على المريض لنفسه بل علمنا الرسول الكريم ﷺ أن ندعو للمريض حين نزوره مما يؤدي إلى رفع معنوياته من جانب، وفي رفع المعنوية مساعدة لجهاز المناعة على مقاومة المرض، وفي الدعاء نور وطاقة إضافية يستعين بها المريض على مواجهة المرض، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قائلا: "من عاد مريضا لم يحضر أجله فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله سبحانه وتعالى من ذلك المرض ".

الفصل السادس عشر

لا تحرمنا أجرهم

الذكر وبوابة الخلود

الموت بوابة الخلود، وهو حق لا مرية فيه، فكل نفس ذائقة الموت، والمؤمن يستعد للقاء ربه سبحانه وتعالى بالعمل الصالح في حياته كلها، وكذلك يحرص إن أصابه مرض الموت أن يختم له بصالح القول والعمل، وخير ما يختتم به الإنسان حياته كلمة التوحيد. وقد روى أبو داود وغيره عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة".

وإذا كان المريض مرض الموت واعيا قادرا على الكلام فإنه لابد سيحرص على ذلك، وإذا كان يدخل في غيبوبة من حين لآخر كان من حقه على من يرافقه أن يذكره بكلمة التوحيد كلما صحا ليختم له بخير.

ولموقف الموت آداب علمنا إياها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، الذي علمه ربه سبحانه من أمر الغيب والشهادة ما نقله إلينا، وهدانا به إلى الطريق المستقيم.

روى مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره (أي بعد فراق روحه لجسده) فأغمضه، ثم قال: "إن الروح إذا قبض تبعه البصر" فضج ناس من أهله، فقال: "لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون "ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه". وفي رواية أخرى لمسلم عن أم سلمة قالت: "فلما مات أبو سلمة أتيت النبي ﷺ فقلت له: إن أبا سلمة قد مات، قال: فقولي: اللهم اغفر لي وله، واعقبني منه عقبى حسنة، فقلت: فأعقبني من هو خير لي منه: محمدا ﷺ".

إن في هذا الحديث بروايتيه آدابا تتعلق بالميت وأهله، فأما الميت فرأينا كيف أغمض النبي عليه وآله الصلاة والسلام عينيه، وأما أهله فرأينا التوجيه النبوي لهم بعدم الجزع أو قول ما لا يليق بالموقف من دعاء

على النفس. وبين أمرا مغيبا عن أبصارنا هو أن الملائكة في هذا الموقف تكون حاضرة وتؤمن على ما يدعو الناس به فليكن الدعاء بخير. وكذلك وجه النبي ﷺ المصاب بمصيبة الموت، والمخاطب في الحديث أم سلمة رضي الله عنها، إلى الدعاء بما يصبّر على المصيبة، وبما يفتح الباب لتكون عقباها خيرا. وقد ضربت أم سلمة لنا مثلا مما كان معها حين صارت من بعد أما للمؤمنين بعد أن تزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن آداب هذا الموقف حين يموت الميت الدعاء له، وخير ما ندعو به ما كان من دعاء في كتاب الله أو علمنا إياه رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام.

وهنا نجد الدعاء للميت بالمغفرة: "اللهم اغفر لأبي سلمة"

ودعاء برفع الدرجة في الجنة مع المهديين: "وارفع درجته في المهديين"

ودعاء لمن ترك من الذرية أن يحفظهم الله ويخلف راعيهم الذي رحل عنهم": "واخلفه في عقبه في الغابرين"

ثم الدعاء للنفس وللميت بالمغفرة: "واغفر لنا وله يا رب العالمين"

وأخيرا الطلب من الله تعالى أن يفسح له في قبره وينور له فيه، وهذا إشارة إلى أن يكون في راحة في حياته البرزخية التي انتقل إليها من دنياه.

هذه بعض أداب بينها الرسول الكريم ﷺ، ليلزمها المؤمن في موقف الموت ففيها الخير للميت ولمن حضره ولذريته وأهله.

الذكر وأصداء الموت

يختلف الناس في موقفهم من الموت، فمن كان مؤمنا عارفا بحقيقة الدنيا توقعه في كل لحظة ولم يكن لوقوعه في أحد من أهله أو أحبابه وقع الصدمة، بل يكون منه الصبر والتجلد، ويلجأ إلى ذكر الله تعالى الذي يخفف المصاب، ويبرد نار الفجيعة.

وهذا ما علمنا إياه القرآن الكريم في بيان موقف المؤمنين من المصائب بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٧].

وكذلك علمنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام أن نواجه المصائب بالصبر والدعاء والاحتساب، ومن ذلك ما روى مسلم عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها "قالت أم سلمة: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله تعالى لي خيرا منه: رسول الله ﷺ).

إن من المصائب ما ينال من نفس الإنسان أو ماله أو أهله، وهو في كل ذلك يعلم أنه مبتلى مختبر ليرى ربه سبحانه ما يكون منه من صبر أو جزع.

فالمؤمن إن أصابته مصيبة تذكر أنه وما يملك وما عنده من النعم من الله: خلقا وملكا وتدبيرا. فالله قد خلقه، وما لديه من المال هو من فضل الله تعالى وكرمه. وهنا يتجلى لنا ذلك الذكر الجليل "إنا لله وإنا إليه راجعون" الذي بينت الآية أنه ملجأ المؤمن عند المصائب ليدرك الحقيقة وتهون عليه المصيبة.

والذي أرشد النبي ﷺ المسلم إلى التحصن به في مواجهة المصائب، وبعد تلقي الصدمة والصبر عليها يأتي النظر إلى ما بعده وهو طلب أن تكون عاقبتها خيرا، وأن يكون ما بعدها عوضا عنها: "اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها". ونجد في رواية الحديث تجربة شخصية عملية لراويته وهي أم سلمة رضي الله عنها، التي قالت ما طلب النبي ﷺ من المسلم أن يقوله في مواجهة المصائب، فلما مات زوجها أبو سلمة رضي الله عنه، دعت بتلك الدعوة فأخلفها الله تعالى زوجا خيرا من زوجها وهو رسول الله ﷺ ونالت شرف أن تكون واحدة من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

ومن الأذكار التي علمنا إياها الرسول الكريم ﷺ في مواجهة مصيبة الموت ما رواه الترمذي وغيره عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم فيقول: فماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد".

هذا الحديث يكشف عن صدى المصيبة التي تصيب الإنسان وموقفه منها، وما يكون له من شأن لدى ربه سبحانه وتعالى، والله تعالى لا يخفى عليه شيء في ألأرض ولا في السماء، ولكنه أوكل لعباده من الملائكة متابعة شؤون بني آدم، وكتابة أحوالهم، ورفع الأعمال إليه سبحانه، وهذا الحوار الجميل الذي يدور بين الله تعالى وملائكته فيه تجليات اسمه الله الرحيم الذي يعلم آثار الموت في نفوس الناس، ويعدّ للصابرين أجرا عظيما، هو هنا بيت في الجنة تبنيه الملائكة للصابرين من المؤمنين.

إن الإنسان حين يدرك عاقبة أي أمر يقف طويلا عنده: فعلا أو تركا؛ لأنه إن كان عاقلا أقدم على ما فيه خيره، وترك ما يكون وبالا عليه، وفي الحديثين اللذين وقفنا عليهما خير كثير نرى من خلالهما أن للمصائب وجها آخر غيرالحزن والألم.

الصلاة على الراحلين

الموت حق لا يماري فيه مؤمن ولا كافر، والموت انتقال من هذه الدنيا التي خلقنا الله تعالى فيها لنرى آياته و تجليات أسمائه الحسنى، ونعبده كما أمر وأراد . والميت الراحل عن هذه الحياة بحاجة إلى أن يحسن أهله ومحبوه وداعه وهو يمضي راحلا عن الحياة، وخير وداع الصلاة عليه والدعاء له ليكون ذلك الوداع زادا له في رحلته وليبقى في ذاكرته نورا دائما.

ولعل وداع الراحل عن الحياة بالصلاة يستحق وقفة تأمل، والملاحظ أن الدعاء يغلب على صلاة الجنازة فيأخذ نصفها بعد الفاتحة والصلاة الإبراهيمية.

ومن أذكار صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثالثة ما رواه مسلم عن عوف بن مالك رضي الله عنه، قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: "اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر، ومن عذاب النار، "حتى تمنيت أن أكونه أنا ذلك الميت، وفي رواية أخرى لمسلم: "وقه فتنة القبر وعذاب القبر ".

إن الإنسان حين يموت تفارق روحه جسده، وتتعطل حواسه، وينتقل من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، وللموت صورتان في الانتقال: صورة الجسد الذي نشيعه إلى القبر، والذي يصيبه البلى كما هو معلوم مشاهد، وصورة الروح التي لا نراها، لكن لها وجودا هو الوجود الحقيقي للإنسان، هذه الروح بحاجة إلى الصلاة والدعاء.

ولننظر في تفصيلات هذا الدعاء النبوي الذي دعا به على من صلى عليه وعلمنا أن ندعو به لموتانا لنرى ما يحتاج إليه الميت في هذه الحال، حال الرحيل نحو العالم الجديد للروح ولنرى صورة هذا العالم الذي ينتقل

إليه:

"اللهم اغفر له وارحمه": والمغفرة تعني ستر الذنوب والتجاوز عن العيوب، ومن ثمرات المغفرة الرحمة التي فيها تجلي النعمة، فمن غفر الله تعالى له تجلى عليه برحمته وألوان إنعامه.

"وعافه واعف عنه": والعافية تعني السلامة: السلامة من آثار الانتقال من الدنيا إلى البرزخ، فهي رحلة، وللرحلة متاعب وفيها عقبات، ومع العافية العفو، وفيه تجاوز عن التقصير، وتفضل بألوان الرحمة الربانية.

"وأكرم نزله": والنزل ما يقدم للضيف من الطعام، وفي هذا الدعاء طلب بإكرام الميت في انتقاله من الدنيا إلى البرزخ، وهذا يعني أنه بحاجة إلى ما يتزود به في عالمه الجديد.

"ووسع مدخله": والمدخل الباب الذي يلج منه الإنسان إلى مكان جديد، فإذا كان ضيقا كان في الضيق أذى، وإذا كان فيه سعة كان فيه راحة، وهذا ما نطلبه للميت سعة المدخل والراحة في الانتقال.

"واغسله بالماء والثلج والبرد": والغسل هنا ليس للجسد، فقد تم ذلك له قبل الصلاة عليه، بل الغسل للنفس التي لا نراها والتي انتقلت من عالم إلى عالم، مما يوحي أنها بحاجة إلى تبريد يخفف من حرارة الانتقال. والغسل المطلوب للنفس يتم بثلاثة أشكال للماء: الماء سائلا، والماء متجمدا في صورتين: الثلج والبرد، وفيهما برودة تخترق السطح وتصيب الأعماق بطهارتها وأثرها، ولعل من آثار هذا الغسل التنقية من الخطايا:

"ونقه من خطاياه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس": فهو ليس غسلا من درن وأوساخ عادية بل هي الخطايا التي تلوث النفس وتشوه نقاءها، لتكون بعد الغسل في أنظف صورة تتجلى وهي صورة الثوب الأبيض الناصع النقي.

"وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خيرا من زوجه": إن الميت لا ينتقل من دنيا عامرة إلى فراغ، بل ها هو الدعاء النبوي يعلمنا أن ندعو له ليكون انتقاله إلى حال أحسن مما كان عليه وتركه، فقد كانت له في الدنيا دار، فندعو له أن ينتقل بالموت إلى دار خير منها، وكان له أهل يأنس بهم، وندعو له أن يكون له بعد الموت أهل خير

ممن ترك، وكانت له زوجة فندعو له أن ينال بعد الموت زوجة خيرا منها من الحور العين، ومجمل الصورة التي يرسمها الدعاء للعالم الجديد للمؤمن تبدد الوحشة التي يوحي بها القبر وما يصيب الجسد من أحوال فيه.

"وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار: وللمؤمن دخول للجنة قبل القيامة فقد أخبرنا النبي الكريم ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي والنسائي والإمام أحمد" إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "، وهو دخول غير كامل كالذي يتحقق بعد البعث ولقاء الروح بالجسد الذي تحول من جسد يفنى ويبلى إلى جسد يليق بعالم الخلود ليكون تمتع الإنسان بما في الجنة من النعيم في أكمل صورة. ومع الدعاء بدخول الجنة دعاء بالنجاة من أحوال الانتقال من الدنيا إلى البرزخ وما يلاقيه غير المؤمن من أحوال سميت: عذاب القبر، ودعاء بالنجاة من عذاب النار العارض في عالم البرزخ والدائم بعد البعث.

ذكر وشفاعة

تعددت الأدعية والأذكار الواردة عن نبينا محمد ﷺ في صلاة الجنازة، وكلها خير يطلب للميت أو للأحياء، ومن تلك الأدعية هذا الدعاء الذي رواه أبو داود وابن ماجه عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول: "اللهم إن (فلان بن فلان) في ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحمد، فاغفر له وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم".

لقد تعددت الأذكار النبوية في صلاة الجنازة، وليس من الضروري أن تقال جميعها في صلاة واحدة، بل يتخير المصلي منها ما تيسر له، وما تيسر حفظه، ومنها هذا الدعاء الذي فيه نص على اسم الميت، فها هم المصلون قد أقبلوا على الله تعالى في صلاة الجنازة بإخلاص في الدعاء، ورجاء بالقبول، وهاهم يضعون الراحل عنهم بين يدي ربه، يشفعون له، ولا حول له ولا لهم ولا قوة، وهو أحوج ما يكون إلى رحمة ربه، وأن ينال في رحلته إلى العالم الجديد الأمن والرعاية والحماية . ومن غير الله تعالى يقيه ويجيره من مخاطر ما هو مقبل عليه؟

وهذا ما يبدأ به الدعاء: "اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك وحبل جوارك": ومن كان في ذمة الله وعهده نال الأمن وسلم من كل سوء، وأول مخاطر هذه الرحلة فتنة القبر، أي الأسئلة التي يتعرض لها الراحل وهو يدخل بوابة البرزخ: " من ربك وما دينك وما كتابك ومن هذا الرجل الذي ظهر فيكم". فالمؤمن الذي عاش على ذكر الله تعالى يلقن حجته، وينطق بالإجابة من غير تلعثم ولا تردد، وبذلك يوقى من فتنة القبر وينجو من عذابه، ومن نجا منهما نجا بإذن الله من عذاب النار.

وفي هذا الدعاء تعظيم لله تعالى بذكر بعض صفاته التي يستدر بها الداعي الرحمة للميت فيقول مخاطبا ربه سبحانه: "وأنت أهل الوفا والحمد": والله تعالى قد وعد عباده المؤمنين بالتثبيت في الحياة الدنيا وعند الموت وفي الآخرة، والنجاة من كل سوء:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٠ - ٣٢].

والميت الذي ندعو له أحوج ما يكون إلى النجاة من عذاب القبر وعذاب النار، وقد خرج من دنياه وحيدا ليكون في ذمة الله تعالى وجواره، وحفظه ورعايته ورحمته، ولذلك جاء في ختام هذا الدعاء: "اللهم فاغفر له" بستر عيوبه والتجاوز عن ذنوبه، "وارحمه": بتجليات رحمتك التي ينجو بها من العذاب، وينال الإكرام: "إنك أنت الغفور الرحيم ".

وكما يدعو المصلون للميت فإنهم كذلك بحاجة لأن يدعوا لأنفسهم لأن كل واحد لا محالة صائر إلى ما صار إليه الميت. وقد جاءت أدعية نبوية في صلاة الجنازة يدعو فيها المصلون لأنفسهم في ما يدعونه، ومنه ما رواه أبو داود والترمذي والبيهقي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى على جنازة يقول: "اللهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الأيمان، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده".

إن في هذا الدعاء شمولا للأحياء والأموات، والحاضرين للجنازة والغائبين عنها من المؤمنين، وللصغير والكبير، والذكر والأنثى، وهذا الشمول في الدعاء ينبهنا إلى أنه ما من أحد يستغني عن طلب المغفرة التي تعني ستر العيوب ومغفرة الذنوب والتجلي بالرحمة.

وفي هذا الدعاء شمول للحياة والموت، والحياة المطلوبة أن تكون على الإسلام بشرائعه وأركانه؛ ليكون المسلم ملتزما ما أمره ربه سبحانه؛ ولا معنى للالتزام الظاهري إن لم يكن له رصيد من الأيمان الذي تنكشف حقيقته عند الموت حيث لا عمل بل ظهور لأساس العمل.

وما أجمله من دعاء موجز واف يختم به هذا الدعاء الشامل "اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده" حيث ينال المصلي على الجنازة أجرا عظيما، ويطلب الثبات على الحق والنجاة من فتن الدنيا والاستقامة حتى يلقى الله تعالى.

الفصل السابع عشر

ربنا وتقبل دعا

سلاح الدعاء

ليس الذكر، والدعاء لونا من ألوانه، كلمات يجري بها اللسان، أو ألفاظا يرددها الإنسان.

الدعاء سلاح من الأسلحة التي علمنا إياها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف.

وإذا كان مطلوب من الإنسان أن يعد ما هو مطلوب منه من الأسباب، وأن يبذل جهده البشري في السعي في الأرض، فإن الدعاء كذلك هو من الجهد المطلوب.

وها هو القرآن الكريم يخاطب المسلمين حين يواجهون أعداءهم في ميدان القتال فيطلب منهم أن يعدوا للقائه ما يستطيعون من أسباب القوة:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ويطلب منهم كذلك الثبات في مواجهة الأعداء، ومع الثبات ومن أسبابه ذكر الله تعالى والتبتل إليه بالدعاء:

قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الأنفال: ٤٥].

فذكر الله تعالى في هذا الموقف سلاح من الأسلحة المعنوية التي تثبت القلوب، وترفع المعنويات، وتجعل المقاتلين يستبسلون لأنهم حين يذكرون الله تعالى يمضون في الجهاد في سبيله لنيل إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وبذكر الله تعالى تتجلى له الجنة ونعيمها فيردد:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها

وقد حدثنا القرآن الكريم عن مواقف جهاد من تاريخ النبوة كان فيها الدعاء سلاحا للمؤمنين في مواجهة الباطل، فحين آمن السحرة وعرفوا أن

موسى عليه السلام نبي وليس كبير السحرة كما زعم فرعون، ولما هددهم فرعون بالتنكيل بهم بألوان العذاب كان مهم هذا الدعاء:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾[الأعراف: ١٢٥ - ١٢٦].

وحين قاد طالوت بني إسرائيل وواجهوا جالوت وجنوده كان منهم دعاء عند المواجهة:

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة: ٢٥٠].

وكان من ثمرات ذلك الدعاء النصر:

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[البقرة: ٢٥١].

وإذا انتقلنا إلى عهد نبينا محمد عليه وآله الصلاة والسلام وجدناه يستخدم الدعاء سلاحا ضد الأعداء في ميدان القتال، و منهم ذلك ما كان منه في غزوة بدر الكبرى حين بنى له الصحابة عريشا ووقف فيه يدعو الله تعالى دعاء عريضا حتى أشفق عليه أبو بكر رضي الله عنه من شدة الدعاء.

وكان من هديه ﷺ القنوت في النوازل حين تشتد الأمور وتطبق على المسلمين الشدائد وذلك ليعلمهم أن الدعاء سلاح من أسلحة المؤمن يدعو به لنفسه ولإخوانه في الدين.

وما أحرانا في هذه الأوقات العصيبة التي يستعلي فيه باطل اليهود على إخواننا في غزة الصابرة أن نكثر من الدعاء لهم، وذلك بعض العون الذي نستطيع أن نقدمه لهم بالإضافة إلى أشكال العون الأخرى التي يتاح لنا أن نقدمها.

فضل الدعاء

لا يستغني العبد عن الله سبحانه وتعالى لأنه ربه وإلهه، وخالقه ورازقه، ومالك أمره، فإذا كان العبد يأنس بذكر الله تعالى فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه، ويحارب شيطانه، ويقوي إيمانه، فإنه كذلك يتوجه إلى ربه طالبا ما يحس بالحاجة إليه؛ لأنه يعلم أن الوجود وما فيه لله تعالى؛ الذي له خزائن السماوات والأرض . والمؤمن يستذكر تلك الوصية النبوية: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله" (رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح).

والتوجه إلى الله تعالى بالحاجات، وسؤاله المطلوبات، هو ما يطلق عليه اسم الدعاء، والإنسان يسأل من يرى أنه يملك القدرة على الإجابة، وهو الله تعالى.

وقد بين لنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام منزلة الدعاء في الحديث الذي رواه الترمذي فقال: "الدعاء هو العبادة "وقال في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه: "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء".

نعم، الدعاء هو العبادة التي تعني التوجه إلى الله تعالى والإحساس بالحاجة التي لا يقضيها غيره، فهو الذي بيده النفع والضر، ومنه يرجى الخير وبعفوه وعافيته يدفع الضر، والله تعالى يحب العبد الذي يدعوه، وهو يكرمه في الدنيا والآخرة بالإجابة العاجلة أحيانا وبالأجر ورفع الدرجات في الآخرة.

وقد علمنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام الأدعية التي تشمل أحوالنا كلها، وتقضى بها كل حاجاتنا، في الأحوال الدائمة، وفي الحالات العارضة. ومن الملاحظ أن كثيرا من الأدعية النبوية أدعية شاملة عامة موجزة، ولكنه إيجاز يشمل كل خير مطلوب تحققه، وكل شر مطلوب دفعه .

ولنقف عند بعض من هذه الأدعية:

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال:كان أكثر دعاء النبي ﷺ: "اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار".

وما أجمله وما أشمله من دعاء مستمد من القرآن الكريم: "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة". وحسنة الدنيا تشمل كل خير، فأنت حين تردد هذا الدعاء تختصر ما يمكن أن يقال في صفحات من المطالب التي يرجوها الإنسان في دنياه وأخراه: من زوجة صالحة وولد بار ومسكن فسيح وجيرة طيبة ورزق واسع وعلم نافع، وغير ذلك مما يطلب. كما يشمل أغلى ما يتمناه: الفوز بالجنة ونيل رضوان الله تعالى. وتأتي تتمة الدعاء "وقنا عذاب النار" ليكتمل خيرا الدنيا والآخرة. ولذلك ليس عجيبا أن نجد أنسا رضي الله عنه يذكر أن هذا الدعاء كان يتردد كثيرا على لسان نبينا ﷺ بل كان أكثر ما يدعو به.

ومن الأدعية الجامعة الشاملة التي كان يرددها النبي ﷺ ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "اللهم يا مصرّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك".

وفي هذا الدعاء إشارة إلى طبيعة القلوب التي تتقلب فيها المعاني والتوجهات والأفكار، وتتأثر بها الأجسام في الحركات والسكنات، وفيه توجه إلى الله تعالى الذي بيده تصريف القلوب أن تتوجه إلى طاعته، تلك الطاعة التي تقود إلى مرضاته وجنته. وكل منا لو تتبع قلبه ورصد ما يدور فيه من خواطر في يومه وليلته لوجد أن القلب كالبريد الإلكتروني الذي تصله رسائل شتى، ولوجد مما يرد ما هو رسائل من الملائكة الموكلة به، وفيها الإيعاد بالخير والأمر به، ويجد له نورا وحلاوة. ومنها ما هو من وسوسة الشيطان، وفيها الإيعاد بالشر والأمر بالمنكر وتزيينه، ويجد فيه ظلمة، وعليه ندامة وحسرة إن هو اتبعه. والقلب بين الحالين في تردد، والسعيد من ثبت قلبه على الخير وزين له فعله، فأقبل على طاعة ربه وعبادته في همة ونشاط وشعر بحلاوة الإيمان، وأعرض عن الشر ورأى عاقبته فقمع هوى النفس وألزمها سبيل الرشاد.

أدعية نبوية جامعة

إن مما يميز معظم ما ورد من الأدعية عن نبينا محمد عليه وآله الصلاة والسلام أنها أدعية موجزة هي من جوامع الكلم التي فيها القليل من الألفاظ الشاملة لكثير من المعاني، مما يجعلها تغني عن التطويل في الدعاء. وربما نجد عددا من الأئمة في المساجد يطيلون الدعاء، ولا سيما في شهر رمضان في صلاة الوتر، وذلك ما أجده مخالفا للهدي النبوي المعتاد في منهجه في الدعاء إلا قليلا مما ورد عنه، وإذا كان هديه ﷺ في الصلاة أن من أمّ بالناس فليخفف فالأولى أن يكون ذلك في الدعاء.

ومن الأدعية الشاملة الموجزة ما رواه مسلم عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "قل: اللهم اهدني وسددني" وفي رواية: "اللهم إني أسألك الهدى والسداد". وإذا تدبرنا هذا الدعاء وجدنا فيه طلب أمرين: الهدى والسداد. والهدى يشمل استنارة القلب بالإيمان وانضباط الجوارح بالعمل الصالح، وهل أرسل الله تعالى الأنبياء إلى الناس، وأنزل عليهم الكتب إلا ليهتدي الناس؟

فنحن حين نسأل الله تعالى الهدى نسأله سلامة العقيدة، وأداء العبادة، وحسن الخلق في الأمور كلها، ولا نحتاج بعد ذلك إلى تفصيل دقيق إلا في المسائل الكبرى كما ورد في أدعية أخرى. وأما السداد فهو من التسديد إلى الهدف، كما يسدد الرامي رميته إلى هدفه، ومن رزق السداد رزق حسن التوجه إلى كل خير، وثبت قلبه على الهدى، وقدماه على الصراط، ووصل الجنة دار السلام بسلام.

وروى الترمذي أن النبي عليه وآله الصلاة والسلام كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء". ونحن في هذا الدعاء نستعيذ بالله تعالى من أمور محددة هي المنكرات: وهي الأمور المرفوضة شرعا والتي ينكرها الذوق السليم والخلق الكريم، ولسنا أمام منكرات محددة بأسمائها بل بمجالاتها: ومنها:

"منكرات الأخلاق"، ولك أن تمسك بورقة وقلم وتضع قائمة طويلة

مما يمكن أن يدرج تحت الأخلاق المنكرة التي لا يرضاها الله تعالى ولا يحبها، ولا يحبها من كان ذا فطرة سليمة من: الحدة والغلظة والكذب والغدر والخيانة إلى آخر ما يمكن أن يدرج تحت الأخلاق المنكرة. وقل مثل ذلك في "منكرات الأعمال".

وإذا كان الخلق صفة موجودة في الإنسان يتخلق بها فإن العمل قد يكون عارضا لا متأصلا فقد يصدر اعتداء من شخص على شخص آخر وهذا الاعتداء يكون عملا عارضا لا خلقا متأصلا في تعامله مع الناس جميعا، فكل عمل لا يرضاه الله تعالى يصدر من الإنسان تجاه أي كائن من الكائنات من حوله هو من منكرات الأعمال. وكذلك منكرات الأهواء، والأهواء جمع هوى، وهو الميل إلى شيء، وتكون الأهواء منكرات حين تستعبد صاحبها، وتميل به عن الحق والصراط المستقيم. وقد جاء النهي عن الهوى واتباعه في القرآن الكريم في مواضع متعددة، و"منكرات الأهواء" هي ما يستبد بالإنسان من الرغبات التي تعميه عن الحق وتصرفه عن طريق الهدى.

ومن الأدعية الشاملة الموجزة هذا الدعاء الذي رواه الترمذي عن علي رضي الله عنه الذي جاءه رجل عليه دين عجز عنه فقال له: "ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ لو كان عليك مثل جبل صير دينا أداه الله عنك، قل: اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك"

وانظر كم يندرج تحت كلمة (الحلال) من الأعمال وكم يندرج تحت كلمة (الحرام) من الأعمال وقل مرددا: "اللهم اكفني بحلالك عن حرامك"، ثم انظر كم يحجب الناس بما في أيديهم عن المعطي الحقيقي الذي بيده خزائن السماوات والأرض، الله سبحانه وتعالى، وقل: "وأغنني بفضلك عمن سواك"، وتذكر أن الفضل كله لله وليس لغيره فضل على الحقيقة، ولا يبصر ذلك إلا من نظر بعين الإيمان.

وروى الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئا فقال: "ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله تقول:

"اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه نبيك محمد ﷺ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ، وأنت المستعان وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ".

يخبرنا راوي الحديث الصحابي أبو أمامة أن النبي عليه وآله الصلاة والسلام دعا بدعاء طويل وكان أبو أمامة ومن معه من الصحابة حريصين على حفظه لكنه طال عليهم فلم يستطيعوا حفظه، وهنا أرشدهم النبي عليه وآله الصلاة والسلام إلى الدعاء الموجز الذي يجعلهم ينالون ما في ذلك الدعاء المطول من المطلوبات فكان هذا الدعاء الذي بين أيدينا. ونلاحظ أن النبي عليه وآله الصلاة والسلام لم يكلفهم أن يحفظوا الدعاء المطول، ولم يعده عليهم مرة أخرى بل أعطاهم البديل الموجز الكافي، ومن دعا بهذا الدعاء: "اللهم إني أسألك من خير ما سألك منه نبيك ﷺ" فقد أدرج في دعائه قائمة طويلة من المطلوبات المرغوبة التي دعا بها النبي ﷺ، ومن استعاذ بالله تعالى بقوله:"ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمد ﷺ". فإنه يحفظ نفسه من كل شر استعاذ منه نبينا عليه وآله الصلاة والسلام ما علمناه من الشر وما جهلناه. وهذا الإيجاز يغنينا عن تفصيل قد لا نستطيعه.

وبعد ذلك نتوجه إلى الله تعالى بطلب الاستعانة: وأنت المستعان، فبالله نستعين في كل حين وأمر، ونحن نردد ذلك ونطلبه في كل مرة نتلو فيها سورة الفاتحة ونقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ومن استعان بالله تعالى أعانه ونال ما يريد بإذن الله وتوفيقه.

ثم من الدعاء: "وعليك البلاغ"، والبلاغ الإيصال إلى الغاية المطلوبة فبفضل من الله تعالى ورحمة نبلغ ما نريد في دنيانا وأخرانا.

وختام الدعاء كنز من كنوز الدعاء هو: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، وهل نستمد القدرة على الحركة في كل أمرنا إلا من ربنا سبحانه، ومن الله تعالى نستمد الطاقة التي نتحرك بها في حياتنا .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: "اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي

التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر".

إننا أمام دعاء جامع شامل موجز، يتضمن خير ما يدعى به، وإن كتب لمن يدعو به القبول نال خير الدنيا والآخرة، ولنقف على فقراته:

"اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري": وإصلاح الدين يعني صلاح العقيدة والقيام بالعبادات المطلوبة، والاتصاف بالخلق الحسن والسلوك القويم، وصلاح الدين هو عصمة الأمر لأن به الطمأنينة في الدنيا والنجاة من النار والفوز بالجنة في الآخرة.

"وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي": والدنيا دار امتحان ومستقر الإنسان مدة حياته، وصلاحها يقتضي توافر ما تقوم به حياته ليؤدي رسالته بعمارة الأرض وعبادة الله تعالى.

"وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي": وإصلاح الآخرة يعني أن ينجو الإنسان من كل عقباتها؛ بدءا من دخول عالم البرزخ بالموت، ثم البعث والحساب، ثم دخول الجنة والنجاة من النار، والآخرة هي المعاد الدائم للإنسان، والسعيد من كان معاده ومستقره الجنة.

"واجعل الموت راحة لي من كل شر": والموت يكون خيرا للمؤمن حين ينتقل من دار التكليف إلى دار الجزاء، ومن دار المعاناة إلى دار النعيم، أوليست "الدنيا سجن المؤمن" كما أخبر النبي الكريم عليه وآله الصلاة والسلام؟(رواه مسلم)

ويكون الموت خيرا حين يتخلص المسلم من الفتن وأنواع البلاء في الدنيا، ويقبل على رب كريم وصحبة طيبة من الملائكة الذين يستقبلونه حين مغادرة الدنيا بالبشرى.

استعاذات نبوية

كم هو مهم أن نقف وقفة تدبر وتأمل عند الأدعية التي فيها أمور محددة علمنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام أن نسأل بها ربنا سبحانه وتعالى، طلبا أو استعاذة، فكل خير في ما سأله النبي عليه وآله الصلاة والسلام ربه، وكل شر في ما استعاذ بالله تعالى منه.

ومن الاستعاذات النبوية التي تفرج بها الكروب وتزول الهموم هذا الدعاء الذي علمه النبي عليه وآله الصلاة والسلام لأبي أمامة رضي الله عنه، روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: يا أبا أمامة، ما لي أراك جالسا في المسجد في غير وقت صلاة؟، قال: هموم لزمتني وديون يا رسول الله، قال: أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله همك، وقضى عنك دينك؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال"قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله تعالى همي وغمي، وقضى عني ديني. "

في هذا الدعاء منهج حياة للمسلم:

وأول ما يلفت النظر في هذا الحديث هو تعجب النبي عليه وآله الصلاة والسلام من جلوس أبي أمامة في المسجد في غير وقت صلاة، مما يدل على أن المسلم إذا قضى صلاته أن ينطلق في الأرض ليبتغي من فضل الله تعالى، يعمر الأرض بالعمل الصالح، والجهد النافع في كل مجالات الحياة .

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا الحديث هو لجوء أبي أمامة إلى المسجد، بيت الله تعالى، طالبا من ربه سبحانه أن يفرج همه، فقد ثقل عليه الأمر إلى الحد الذي أحس فيه بالعجز.

والأمر الثالث: هذا التعليم النبوي الكريم لأبي أمامة وللمسلمين من

بعده بالاستعاذة من أمور تكون سببا في الهم والغم، لأن هذين الحالين النفسيين هما ثمرة واقع، ونتيجة أسباب تؤدي إليهما، فجاء الهدي النبوي للمسلم أن يكون من دعائه في مواجهة الأزمات النفسية:

"اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن" والمسلم يعلم أن الله تعالى ملجؤه في كل حال فيعوذ به مما يخاف منه، أو مما يثقل عليه، و"الهم" هو ما يشغل البال فيكون ثقلا في النفس وقيدا على الجسد . ويغلب أن يكن الهم من أمر حاضر أو مقبل. وأما الحزن (بضم الحاء) فعلى أمر فات. والحزن بفتح الحاء وسكون الزاي هو الأمر الصعب الذي يعسر التعامل معه، مما يجعله يفوت ويسبب مشاعر الحسرة. والمرء مع الهم والحزن يكون في قيد نفسي يربطه عن القيام بما يجب في مواجهة الأمور. وإذا كان ذلك تولد لديه إحساس بعدم القدرة على حل المشكلة التي بين يديه فيقع في العجز، أو ربما تكون لديه القدرة على حل المشكلة لكن همه يثقل عليه ويحول بينه وبين الحل فيقع في الكسل، فالعاجز غير قادر، والكسلان قادر لكنه لا يملك الهمة التي تحركه لمواجهة الواقع وحل المشكلة.

ومن نقائص الأخلاق التي تقعد بالإنسان عن معالي الأمور وتعيبه وهي نوع من العجز،: الجبن والبخل، والجبن نقص في الشجاعة في مواجهة الأمور، وهو عجز يجعل الإنسان مستسلما لما حل به، والبخل نقص وعجز في التعامل مع المال الذي يملكه الإنسان فيمسكه عن وجوه الخير، والجبن حبس للطاقة والقدرة، والبخل حبس للمال.

والدين حمل ثقيل تنوء به القوة، وتنحل القدرة، و لاسيما إن كان كبيرا، وكان أكثر من قدرة الإنسان على السداد، وهو من أسباب إحساس الإنسان بالعجز، وإحساسه بالذل، فهو كما ورد في الأثر: هم في الليل وذل في النهار.

ولذلك جاء في الدعاء: "وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال "

ولايستغني الناس في حياتهم عن الدين، ولكن الديون أنواع، فمنها ما يمكن سداده ويسهل التعامل معه، ومنها ما يؤدي إلى الإفلاس ويقصم الظهر، ويجعل الإنسان في موقف المطلوب أمام صاحب الدين فيجتمع

عليه: نقص المال، والذل أمام الرجال.

هذا الدعاء النبوي علاج للحالات النفسية التي تعرض للإنسان بل هو منهج في التعامل مع القدرات المتاحة للإنسان في النفس والجسد والمال.

دعاء الفاتحة فاتحة الدعاء

أمرنا الله تعالى في كتابه أن ندعوه فقال:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

وعلمنا سبحانه كيف ندعوه بخير دعاء.

وأول ما يلقانا من دعاء القرآن: سورة الفاتحة التي هي فاتحة الكتاب الكريم.

وآخر ما يلقانا من القرآن الكريم الدعاء في المعوذتين.

وبينهما دعوات كثيرة تجمع خير الدنيا والآخرة.

تبدأ سورة الفاتحة بأفضل الدعاء وهو الحمد، كما وردفي الحديث الشريف:

"أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله" (صحيح الجامع رقم ١١٠٤)

وإذا كان الدعاء طلباً للخير، فإن الحمد يتضمنه؛لأن الحامد يرى نعمة تنزل، أو نقمة تدفع، فيحمد الله على ذلك، فيكون حمده سبباً للمزيد من الخير:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

فكان الحمد بذلك دعاء. وقد ورد في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول:

"إذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال: حمدني عبدني.

وإذا قال العبد: الرحمن الرحيم قال: أثنى علي عبدي.

وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي. (صحيح الجامع رقم ٤٣٢٦)

والحمد والثناء والتمجيد لون من الذكر يتضمن الدعاء.

ويكتب الله تعالى لمن يشغله الذكر عن الدعاء أفضل ما يعطي السائلين.

وبعد البداية بالحمد لله رب العالمين، يأتي الدعاء الصريح:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وإن يكن دعاءً في صيغة الخبر، فإنه طلب للعون من الله تعالى،

وهو من أغلى ما يُطلب؛لأن العون إذا تحقق نال العبد كل خير.

وإذا حرم العبد العون فأنى له الفلاح؟

ولذلك كان هذا الطلب مكرراً في كل مرة نقرأ فيها سورة الفاتحة.

وإذا كان العون أداة يستخدمها العبد ليرقى بها في معارج الخيرات،

في كل أمر من أمور دينه ودنياه:

في نفسه وأهله ومجتمعه،

وفي عبادته وصلته بربه؛

إذا كان ذلك كذلك؛ فإن الهداية غاية وجوده، ومطلبه الأول في هذا الوجود.

والهداية تعني أول ما تعني معرفة الرب سبحانه وتعالى.

ومن عرف ربه اتخذ إليه الوسيلة.

ووسيلتنا إلى الله تعالى وبابنا إليه هو رسوله ﷺ.

ومن علامات الهداية الحب والاتباع:حب الله تعالى واتباع أوامره،

وحب الرسول محمد ﷺ والاهتداء بهديه والسير على سنته،

وحب الصالحين والاجتماع بهم ليقوي العبد بإخوانه على عقبات الطريق، ومشاق السفر إلى الآخرة.

أو لم يقل كليم الله موسى عليه السلام:

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي

﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٩ – ٣٤].

ولذلك جاءت صيغة طلب الهداية بضمير الجماعة لا ضمير الفرد:

﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾.

ويتجلى الصراط وأنت تطلب الاهتداء إليه، والثبات عليه بعد أن تضع قدميك عليه، ولا تغريك السبل التي لها أبواب مفتّحة، وعليها ستور مرخاة تدعوك لتدخل وتنحرف عن الصراط.

يتجلى لك الصراط وأمامك حشد طويل ممتد منذ أول البشرية:

في رأسه آدم عليه السلام، ومن تبعه من ذريته من الأنبياء، والصديقين والشهداء والصالحين، وفيهم رسول الله ﷺ، وصحبه الكرام، والسابقون الأولون من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان.

تطلب في الفاتحة العون والهداية،

وتكرر ذلك في كل صلاة.

وتأتيك من بعدُ أدعية القرآن الكريم لتندرج تحت هذين المطلبين:

فما تدعو به إما أن يكون: وسيلة إلى الخير، أو يكون غاية يقودك إليها الاهتداء إلى الصراط المستقيم.

فدعاء الفاتحة فاتحة الدعاء بكل خير.

هكذا ندعو بالقرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله: تنزيلاً وإحكاماً وتفصيلاً؛ لكننا نجد فيه رواية كلام غير الله تعالى، وتعليماً من الله سبحانه لبعض عباده أن يقولوا ما يحُّب من الكلام.

نجد في القرآن الكريم كلام الملائكة الكرام.

وكلام إبليس.

وكلام آدم عليه السلام وابنيه.

وكلام الأنبياء وما ردّ عليهم أقوامهم من أقوال.

ونجد كلام الهدهد والنملة.

والقرآن من بعد ومن قبل تنزيل من حكيم حميد.

هذا القرآن الكريم يعلمنا كيف ندعو الله تعالى. وما يعلمنا أن ندعو به هو خير الدعاء؛ لأن الذي أمرك أن تدعوه علمك، كرماً منه وفضلاً، ما تدعو به، وكذلك علم نبيه ﷺ، فعلمنا كيف ندعو.

روى لنا القرآن الكريم مواقف لعباد الله الصالحين احتاجوا فيها إلى الدعاء،

ولنتذكر أدعية الأنبياء الكرام عليهم السلام بدءاً من آدم عليه السلام وزوجه عندما وقعا في الخطيئة، ثم أدعية إبراهيم عليه السلام حين وضع زوجته وابنه بواد غير ذي زرع.

ثم دعاءه وابنه اسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت، ثم الأدعية الأخرى لإبراهيم عليه السلام.

ولنتذكر دعاء موسى وهارون عليهما السلام لنفسيهما وعلى فرعون وملئه.

ونجد في القرآن الكريم من مواقف الدعاء لأصناف من المؤمنين.

ومن ذلك دعاء أهل الكهف.

ودعاء الصالحين من بني إسرائيل في مواجهة أعدائهم في إحدى المعارك.

ودعاء السحرة الذين آمنوا وواجهوا فرعون.

ونجد دعاء المؤمنين من أهل الكتاب الذين أسلموا.

ودعاء عباد الرحمن.

ونجد دعاء الراسخين في العلم، والمتفكرين في آيات الله.

ومن هذه الأدعية أدعية يلقنهم الله تعالى إياها ليقولوها في مواقف معينة.

ونجد دعاء حملة العرش للذين آمنوا، ودعاء الملائكة لمن في الأرض.

ولا نجد في القرآن الكريم الدعاء في الدنيا وحدها، بل نجد دعاء في الآخرة كذلك:

دعاء المؤمنين وقد دخلوا الجنة، ووجدوا ما وعدهم ربهم حقاً.

ودعاء الكافرين وهم في النار، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

إن هذه المساحة الكبيرة التي يشغلها الدعاء تدل على أهميته في حياة المسلم، وتجعل لسانه متحركاً به في كل حال من أحواله.

وفق ما ورد في القرآن الكريم من أدعية وأحوال، ووفق ما سنراه من بعد من أدعية علمها الله تعالى نبيّه ﷺ، فدعا بها، وصارت أدعية مأثورة، وسنة مسنونة لنا ننال بها الخير.

دعاء في بدء الخلق

كان آدم عليه السلام أول البشر، بل هو أبو البشر، وذريته نسبت إليه، فعرفت ببني آدم.

وقد اختزل آدم التجربة البشرية في حياته واختزنها وورَّثها ذريته من بعده.

فقد خلقه الله تعالى خلقاً مكرّماً، وأسجد له الملائكة، وميّزه بالعلم، وأسكنه الجنة ليرى فيها مشاهد النعيم الذي سيؤول إليه المؤمنون من ذريته بعد تجربة الحياة في الأرض.

خاض آدم عليه السلام، تجربة الخطيئة والتوبة، فاستطاع الشيطان أن يغريه بالمعصية؛ فغوى، ولكن الله تعالى اجتباه وتاب عليه وهدى.

ونجد في مشهد الخطيئة والتوبة دعاء علمه الله تعالى إياه ليتوب عليه:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ونجد هذه الكلمات (الدعوات) في سورة الأعراف يدعو بها آدم وزوجه:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف ٢٣].

هذا الدعاء (دعاء علاجي) لأنه جاء لإصلاح خلل وقع، وهو المعصية، وتضمن اعترافاً بظلم النفس بمعصية الرب سبحانه، ونسيان العهد.

وتضمن طلباً للمغفرة والرحمة، وخشية من الخسارة إن لم يستجب الله تعالى الدعاء.

وهذا دعاء يتعلمه الإنسان من أبويه الأوَّلين:

يعالج به ما قد يقع فيه من معصيته، ويرجو أن ينال به ما نالاه من قبول الدعاء، ومغفرة الذنب.

وفي مواكبة هذا الموقف الذي جاء فيه هذا الدعاء: نجد دعاء للخصم اللدود: إبليس، الذي أبى واستكبر وتمرد على ربه، ولم يسجد لآدم، ولم يكتف بذلك، بل بدلاً من أن: يتوب وينيب ويعترف بالذنب، ويطلب المغفرة والرحمة، ويخشى عاقبة الخسار، بدلاً من ذلك كله أصرّ على المعصية، وجلب لنفسه اللعنة الممتدة إلى يوم القيامة، وفي عقب ذلك دعا الله تعالى دعاء غريباً تضمن أمراً عجيباً:

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤- ١٧].

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر: ٣٦- ٤٠].

وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم عن دعائه وطلبه وخطته:

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٧٩- ٨٣].

إنه موقف مناقض لموقف آدم عليه السلام، ودعاء مختلف عن دعائه.

لقد دعا ربه أن يُمدّ في عمره إلى يوم الدين، لا ليكفر عن خطيئته بصالح العمل، ولا ليُحسن بعد ما أفسد وأساء، بل ليعيث في الأرض

فساداً، ويكثّر حزب الفاسدين المفسدين الغاوين.

ولموقف إبليس هذا أتباع من الناس:

فكم من مسيء لم يرَ وجه الإساءة في ما عمل، بل رأى نفسه وعزّتها فأبى واستكبر، واستمر على ضلاله إلى نهاية حياته.

إنهما دعاءان كانا في بداية الخليقة:

دعاء جاء بعد ذنب؛ فيه القدوة للتائبين المستغفرين.

ودعاء بعد ذنب؛ فيه المثل للغاوين المفسدين.

وقد تتابع الدعاء من بعد على ألسنة أنبياء الله تعالى منذ نوح عليه السلام،

وفي كل دعاء غاية ومضامين، لنا منها دروس، ولنا فيها قدوة.

دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام

إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الناس في الهداية، وخليل الله تبارك وتعالى، نجد له أدعية متجددة تتردد على ألسنة من يتلون القرآن العظيم. نجده وهو فتى يخوض معركة مع قومه ضد أصنامهم، يدعو بدعاء حنون يشمل الدنيا والآخرة، ويمتد إلى الأجيال البشرية التالية:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٣ – ٨٩].

ما أروعها من مطلوبات تتجلى في هذا الدعاء:

الحكمة، والإلحاق بالصالحين، والذكر الطيب في الآخرين، ودخول الجنة، والمغفرة للأب الضال، واجتناب الخزي يوم القيامة.

إنها دعوات إنسانية الأفق والرؤية.

وتزداد هذه الرؤية اتساعاً وشمولاً من بعد، وقد هاجر من أرضه، وكبرت سنّه ورزق الذرية على كبر.

ها هو يسكن زوجته وولده الرضيع في وادٍ غير ذي زرع عند البيت المحرم، ويدعو دعاء ما تزال بركته مستمرة حتى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ

ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٥- ٣٧].

إنه دعاء طلب فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لمكة المكرمة وأهلها: الأمن والرزق من الثمرات، وهما أساس قيام المجتمعات، وهما الأمران اللذان منّ الله تعالى بهما على قريش:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [سورة قريش].

ويبدو والله أعلم أنه دعا بهذا الدعاء مرتين: فعندما كان الوادي بغير سكان قال: اجعل هذا بلداً آمنا، إي اجعل هذا الوادي الخالي من السكان بلداً آمنا مأهولا.

ولما أوى إليه الناس، وصار بلداً حول الكعبة، قال: (اجعل هذا البلد آمناً).

وتذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، تلك الأصنام التي كان يصنعها أبوه وجعلها هو جذاذا، تذكر ذلك، فدعا أن يحمي الله سبحانه البيت الحرام من الأصنام، ودعا لنفسه ولذريته باجتناب عبادتها.

وتضمن الدعاء الإقرار لله تعالى بصفة العلم؛ فهو لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وتضمن حمد الله تعالى على نعمة الذرية في الكبر.

ثم جاء الدعاء بأن يجعله الله تعالى وذريته مقيمين للصلاة، ودعا لنفسه ولوالديه وللمؤمنين بالمغفرة يوم القيامة:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾[إبراهيم ٣٨ – ٤١].

أرأيت كيف امتد الأفق أمام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في الدعاء: ليشمل الدنيا والآخرة، والنفس والوالدين، والذرية والمؤمنين؟

وهل هذا كثير على خليل الله، وعلى أبي الأنبياء إمام المؤمنين؟

ونجد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان بناء البيت الحرام يدعوان الله تعالى بدعاء يمضي في الأفق الرحيب نفسه: لنفسهما، ولذريتهما أن تكون ذرية مسلمة.

ويدعوان أن يعلمهما الله تعالى المناسك اللائقة بالبيت الحرام وأن يتوب عليهما.

ويدعوان تلك الدعوة المباركة التي تحققت في شخصية رسولنا محمد ﷺ:

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ – ١٢٩].

إننا ونحن نستعرض دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام: نستذكر بعض ملامح شخصيته، ونراها تتجلى في صفات هذا الدعاء، وملامح إبراهيم عليه الصلاة والسلام تجلوها لنا هذه الآيات الكريمة:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

دعاء نوح عليه السلام

إننا ونحن في حضرة نوح عليه السلام نجد أنفسنا مع داعية خبير ذي تجربة طويلة امتدت ألف سنة إلا خمسين عاماً، ولم يكن حصاد الرحلة الطويلة مع قومه كما كان يحب من استجابة لأمر الله تعالى. وقد لخص نوح عليه السلام تجربته الدعوية في دعاء طويل بدأه بنداء الله تعالى باسمه الرب: (ربّ)،

ولم يتضمن هذا الدعاء كثيراً من (الطلب) بل كان أشبه بكشف حساب دعوي ختمه بدعاء على قومه المكذبين؛ دعاء يحمل كثيراً من الغيظ وسوء الظن فيهم وفي ذريتهم.

إن نوحاً عليه السلام، وهو يرفع صوته بالشكوى من قومه، ويقول: ربّ، ربّ، كأنما يريد أن يعذر نفسه في إعراض قومه عن الهدى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[نوح ٥- ١٤].

بعد هذا الاستطراد الطويل المفّصل الذي ذكر فيه وسائل الدعوة وأساليبها ومواقيتها، وما كان منه من ترغيب وترهيب لهم، وتذكير بنعم الله عليهم، بعد ذلك تأتي الشكوى من إعراضهم:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: ٢١- ٢٤].

إننا نكاد نلمس الغيظ الشديد الذي كان لديه، فقد بذل كل هذا الجهد في دعوة قومه، ثم هاهم يقابلونه بالمكْر الكُبّار، والإصرار على الضلال، فتأتي دعوته متناسقة مع حالهم:

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

ولا يشفي هذا الدعاء غيظ نوح عليه السلام، بل يأتي في هذه الصورة الساحقة الماحقة:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦- ٢٧].

وبعد هذا الموقف الذي يسوده التوتر في الوصف والشرح والدعاء يلتفت نوح عليه السلام إلى نفسه وإلى والديه وإلى من آمن معه بطلب المغفرة، لكن لا ينسى أن يختم الدعاء بطلب إهلاك قومه الظالمين:

﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم نجد نوحاً عليه السلام في أزمة مع قومه الذين لم يكتفوا بالإعراض والمجادلة بالباطل بل:

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وبالأسلوب نفسه نجد عرض الحال على الله تعالى، والشكوى من القوم، والدعاء عليهم:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٧- ١١٨].

ويخبرنا القرآن الكريم باستجابة الله تعالى لدعائه:

﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٩ – ١٢٠].

ويقدم لنا القرآن الكريم نوحاً عليه السلام في صورة شبيهة بهذه في (سورة المؤمنون)، وقد كذبه قومه، فشكاهم إلى الله تعالى طالباً النصرة منه:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

وتأتيه النصرة من الله تعالى: بإرشاده إلى صُنع الفلك، ثم بالتعليمات التي تناسب الموقف، ويمكن أن نسمّيه: دعاء النجاة من القوم الظالمين، وهو دعاء يصلح لكل مؤمن يتعرض للفتنة ثم ينجيه الله تعالى:

﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٨- ٢٩].

إن هذا الدعاء يتضمن تعليماً من الله تعالى لنبيه نوح عليه السلام، فيه الحمد لله تعالى، وفيه طلب البركة في المنزل الذي يحل فيه.

ونواجه نوحاً عليه السلام في مشهد ما بعد الطوفان، وقد دعا بالنجاة لابنه الذي رفض أن يركب معه في الفلك فكان من المغرقين. إنها رحمة الأب تتجلى في رجاء النجاة للابن، ولكن الله تعالى يبين لنوح عليه السلام، الحق في الأمر فيرجع إليه ويستغفر ربه:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ

أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود ٤٥ - ٤٧].

إن دعاء نوح عليه السلام ختلف في مضمونه عن دعاء إبراهيم، فلكل شخصيته وتجربته وأفقه الذي يتجلى له، وفي كل شخصية وموقف ودعاء درس وعبرة.

دعاء موسى عليه السلام

حياة موسى عليه السلام مليئة بالمواقف التي دعا فيها الله تعالى.

وحياته واضحة لنا في القرآن الكريم منذ كان رضيعاً إلى أن صار شابا يافعاً، إلى أن تقدمت به السن وخاض المواجهة مع فرعون وأخرج قومه من مصر وتوجه بهم إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، ونكصوا على أعقابهم.

أول مواقف الدعاء التي نجدها من موسى عليه السلام وهو شاب يستنجد به رجل من بني إسرائيل في خصومه وقعت بينهما.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

إنه موقف مفاجئ لم يكن في حسبانه، فقد وجد نفسه يقتل نفساً من غير عمد، ولا بد من التوبة، فاتجه إلى الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٦- ١٧].

وفي هذا الدعاء استغفار من الذنب غير المتعمد، وعهد بالاستقامة بعدم مناصرة المجرمين.

ويخرج موسى عليه السلام من مصر بعد أن جاءه التحذير: أن الملأ يأتمرون به، وهو معلق بالله، فهو الذي حماه رضيعاً، وألقى عليه المحبة في قلب امرأة فرعون، ونشّأه في قصر فرعون، ولذلك يتوجه إلى ربه سبحانه في كل أزمة يمر بها:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

إنه دعاء بالنجاة من فرعون وملئه الذين يريدون به كيدا، وها هو يسير في الطريق وحيداً لا أنيس معه، وليست له خبرة بالطريق، فمن الذي يهديه إلى وجهة تكون له فيها نجاة؟

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

إنه دعاء بصيغة الخبر، وكأنه يقول: اللهم اهدني سواء السبيل.

ويصل مدين بعد رحلة طويلة مريرة فلا يجد من أهلها ترحابا، بل لا يجد لديهم مروءة، ولو كانت لديهم مروءة لما سقوا قبل الفتاتين، ولذلك كان منه السلوك السليم في مثل هذا الموقف تعليماً لهم:

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

واستجاب الله تعالى دعاءه، وكان من الرجل الصالح في مدين ذلك الموقف بتزويجه ابنته على أن يأجره ثماني حجج أو عشرا.

ونجد موسى عليه السلام، وقد قضى الأجل وسار بأهله، ورأى النار، وجاءها طالباً للهدى أو لقبس من النار لأهله لعلهم يصطلون بها في تلك الليلة الباردة، ونزلت عليه الرسالة، ورأى من آيات ربه: العصا واليد، وهو في هذا الموقف المهيب يكشف لربه سبحانه عن مخاوفه من أن يقتله فرعون وقومه بالذي قتله خطأ منهم، ويطلب أن يعان على الرسالة بأخيه هارون عليه السلام، ونجد أنفسنا أمام دعاء مفصل مليء بالخشوع:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ

يَٰمُوسَىٰ ﴾[طه: ٢٥-٢٦].

لقد طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أدوات مساعدة على الرسالة:

شرح الصدر، وتيسير الأمر، وحل عقدة اللسان، وهارون الوزير المعين على أداء الرسالة، وعلى تسبيح الله وذكره.

وتمضي السنوات ونجد المعركة بين موسى عليه السلام وفرعون قد بلغت ذروتها، وطغى فرعون وبغى، ولم يستجب لداعي الهدى مع كل ما رآه من الآيات البينات.

وهنا يلجأ موسى عليه السلام إلى ربه داعياً على فرعون وقومه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٨- ٨٩].

إنه دعاء يذكرنا بدعاء نوح على قومه عندما بلغ الأمر مداه، ومضمونه:

الطمس على أموال فرعون وملئه، والشدّ على قلوبهم لكيلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

لقد كانت دعوات موسى عليه السلام، في أزمات مرّ بها في علاقته مع فرعون وقومه، وفي علاقته ببني إسرائيل، ومنها ما كان منهم عندما ذهب إلى ميقات ربه، وترك خليفة من بعده على بني إسرائيل أخاه هارون عليه السلام، فعصوه وعبدوا العجل، وغضب عندما عاد ورأى حالهم، وكان منه ما كان تجاه هارون عليه السلام، ثم لجأ بعد ذلك إلى الله تعالى بالدعاء لنفسه ولأخيه:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

ونلاحظ أن موسى عليه السلام استثنى قومه من هذا الدعاء، فقد كان في حالة غضب عليهم لعصيانهم أمره، وعبادة العجل.

ونستمع إلى دعاء موسى عليه السلام، وقد ذهب مع سبعين رجلاً من قومه إلى ميقات ربه ليعلنوا التوبة عما كان منهم، فأخذتهم الرجفة:

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥ - ١٥٦].

ونجد آخر دعاء لموسى عليه السلام وقد عصاه قومه ورفضوا دخول الأرض المقدسة، فدعا الله تعالى أن يفرق بينه وبين قومه الفاسقين، ونجد في هذا الدعاء إحساساً بالحسرة ألاّ يجد على طريق الهداية إلا نفسه وأخاه هارون عليهما السلام:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥].

دعاء داود وسليمان عليهما السلام

داود وسليمان عليهما السلام، نبيان من أنبياء بني إسرائيل، ورد ذكرهما معاً حينا، ولكل منهما ذكر منفرد حيناً آخر. إننا لا نواجه هذين النبيين الكريمين في مواقف معاناة مع قومهما، فقد كانا نبيين ملكين، ولهما سلطة في قومهما، ولذلك نجد الدعاء الوارد عنهما في القرآن الكريم أقرب إلى الشكر منه إلى الشكوى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥].

دعاؤهما حمد لله على التفضيل، وهو دعاء صادر عن إحساس بالنعمة.

ونجد داود عليه السلام في موقف فتنة لم يفصله القرآن الكريم، وذلك عندما تسوّر عليه المحراب خصمان وسألاه أن يقضي بينهما، وكان في هذا الموقف رسالة له فهمها:

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴾ [ص: ٢١ - ٢٤].

إنه موقف استغفار من أمر لم يفصله القرآن الكريم، مع ركوع لله وإنابة إليه، وفيه بيان العاقبة بمغفرة الله تعالى له وبيان منزلته عند ربه سبحانه.ونجد صورة لداود عليه السلام في القرآن وهو في حلقة ذكر يتجاوب معه فيها الجبال والطير:

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[سبأ: ١٠].

ونجد شبها بين سليمان وداود عليهما السلام، في بعض مواقف الدعاء، فها هو سليمان عليه السلام في موقفين:نجده حامداً شاكراً لله على نعمه.

ها هو وجنوده يأتون على وادي النمل، وها هو يشكر الله تعالى على ما آتاه من قدرة على إدراك تخاطب النمل كما آتاه القدرة على معرفة منطق الطير. وها هو القرآن الكريم يحدثنا عن هذا الموقف وصداه في نفس سليمان ثم دعائه ربه سبحانه:

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

إنه موقف شكر في قضية فردية ذاتية هي من نعم الله تعالى عليه، ومضمون الدعاء أن يمكنه الله تعالى من شكر نعمته عليه وعلى والديه، وهو يعلم أن النعم تدوم بالشكر، وأن يعمل عملاً صالحاً يرضاه الله تعالى ويتقبله، وعمل الصالحات يقرب من الله تعالى زلفى، وأن يدخله في عباد الله الصالحين برحمته، وهي دعوة بحسن العاقبة.

إن أفق هذه الدعاء وإن كان خاصاً به وبوالديه، فإنه امتد زماناً ومكاناً ليشمل الدنيا والآخرة.

ونجد سليمان عليه السلام في موقف شكر آخر، تتجلى فيه عليه نعم الله تعالى، وذلك حين طلب ممن حوله من الملأ أن يحضروا له عرش بلقيس، وأحضره الذي عنده علم من الكتاب في طرفة عين. وهنا نجد سليمان عليه السلام يقدّم بموقفه من هذا الحدث نموذجاً لمن آتاهم الله تعالى الملك والتمكين، إنه نموذج التواضع لله تعالى، والشكر لنعمته:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[النمل: ٤٠].

إنه دعاء لله تعالى يتضمن: الاعتراف بالنعمة، والشكر عليها، وطلب دوامها، وإن يكن دعاء غير صريح.

ونجد في مشهد الدعاء السليماني صوت ملكة سبأ وقد رأت من الآيات ما أزال الغشاوة عن عينيها:

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[النمل: ٤٤].

إنه دعاء بالمغفرة بالإقرار بظلم النفس، وبإعلان الإسلام الذي يجُبُّ ما قبله، ويفتح صفحة البر والإحسان في علاقة العبد بربه.

وفي مقابل هذه المواقف التي تتجلى فيها النعم، وتقابل بالشكر، نجد سليمان عليه السلام في موقف محنة ينجلي عن نعمة كبرى:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى

لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ [ص: ٣١- ٤٠].

إن لدعاء داود وسليمان عليهما السلام ملامح خاصة تميزه عن دعاء الأنبياء السابقين لاختلاف تجربتهما عن تجاربهم، ولكنه يقدم للمؤمنين زادا في الدعاء في مواقف الشكر ومواقف الفتنة.

دعاء آل عمران

كرم الله تعالى آل عمران، وخصهم في القرآن الكريم بسورة باسمهم، كما جعل لمريم عليها السلام سورة باسمها، وهي حفيدة عمران. وقد أورد لنا القرآن الكريم بعضاً من دعاء آل عمران: دعاء امرأة عمران، ودعاء زكريا، ودعاء مريم، ودعاء المسيح، عليهم السلام.

ولدعاء آل عمران خصوصية فهو ليس دعاء على قوم كذبوا وعصوا، وليس دعاء على طاغية متمرد على الله تعالى بل هو: دعاء أم لابنتها ودعاء رجل لابنه، ودعاء رجل لنفسه. وهي أدعية مختصرة لا تطويل فيها، ولكنها دروس في الدعاء لما يشبهها من المواقف.

أول ما يواجهنا من دعاء آل عمران: موقف امرأة عمران، وقد نذرت جنينها لخدمة بيت الله تعالى، وكان ظنها أن ما في بطنها ذكر، وكم كانت مفاجأتها بل فجيعتها عندما كان وليدها أنثى!! لكن ذلك لم يثنها عن نذرها، فبماذا دعت؟

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران ٣٦].

إنه درس في الدعاء لكل أب وأم ليعوذا الأبناء من شر ما يستعاذ منه: الشيطان الآمر بالفحشاء، والموقع للعداوة والبغضاء بين الناس. إنها دعوة أم لابنتها في جو إيماني شفيف.وصلة بالله تعالى لا يحجبها حجاب؛ ولذلك جاء القبول عقب الدعاء:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ

مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ولا نكاد نسمع صوت مريم بكلمة واحدة إلاّ قليلاً في المواقف التي قصها علينا القرآن الكريم من سيرتها الطيبة، نسمع أمها تدعو لها، ونسمع الملائكة تحييها. ونسمع زكريا عليه السلام يخاطبها، ولكنها تظل بلا صوت إلا في جواب قصير عن سؤال زكريا عما رآه لديها في المحراب من الرزق:

﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ونسمع صوتها في دعاء جاء في صيغة استعاذة في موقف الدهشة حين رأت الملك بشراً سوياً، وهي وإياه في خلوة لم تتوقعها، وقد جاءها بأمر لم يخطر لها على بال:

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم: ١٨].

وهو دعاء التقية الحييّة التي تلجأ إلى ربها تعالى في المواقف الحرجة، ونجدها:وقد اشتد بها الحمل، وأخذها المخاض، وخواطرها تستحضر ما بعد الولادة، وما ستمر به من محنة مع قومها تدعو:

﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴾ [مريم: ٢٣].

إن دعاء مريم عليها السلام دعاء فردي في موقفين حرجين.

ونجد دعاء زكريا عليه السلام، وهو دعاء رجل تقدم به العمر، وتمنى أن يكون له وريث في الدعوة وإقامة الدين في بني إسرائيل، وهي أمنية بعيدة لرجل طعن في السن، وله امرأة عاقر، ولكن الله تعالى على كل شيء قدير.

وقد لهج لسانه بدعاء ربه، عندما رأى حال مريم عليها السلام وما ظهر لها من كرامات، فشجعه ذلك على الدعاء:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨].

ونجد زكريا عليه السلام في موقف مفصل لهذا الدعاء في سورة مريم:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٤- ٦].

لقد طلب الذرية الطيبة، والولي الرضي، طمعاً في أن يكون في مثل مريم صلاحاً. وأن يتحقق فيه ما رجاه من الذرية.

ونجد أخيراً دعاء المسيح عليه السلام وهو دعاء للنفس بالسلام في الدنيا والآخرة:

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٣].

إن لدعاء آل عمران خصوصية أظنها لا تخفى على متأمل، وفيها دروس لمن أراد القدوة في شؤون الأسرة.

مواقف وأدعية قرآنية

حدثنا القرآن الكريم عن مواقف لأنبياء وصالحين، كانت لهم فيها أدعية ناسبت تلك المواقف، وهي أدعية يقدمها القرآن الكريم للمسلم ليدعو بها حين يقع في ظروف مشابهة.

ها هو يوسف عليه السلام في بيت عزيز مصر، ينظر إلى العزيز وامرأته نظرته إلى والديه. لقد بلغ أشدّه، وآتاه الله الحكمة والعلم، لكن يفاجأ من امرأة العزيز بأمر غريب؛إنها لا تنظر إليه نظرتها إلى الولد، بل هي أنثى تراود فيه الذكورة، ويدخل في محنة رهيبة، محنة نفسية لم يكن يتوقعها، وزاد الأمر سوءاً ذلك الكذب من امرأة العزيز، ثم انتشار الخبر في المدينة، ثم اجتماع نسوة من علية القوم على مراودته.

وأحسّ بثقل الواقع، وشدّة الفتنة، فكان منه هذا الدعاء:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [٣٣- ٣٤].

واستجاب الله تعالى دعاءه، فكان السجن مأمناً له من فتنة النساء.

ونجد يوسف عليه السلام في موقف دعاء آخر، فها هو قد تحققت رؤياه، واجتمع شمله مع والديه، وانتهت معاناة الأسرة جميعها، نراه وقد رفع أبويه على العرش، وخرّوا له سجدا، وذكّر والده بالرؤيا التي تحققت، وبالنعمة التي تمت عليه وعلى أسرته بخروجه من السجن، ومجيء أهله من البدو، وزوال نزع الشيطان بينه وبين إخوته.

إنها نفس صافية تعرف حق الله تعالى، وتتسامح مع من أساء إليها، فينطلق لسانه بهذا الدعاء الذي يقدمه نموذجاً لكل من أتم الله تعالى عليه نعمته:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[يوسف: ١٠١].

إنه دعاء قدم له بسرد النعم الربانية، فما الذي دعا به من كان على خزائن الأرض عزيزاً في مصر؟ إنها الوفاة على الإسلام، والإلحاق بالصالحين، هذا دعاء في موقف نعمة وشكر.

وهناك مواقف محنة رافقها دعاء: فها هي امرأة فرعون التي انكشفت لها حقيقة زوجها؛ بما ترى من أحواله البشرية مما لا يراه الناس عندما يخرج عليهم في زينته وجنده وأبَّهته، نرى امرأة فرعون في لحظة صفاء تتوجه إلى ربها سبحانه بهذا الدعاء:

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

لقد بدأت في دعائها بالعاقبة: بيت عند الله في الجنة.وثنت بالدنيا:النجاة من فرعون وعمله ومن القوم الظالمين.

لقد كانت امرأة فرعون امرأة في قمة هرم الدنيا نعمة وترفاً، ولكن ذلك لم يشكل غشاوة على قلبها وعينيها.

وكم من امرأة ورجل لا تغرهما الدنيا ببهرجها ومناصبها ومالها، وتراه وتراها يخترقان ذلك كله ليريا بنور الإيمان حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، ونجد في القرآن الكريم دعاء السحرة الذين آمنوا بعد أن انكشفت له الحقيقة: حقيقة سحرهم، وحقيقة فرعون، وحقيقة نبوة موسى عليه السلام.

وقامت عليهم الحجة بأن موسى عليه السلام: نبي الله تعالى، لا كبيرهم الذي علمهم السحر، كما زعم فرعون، وواجهوا فرعون بالحقيقة التي انشكفت لهم، وواجههم بالوعيد الشديد، وأعلنوا إيمانهم وأصروا عليه.وختموا الموقف بهذا الدعاء الذي يناسب موقف المواجهة، مستعينين

به على البلاء الذي هددهم به فرعون:

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

إنها المواجهة الرهيبةالتي تحتاج إلى الصبر الذي يفرغ عليهم إفراغاً ليثبتوا على الحق ويموتوا مسلمين.

ونجد مثل هذا الدعاء أو قريباً منه مع زيادة ينطلق بها لسان الجند الذين كانوا مع طالوت، وواجهوا جالوت وجنوده، وهم فئة قليلة مؤمنة تواجه كثرة كافرة:

﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

وهو دعاء يصلح لكل مواجهة بين المؤمنين والكافرين في ميدان المعركة:

بإفراغ الصبر، وتثبيت الأقدام، والنصر على الكافرين.

ونجد دعاء لبني إسرائيل في لحظة حرجة، وقد اتخذوا العجل ثم انكشف لهم سوء عملهم، فانطلق لسانهم قائلين:

﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

هذه بعض المواقف التاريخية التي صحبها الدعاء.

وفي إيرادها في القرآن الكريم تعليم للمؤمنين أدعية تناسب مواقف شتى قد يمرون بها كما مرّ بها الأولون.

ولا يخفى أن خير دعاء للإنسان هو ما ورد في القرآن الكريم، أو صح في السنة النبوية، أو ما يوافق حاجة العبد في حال الاضطرار.

دعاء المؤمنين في القرآن الكريم

علم القرآن الكريم المسلمين كل خير، وهداهم سبيل الرشاد، ومما علمهم إياه دعوات جاءت على ألسنة المؤمنين في مواقف متعددة، وسياقات مختلفة، ليكون دعاء القرآن الكريم خير ما يدعو به مؤمن، إلى جانب ما علمنا إياه رسولنا محمد ﷺ. وهذه الدعوات غير تلك التي ارتبطت بمواقف تاريخية مما ورد من قبل.

جاء في سياق البيان لأصناف الناس في الدنيا وما لهم فيه من المطالب والمآرب ذكر صنفين:صنف دنيوي الرؤية والهم، وصنف يرى الدنيا ويرى معها الآخرة. وشتان ما بينهما.في سياق الحديث عن هذين الصنفين يأتي بيان دعاء كل منهما:

﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾[البقرة: ٢٠٠].

فالدنيا وما فيها مطلب هذا الصنف الذي لا يؤمن بيوم الحساب. ولكن للمؤمنين دعاء آخر:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[البقرة: ٢٠١].

إنه دعاء يشمل خير ما في الدنيا وخير ما في الآخرة، وفيه طلب الوقاية من شر ما يستعاذ منه وهو: النار.

وفي موقف آخر نجد القرآن الكريم يقدم الموقف المطلوب من المؤمنين باستكمال أركان الإيمان والطاعة والاستغفار:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ

وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[البقرة: ٢٨٥].

لقد جاء الدعاء استغفارا (غفرانك ربنا) في ختام الحديث عن أركان الإيمان، ثم بعد ذلك يعلم القرآن الكريم المؤمنين دعاء يناسب الضعف البشري الموجود في الإنسان الذي يوقعه في المعصية فيستغفر، وهذا الدعاء هو:

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

إنه دعاء طويل متعدد الجوانب والمطالب: فالنسيان والخطأ من طبيعة الإنسان، فيأتي هذا الدعاء ليعلم المؤمنين أن يطلبوا من ربهم سبحانه أن يتجاوز عن خطئهم ونسيانهم.

ومن ضعف الإنسان أنه لا يستطيع حمل التكاليف والأعباء الشرعية إذا كانت فوق طاقته، وقد كان في التشريعات السابقة يشدّد على الأمم السابقة، فجاء القرآن الكريم يعلم المؤمنين أن يتقربوا إلى الله تعالى بدعائه، ألا يكلفهم ما كلف الأمم السابقة من الأعباء، وألا يحمّلهم ما لا يطيقون، مما يثقل عليهم فعله من التكاليف.

ويضاف إلى ذلك إحساس المؤمنين بالضعف والتقصير مما يتطلب سؤال ربهم العفو والمغفرة والرحمة. وفي الدعاء: يظهر ضعف الداعي، وقوة المدعو سبحانه. فهو الولي وهو القادر على نصرة عباده المؤمنين.

ونجد في سورة آل عمران أدعية يعلمها الله تعالى عبادة المؤمنين

في بداية السورة وفي ختامها. فقد تحدثت السورة في بدايتها عن الراسخين في العلم أولي الألباب الذين يؤمنون بما أنزل الله تعالى من محكم القرآن الكريم ومتشابهه وذكرت أدعيتهم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ٧- ٩].

ما الذي علم القرآن الكريم أولي الألباب – الراسخين في العلم أن يدعوا به؟

إنها الوقاية من زيغ القلوب بعد الهداية، والثبات على الإيمان وطلب الرحمة من لدن ربهم، وإعلان الإيمان بيوم القيامة.

ويأتي في السورة نفسها موقف آخر للدعاء، بعد الحديث عن العباد الصالحين الذين يستحقون الجنة، وما هم فيه من الصفات المرضية عند ربهم من:صبر وصدق، وقنوت وإنفاق، واستغفار في الأسحار. فماذا كان دعاؤهم؟

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

عناصر هذا الدعاء: إعلان الإيمان، وطلب الغفران، وسؤال الوقاية من النار.

وفي ختام سورة آل عمران دعاء مطول لأولي الألباب، الذين يتفكرون في خلق السماوت والأرض، ويذكرون الله تعالى في كل أحوالهم، فتتجلى لهم آيات الله تعالى في نور الإيمان والذكر، فيدعون دعاء فيه إقرار بحكمة الخالق العظيم:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [آل عمران: ١٩١ – ١٩٢].

إنه دعاء دائم متكرر في أدعية المؤمنين: الاستعاذة من النار.، وفي الدعاء تقرب إلى الله تعالى، وتذلل له ببيان حالهم مع الإيمان:

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وفي هذا الدعاء يتكرر طلب يرد في دعاء المؤمنين: غفران الذنوب والسيئات، والوفاة مع الأبرار.، ولا يخفى أن الأبرار في نعيم، فمن كان معهم كان من الناجين.

ويمضي الدعاء بين عرض حال وطلب وسؤال: فهم آمنوا بما أنزل الله تعالى على رسوله، وقد جاء الرسل إلى الناس بوعود للمؤمنين منهم، آمن بها الأبرار الداعون، فهم يسألون الله تعالى أن ينالوا ذلك الخير الموعود على ألسنة الرسل الكرام:

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

ومع طلب نيل الوعود دعاء بالوقاية من خزي يوم القيامة بالحساب المذل والعرض المهين. وفي الدعاء ثقة بالله تعالى الذي لا يخلف الميعاد. وقد أخبر الله تعالى في ختام هذا الدعاء أنه استجاب لهؤلاء الداعين، وأنالهم ما سألوه:

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

أما بعد، ، ،

فقد كانت هذه الرحلة مع الأذكار والأدعية، وأرجو أن يكون فيها ما يحيي القلوب، وينعش المشاعر، ويعيد إلى الذكر والدعاء حيويته ليتحقق تأثيره. ولا أزعم أنني استوعبت في هذه الرحلة أدعية القرآن الكريم أو أدعية السنة الشريفة، فذلك ما لم يكن من هدفي.

كان هدفي تقديم نوع من فقه الذكر والدعاء يتجاوز بالقارئ ظواهر الكلمات ويغوص إلى بعض معانيها.

فإن كان في هذا الكتاب نفع وخير، فهو بفضل من الله ونعمة وبركة، وإن يكن فيه تقصير فمن نفسي وقصور فهمي، وضيق علمي. وأسأل كل من قرأه فوجد فيه نفعا دعاء لي بظهر الغيب، فذلك شأن المؤمنين:

« رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات»

والله تعالى المسؤول أن يكتب الأجر، ويتجاوز عن الخطأ والنسيان والقصور، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الفهرس